

الجامعة التونسية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

شهادة التعمق في البحث

تاريخ الأدب

مفهومه ومناهجه
في

تاريخ أدب اللغة العربية : جوجي زيدان
تاريخ أدب العرب : مصطفى صادق الرافعي
تاريخ الأدب العربي : أحمد حسن الزيات
في الأدب البهايلي : طه حسين

حسين الواد

لشرفه في استاوتنا في بكار

المقدمة

* توطئة *

* تقديم المصادر *

توطئة :

يعدّ التأليف في تاريخ الأدب من أشدّ الشواهد بروزاً في إنتاج العرب الفكري طيلة العصر الحديث. ذات أنّ التصانيف فيه بلغت من التكاثر حدّاً يحسّر معسلة تسميتها جسيماً ولما يمتدّ على شروع المؤلفين العرب في التأريخ لأدبهم وقت طويل. ولعلّ هذا التكاثر هو الذي جعل المؤرخ الجماعة لأسماء الكتب كارن بروكلمان يكتفي بذكر قائمة تعدّ أربعة وعشرين مصنفاً في تاريخ الأدب منها أربعة عشر ظهرت حتى نهاية الأربعين الأول من القرن العشرين، ويقول : " لا نستطيع أن نسمي هنا إلاّ بعض الكتب. " (1)

وليست من شكّ في أنّ مثل هذا التكاثر كفيل في حدّ ذاته، بأن يحمد جمهور الباحثين على التساؤل عن الأسباب التي دعّت الكتاب في مستهل هذا القرن، إلى الاقبال على التأليف في تاريخ الأدب هذا الاقبال، خاصة أنّ منهم من لم تكن نشاطاته تهيئته، في ما يبدو، لمزاولة مثل هذا النوع من التأليف (2)

(1) - أورد بروكلمان هذه القائمة في المقدمة التي مدّ بها لكتابه : " تاريخ الأدب العربي " فقال بعد أن استعرض المؤلفات التي أرح بها المستشرقون للأدب العربي : " وقد ألّف في زماننا هذا كثير من أهل مصر والشام والعراق كتباً في الآداب العربية ضئيلة القيمة يفصّل أكثرها إلى أغراض التعليق " (3)

تمريب عبد الحليم النجار . القاهرة 1977 . ج I ص 32 .

(2) - فان العريان : " لم يكن للرافعي في الأدب بعد هذا الكتاب رأى ذو خطراً أو دراسة ذات أثر أو جولة في باب من أبواب الكتابة وانما كان غفصاً على الشعر " . أنظر : الرافعي : تاريخ

ج I ص 6 . وذكر بروكلمان لمعروف الرصافي الشاعر العراقي كاتباً في تاريخ الأدب العربي ظهر سنة 1928 . انظر أيضاً : بروكلمان

الرجح المردكور . . . ج I ص 32 .

ثم إن من مؤلفات تاريخ الأرب هذه ما لقي رواجاً قالياً
اتفق لغيره من المطبوعات. فقد طبع كتاب أحمد حسن اليماني
" تاريخ الأرب العربي " ستاً وعشرين مرة في ما لا يزيد على
الحسين عاماً و طبع كتاب طه حسين " في الأرب الجاهلي " عشر
مرات، وطبع كتاب جرجي زيدان " تاريخ آداب اللغة العربية "
إلى الآن مرجعاً أساسياً من مراجع الدراسات الأربية. أما كتاب
مصطفى صادق الرافعي " تاريخ آداب العرب " فقد عُبئت أجزاءه
الثلاثة فرادى ومجموعة مرات، وتناولتها عناية التحقيق (3).
بد أن من هذه المؤلفات ما تسبب في ذلك الصيت الذي تكون لأصحابها.
فشهرة طه حسين، ترجع من بين ما ترجع إليه، إلى كتابه في الأرب
الجاهلي، وأحمد حسن الزيات انتدب للتدريس في دار العلوم ببغداد
على اثر ظهور كتابه في تاريخ الأرب، وقد كان من قبل يشتغل
مدرساً بالمعاهد الثانوية الأهلية في مصر. (4)

ويبدو أن مثل هذا الرواج حقيقى بأن يدعو الباحثين إلى
السؤال عن الأسباب التي جعلت القراء يقبلون على مؤلفات
تاريخ الأرب هذا الإقبال الذي يدل عليه تعدد طباعتها، فذلك
يعني أن أجيالاً وأجيالاً من العرب المعاصرين قد تشفتت على هذه
المؤلفات وتأثرت بها.

ثم إن من هذه المؤلفات التي ظهرت في الربع الأول من
القرن العشرين ما فتح نهجاً في تاريخ الأرب سار على هذبه
اللاحقون. فما جاء بعد أعمال زيدان والرافعي والزيات
وطه حسين من مؤلفات في تاريخ الأرب العربي لا يكاد يخرج
عما ورد فيها من مفاهيم ومناهج. من ذلك مثلاً أن علي الجندي
أرجح للأرب الجاهلي بمشبه ما أرجح له به زيدان والزيات، وأن

(3) - انظر في ذلك الصفحات 31 و 32 من هذا المجلد.

(4) - حسب عدنان الخطيب : أحمد حسن الزيات : فقيد الأرب العربي .

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق . يوليو 1968 ص 676 وما يليها .

شوقي ضيف حاول في كتابه " الفن ومذاهبه في الشعر العربي " أن يترسم
خطى طه حسين " في الأدب الجاهلي " (5) .

ومن شأن هذه الظاهرة أحيانا أن تحت الباحثين على التساؤل عن
العوامل التي جعلت الخلف يسير في تاريخ الأدب على ما انتهجه السلف من سبل
ومناهج .

إلا أن التأليف في مادة تاريخ الأدب ظل ، مع ذلك ، أشد ما يكون افتقارا إلى
منايا الباحثين . ولعل الوقوف على ما أنجز بعد فيه من أبحاث كليل باظهار مدر
احتياجه إلى الدرس .

فالمكتبة العربية لا تظم ، في علمنا ، سوى عمليين اثنين عالج فيهما مؤلفاهما بعضا
من مشاكل الكتابة في تاريخ الأدب العربي علاجا يبدو ، إذا أمعنا النظر فيه ، متسما
بالإجازة المخل والاستعراض المنعوص . أما الأول فهو دراسة ألفها الباحث السبورن
شكري فيصل سنة 1943 لنيل درجة الماجستير من جامعة فؤاد الأول بالقاهرة ، وتناول
فيها " مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي " (6) بالعرض والنقد والاقتراح . وقد
درس فيها صاحبها " مناهج البحث في الأدب العربي والطرائق التي غلبت على الدراسات
الأدبية والنظريات التي كانت تتحكم فيها " (7) . واستعمل من بين ما استعمله فيها من

مصادر كتب تاريخ الأدب ، فاستعرض

(5) - جاء كتاب علي الحندي : " تاريخ الأدب الجاهلي " من مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة

1969 ، بيد النسبه بصلي زيدان والزيات . أما شوقي ضيف فقد أخذ بمنهج التنسييم
المدارس فنية في كتابه " الفن ومذاهبه في الشعر العربي " مكتبة الأندلس . بيروت 1943
و " الفن ومذاهبه في النثر العربي " دار المعارف . القاهرة 1960 . وكان تأثيره بطه
حسين في الكتاب الأول خاصة شديد الوضوح . فقد كتب فيه : " وأن فنحن أمام مبدع
الشعر أسنادها زهير وتلاميذها جماعة تارة يكونون من أهل بيته ، وتارة لا يكونون ، وهي
مدرسة . . . " (2) ثم ساق شاهدها بين كتاب طه حسين " في الأدب الجاهلي " . و قد
حاول شوقي ضيف ، بعد ذلك ، إلى التأريخ للأدب العربي حسب المصور وذلك في كتابه
" تاريخ الأدب العربي " دار المعارف . القاهرة (1960 - 1971) . وفي كلتا الحالتين
فال شوقي ضيف يمد يده لشم طه حسين أو لعلمي زيدان والزيات .

(6) - الاسم الكامل ، لكتاب مكرم فيصل هو : " مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي "
(عرض ونقد واقتراح) . دار العلم للملايين . بيروت 1973 .

(7) - المرحم السابق ص 1 .

1, 2, 3
 1
 2-3
 2
 3
 4
 5
 6
 7
 8
 9
 10
 11
 12
 13
 14
 15
 16
 17
 18
 19
 20
 21
 22
 23
 24
 25
 26
 27
 28
 29
 30
 31
 32
 33
 34
 35
 36
 37
 38
 39
 40
 41
 42
 43
 44
 45
 46
 47
 48
 49
 50
 51
 52
 53
 54
 55
 56
 57
 58
 59
 60
 61
 62
 63
 64
 65
 66
 67
 68
 69
 70
 71
 72
 73
 74
 75
 76
 77
 78
 79
 80
 81
 82
 83
 84
 85
 86
 87
 88
 89
 90
 91
 92
 93
 94
 95
 96
 97
 98
 99
 100

مناهج التقسيم الزمني أو التفسيري التي فنون أدبية ومذاهب فنية ونقدية و حاول أن يفتح منهجاً بدنياً يؤخذ به في درس الأرب أو نظيره أو تأريخه. وجاءت هذه الدراسة عملاً رائداً كان لصاحبها فيها فضل التنازل عين المناهج التي استعملت في فهم الأرب العربي ودرسه أو التأريخ له، وفصل التفتيش التي ما في ذلك من قصايا. ولتتبعها، مع ما لها من فضل، لا تحلو من عييين: أحدهما أن شكراً فيصداً في دراسته مؤلفات تاريخ الأرب مثلما تناول غيرها من سائر المؤلفات التي تعنى بالأرب أو درسه ونظر إليها: بينما نظرة واحدة على أنهما مصداقاً لتوفر فيهما المناهض والناريجات فربما مثلما التي "تاريخ الأرب العربي" للزيات وهو عمل آخر به صاحب الأرب وربح إلى "ضحى الإسلام" لأحمد أمين وإلى "في الأرب المصري" لأمين الخولي وهي مؤلفات لا تؤرخ للأرب العربي أو الفري وأصح بين طيبة الأعمال التي تؤرخ للأرب أو بين المؤلفات الأخرى التي تنقد الأرب أو تدرسه أو تعنى به في إطار تأريخها للحنارة العربية. وقد نتج عن ذلك أن خرج عمل شكراً فيصل عن نطاق تاريخ الأرب التي سائر المؤلفات التي تحتتم بالأرب وتدرسه. والثاني أن شكراً فيصل حاول أن يخطط في عمله بكل المناهج القديمة والحديثة وأن يفت على كل الاتجاهات. فنظر في "المقدمة" لابن رشيق مثلما نظر في حديث طه حسين عن "البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر الجرجاني" بمناسبة تعديه لكتاب "نقد النثر" (8)، وأحياناً على أبي نواس مثلما

(8) - كان النقاد ينسبون كتاب "نقد النثر" لقدامة بن جعفر، حتى اكتشفوا أخيراً أنه لابن وهب الكاتب. وقد كان طه حسين يسمح له بمقدمة عيية أبدى فيها لشككه في صحة نسبة الكتاب لقدامة، وتناول فيها "البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر" بالتحليل والاستعراض، وذلك في النسخة التي طهرت لهذا الكتاب منسوباً إلى قدامة. المطبعة الأميرية، بولاق. العاشرة 1941. أما النسخة التي طهرت منسوبة إلى ابن وهب فقد حققها أحمد مطلوب. مطبعة الماتي بعدد 1967.

أعماله على جرجسي زيدان (9)، فجاء عمله على شي من
السيرة والسلاحيات في الحرب العالمية الأولى في ميدان شاسع
يتطلب كثيرا من التحري والحدوث العميق. لهذا لابد من
دراسة أكثر فعمق، على غيبتها، لا تمكن من التعمق لا على
تد المؤلفات الكثيرة التي وضعها أصحابها في تاريخ
الأدب قبل النص للأول من هذا القرن، ولا على المفاهيم والمناهج
النفسية أخذت بها أو استعملوها فيها.

وأما العمل الثاني فهو أيضا دراسة لنيل درجة
الماستير من جامعة القاهرة، قام بها عبد السلام محمد
الشاذلي سنة 1972 ولا تزال مخطوطة (10). وقد درس فيها
صاحبها: "اتجاه العلمي في مناهج تاريخ الأدب الحديث في
مصر حتى بداية الحرب العالمية الأولى". وكان
عرسه من ذلك أن يتعمق على "المناولات التي بدلت
في تاريخ الأدب الحديث في مصر والاستعمارية فيها في العصور
التاريخية والاجتماعية-النفسية وتبنياتها في عقد الدراسات الأدبية" (11)
وقد أعاد الشاذلي عمله على النظر في مدارس ثلاث كانت سائدة
في طرزه على الدراسات الأدبية الحديثة وهي: المدرسة النفسانية
في تاريخ الأدب وبطلانها المقارن. ومن خصائصها أنها تصب اهتمامها
على حياة الأدب الخاص. والمدرسة التاريخية ويمثلها طه حسين

(10) - عبد السلام محمد الشاذلي: الاتجاه العلمي في مناهج تاريخ
تاريخ الأدب الحديث بمصر حتى بداية الحرب العالمية الثانية.
جامعة القاهرة 1972. مخطوطة تحت رقم 1105 قاعة الرسائل
بكلية الآداب.

(11) - المرجع السابق ص 4 من المخطوطة.

٤ ونسبي تركزا اهتماما على تاريخ النحصر والبيئة باعتبار أن تاريخ
٨ المصصر هو الذي يحكم سير الأرب والأرب مما . ثم المدرسة الاجتماعية
ويمثلها سلامة موسى وهي تطالب بين نمو الآداب وتقديم
الحياة الاجتماعية . (12)

ولم تكن هذه الدراسة في قيمة عمل شكر فيحصل ،
لأن صاحبها نحا فيها منحى يفلح عليه الاستمرار . فجاءت
تفتقر إلى التعليق والاستنتاج (13) . ثم إن الشاذلي تناول فيها
نقد الآداب ودرسه أكثر مما تناول تأريخ الآداب فلذا كان
طه حسين يعد أحد مؤرخي الآداب العربي البارزين بفصل
كتابيه : " في الآداب الجاهلي " و " حديث الأرباء " فلن أهمال
المقادير وسلامة موسى إلى النقد الأبي أقرب منها إلى تاريخ
الآداب بالمفهوم الذي تكون له واستقر عليه في النصف الأول من
القرن العشرين بالبلاد العربية على إثر احتكاك الشاذلي بالثقافتين
السريية والغربية . لهذا فان دراسة الشاذلي ، هي أيضا لا تعرف
بمؤلفات تاريخ الآداب التي استبقت مؤلفون عرب
كثيرون إلى وضعها منذ آخر القرن التاسع عشر ، ولا تدرس المفاهيم
فيها والمناهج التي يلزم للوقوف على خصائصها (وقضاياها) .

وفي ما عدا هذين العاملين اللذين لم يفهما صاحبنا
تاريخ الآداب من غير أن يتناولها تناول الذي يحتاجه ، لا يكاد يجد الناظر
في أبحاث المعاصرين سوى فصول ومقالات هنا وهناك في تساعيف

(12) - المرجع السابق ص 5

(13) - انظر الشاذلي مثلا بنفس المقدمة التي وضعها الراحل
لكتابيه : " تاريخ آداب العرب " بدعوى أن تفكيره على غاية
التعميد والإشكال . وكاد يكتفي ، من جهة أخرى بنسخ
مفاهيم الصفحات التي عالج فيها طه حسين فصلاها
تاريخ الآداب على أنها نظرية عام انظر في ذلك الصفحة 302 وما يليها
من المحطوطات .

كتب النقاد الأدبيون / أو من جهة العربية الفصحى بمن ألفوا في تاريخ
الأدب أو دروسه أنواع من إنتاجهم . وهي فصول ومقالات تتفاوت
في قيمة واعتبارها من معالجة المسائل التي تدرجها الكنباء في
ماده تاريخ الأدب العربي . ولعل أبرزها الفصل الذي خصصه
الدكتور عتيبة عامر من كتبه " دراسات في الأدب العربي
الحديث " (14) لقضايا التأريخ للأدب ، فقد ألم فيه المأما حسن
على ما توخاه فيه من إيجاز ، بجوانب مهمة من خصائص المؤلفات التي
تؤرخ للأدب العربي .

لقد عد المؤلف في مادة تاريخ الأدب العربي اذن محتاجا
الى دراسة مستقلة تتناول قضاياها المفاهيمية والنهجية بالتحليل
وطلت أبرز الكتب فيه مفتخرة الى عناية بالباحثين . وهذا فقد يتصارب
مع ما كان لها من قيمتها استعماليه كبيرة ، ومن أثر فعال في
تكوين نظرة جمهور القارئ الى التراث الأدبي لذلك رأينا أن نخصص
فيها تاريخ الأدب العربي بدراسه تمتد أكثر المؤلفات فيه شهرة
بين الناس . فمما لا شك فيه أن درست المؤلفات يعرفنا على كتب
بالمصادر التي أسهمت لإسعادها وإفرا في تكوين أجيال وأجيال
من قراء الأدب ومننتجيه .

ولم يكن افتقار المؤلفات تاريخ الأدب العربي الى الدرس هو
وحده الذي عانا الى اختيار هذا الموضوع ، فقد كان لنا
مما بدأت تتجه اليه الدراسات الأدبية ، على النطاق العالمي
من عناية بالظاهرة الأدبية من حيث عملها واستعمالها في
المجتمعات ، داع آخر الى ذلك . إذ أننا شاهدنا " تاريخ الأدب " يحتل
يوما فيوما بمزيد من اهتمام الباحثين ضمن تجديد فهم النص
في الأدب ، وفيها يتصل بدرسه (وفهمه) من القضايا ، فليس من
مدرس قد يرد أو ندره . في حد ذاته عصرية تعطف على الأدب بالسؤال
وتتناوله بالنقد إلا أن أخذت لنفسها من تاريخ الأدب موقفا

(14) - الدكتور عتيبة عامر : دراسات في الأدب العربي

الحيث . دار النشر العربي ، تونس 1970 .

فيما على كل ما سنن ثأنته أن يساعد على فهم تلك الحياة. وذلك لأنهم رأوا النصوص الأدبية تعبر عن أصحابها تعبيرا مباشرا، فإذا غرؤوا معلومة طرفية بين العبد نعبروا الأحداث التي فيها إليه، وإذا نظروا على "رسالته اغفران" ردوها إلى تلك المعنى أو تذذبذبه العفاند إلى إلا أنهم كثيرا ما يعولون في ذلك على ما حدث به الشهود، و ذكره الرواه من أخيار تسرف بها كانت عليه حياة الأرباء الخاصة، فالأخبار الدالة على تلك المعنى أو تذذبذبه العفاند في كثير من كتب الأرباء. وهكذا يمر النقاد من حياة الأرباء الشخصية إلى أرباءه، ومن أرباءه إلى حياته الشخصية يفسرون هذه بتلك، و بذلك يحنوا عن صورة نهائية يتقدمونها لـ... وليست من ذلك فني، أن هذا العمل إنما يصرم على (الخط) من ما هو أدبي، و ما ليس بـ أدبي " من الآثار المكتوبة، و إن يعمد الدارس، شبه عادة، إلى أن نحدد الآثار الأدبية، و الرثاءات الشخصية، و أحداث الرواه، و أخبار السار الهشود، و ما إلى ذلك من مراجع، و استنادا، و أحدا ينفذ منه حياة الأرباء الخاصة.

بناي هذا الاتجاه سيطرا على الدراسات الأدبية في الشرق والعرب
××× حتى طعن فيه الاتجاهان النفسي والاجتماعي في لفهم الأرباء.

فعدد نقبين أصحاب الاتجاه الأول أن يكون الأرباء صورة لحياة مؤلفه الشخصية، و ذهبوا إلى أنه مرآة للـ... و هي منشئه. فالأحاسيس الباطنية والعقد النفسية هي التي يجب أن تلتسرف في النصوص الأدبية، لأن النص الأدبي لا يعدو، و في نهائية الأمر، أن يكون صورة من حياة مؤنعه النفسية. (16).

(16) - ما نزلنا بحاجة إلى التذكير بأن فرويد (Freud) استعمل المؤلفات الأدبية في اكتشاف نظرية اللا - وعي. فذلك أمر بات الآن معلوما، خاصة أنه أطلق اسم أحد أبطال المآسي اليونانية على إحدى العقود النفسية التي قد تصيب الإنسان، و تعني بذلك مركب أوديب (le complexe d'Oedipe). و لكننا نحيل على كتاب شارل مورون:

"من التحازات الجسارية إلى الأسطورة الشخصية"، و نشر كورتى، باريس 1960.

Ch. Mauron: Des métaphores obsessionnelles au mythe personnel, éditions Corré. Paris 1968.

فهو في عرف الدارسين، من أبرز الأعمال في هذا الاتجاه. و قد كان لمصاحبه فيه فضل انتقطن إلى حدود السطح النفسي في فهم الأرباء و درسه.

ولا يختلف على الاتجاه النفساني في دراسة الأدب في ما يبدو،
إلا في نحل موضوع البحث من حياة الأديب الشخصية في مظهرها
الوطني التي هي حياتها النفسية في مظهرها الباطني. وفي ما عدا
ذلك فقد رآى الأدب مدرّاهنا وهناك، وطل الحيل بين الأدبي
وغير الأدبي من الآثار هنا وهناك أيضا.

وأما الاتجاه الاجتماعي فقد نفى أن يكون الأدب صورة
لحياة مؤلفه الشخصية أو صورة لحياته الباطنة النفسية، ورأى أصحابه
أن الأديب إنسان عادي من عرّس في طبقة الاجتماعية يحمل طابعها
وينطق على لسانها. لذلك اعتبروه صورة "لا يدرولوجية" (17) مؤلفه ولقيم
الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، والمتساو ذلك في أعمالهم. فذهب
الباحث المجري جورج لوكاتس (Georg Lukacs) مثلا إلى أن بين الأدب وبين
أما الانتاج الاقتصادي أو نظام صلي من التشكيل متينة (18) وأن
النصوص الأدبية لا تعد وأن تكون (نظرية) للبناء الاقتصادي والاجتماعي الذي
تطوّر فيه. وذهب تلميذ "لوسيان غولدمان" Lucien Goldmann
إلى أن الحياة الأدبية (تمثل) الإنسان الهيكلي

(17) - فدلنا استعمال كلمة "ايدولوجية" لأدباء مفهوم المبرارة
الغريبة "Idéologie" فهي أولا مصطلح ستمد المعاني. بل ،
مما يدل عليه، على النظره العام على الكون والإنسان، وعلى مجموعة القيم
التي يمتنعها الناس عيدة، وعلى تأويل الطبيعة تأيلا خاطئا ذاتيا
لا علمية فيه. ثم انها، وإن انتشرت كثيرا في أعمال العرب
المعاصرين، طلت تفتقر إلى كثير من الدقة والخط في حصر مفهوماتها.
أما أصحاب المنهج الاجتماعي في فهم الأدب فلم نهم يفهمون
(X) منها نظرة الاسان إلى الكون.

(18) - يعد لوكاتس أحد الذين أبدعوا المنهج الاجتماعي في درس الأدب.
وقد كان له دراسات كثيرة اهتم فيها بالعصه خاصه، ولمس
أبرزها كتيبه: "بيلزك والواقعيه الفرنسيه". ماسبرو. باريس 1973
فقد صدره بمقدمه صمدنا عصاره مذهبه.
G. Lukacs : Balzac et le réalisme Français. Editions Naspéro Paris 1973 .

الاقتصادية (19) . ولا يختلف هذا الاتجاه على الاتجاهين السابقين إلا في جعل
الأدب يصور الحياة الاقتصادية والاجتماعية الذي يظهر فيه

وظهر الميكلائيون (20) بسعد ذلك فحالفوا الاتجاهات الثلاثة
في ما ذهب اليه أصحابها، ورأوا أن النص الأدبي لا يعني عيّن
الإنسية ولا يستبر عن عير دانه، فلا هو يحيل على حياة مؤلفه
الشخصية أو النفسية، ولا هو يصور الحياة الاجتماعية التي يظهر
فيها ذلك أنه مغلق نام، لا ينطق إلا بما فيه، ولا يصور إلا نفسه، فهو
((مجرد كائن من كلام، وهو عليل في اللغة أو بلاغتها. لذا رأى الميكلائيون
أن ادكتفاء في رسمه بالتعرف على هيكله، ووصف خصائص البناء الذي ورد عليه
يفي بالحاجة منه.

راب الساس على هذا الاتجاه الأربعة في لدرس الأدب تتهدب يوما فيرميا،
يصلها نحرى العلوم الصحيحة أو ندها علوم اللسان و علوم الشعوب بالصحح أو المصطلح الى
أن بدت على أو سيننا سيهيا بالعلم.

(19) - باقتي فولد مان أسناده لوكتاف في كثير من الساهيم التي قال بها، و حاول، وفي
أعماله، أن يكسب المصحح الاحتماع في عزيدا من العليمية. أنظر في ذلك مثلا المقدمة التي
وضعها لكتابه : " نحو علم احتداع عني بالرواية " سر طليار، باريس 1954 .

L. Goldmann : Pour une sociologie du roman ; éditions Gallimard. Paris 1964.

(20) - عرّ بها بهذه الصبغة الأستاذ المحي السلي في " حلوليات الجامعة التونسية "،
العدد 13 ص 127 . تونس 1976 . وتطلق هذه العبارة الآن على مجموعة كبيرة من
الباحين حاولوا الاستعانة بعلوم اللسان في درس الأدب ورسا بنزع الى العليمية/ندكر منهم
على سيل السال : رولان بارت (R. Barthes) و جبرار جيب (G. Genette)
ورسان حاكوبسون (R. Jakobson) . . . ومن أعمالهم نذكر التحليل الذي استرل
في وضعه الأيسني حاكوبسون وعالم الشعوب ليفي شتراوس (I. Strauss) لشميدة
النمط (Les chats) التي ألها بودلير (Baudelaire) ، وفرد
انتصر كثيرا . أنظره في كتاب "الأسلوبية" : فريرو و كوينز
نشر كـ لانشيوك . باريس 1970 .

P. Cuiraud et P. Kuenz : La stylistique ; éditions Klincksieck. Paris 1970.

الا أن المتأمل في ما قدمه الباحثون من أعمال في هذه الاتجاهات الأربعة يلاحظ أنهم يطرحون سؤالا واحدا أو يعتمدون طريقة واحدة في التماس الجواب عليه. أفهم يتساءلون عن الأدب ما هو؟ وهم يرون الجواب على ذلك في النصوص الأدبية فيستندون فونها عن نفسها ثم لذلك ذهبوا جميعا إلى أن "الأدب مرآة" تصور شخصية الأديب أو نفسيته أو عصره. غير أنهم،
٥٠٦ وان اتفادوا على صسوع القصصية وعلى طريقة حلها، لم يتفقوا
X على تعيين النصوص الأدبية. فالجيد من النصوص، عند أصحاب الاتجاه
الاول ما صور حياة مؤلفه الشخصية أحسن تصويرا وصحاه.
والجيد عند النقاد النفسانيين ما اشتمل على نفسه صاحبها
وأيضا للفناني أبن جيد. والجيد عند الباحثين الاجتماعيين
ما نيم عن "إيديولوجية" كاتبه وكشف عن الطبقات الاجتماعية.
والجيد منحا عند النيكلايين ما كان حسن البناء. ظاهر الحيكيل
لا يمتاسكه "مكتفا" (21). وهكذا فإنه بينهما تكون "الشفافية" (22)
معيارا تقاس به الجودة عند أصحاب الاتجاهات الثلاثة الأولى،
تكون "الكثافة" معيارا لهما في نظر النيكلايين. وهكذا أصبحت أبصا
تقان في درس النص الأدبي الواحد المتناقصات. ويبدو أن هذا النافض
قد كان من بين الأسباب التي دعت بمض الباحثين المحدثين.

(21) - الكثافة (L'opacité) : مصطلح انتشر انتشارا واسعا في أعمال النيكلايين. وهو يفرض على تصور معين للكتابة الأدبية،
لهم من أبرز خصائصه أنه يفهم إنتاج الأدب على أنه عمل يتناول
الشيء لا من حيث أداة ابلاغ فحسب، وإنما من حيث هي أداة يعبّر
بها الكاتب ويلفت انتباه القارئ إلى قضايا لتعبر عندها
يتلاعب بها. والنص المكتوب هو النص الذي تطمس فيه عناية
٥٠ الدائب بوسائل التعبير على المعاني المعبّر عنها.

(22) - الشفافية : La transparence : مفهوم شديدا الانتشار
في المؤلفات التي يمد أصحابها الأدب مرآة تنكس نفسية مؤلفه
و تصور مجتمعاتهم. وهو في عروة تقابل مع مفهوم "الكثافة".

الى أن يتجهوا بأبحاثهم الى نسراج أخرى فسي درس الأدب لهم تلقى حظها من العناية لدى أصحاب الاتجاهات السابقة فقدأت تظهر أعمال أسال فيها مؤلفوها عن يدي الصواب في نصر معنى الأدب في النصوص الأدبية والاكثف في درسه بتحليلها وأناروا نفايا لم تكن في أساس ما تعنى به الدراسات الأدبية قبلها. ولعل أبرز هذه الأعمال كتابان، أحدهما عمل جماعي أسـرف على انجازه وأسهم فيه الباحث الفرنسي "روبيـراسكاربيت" (R. Escarpit) (23) وظهر سنة 1970 تحت عنوان : " الحديث الأدبي والحدث الاجتماعي " (Le litteraire et le social) وقد حاول فيه أصحابه أن يلتصقوا السبل إلى علم اجتماع يعنى بالأدب. ومن حيث أن هذا العقل أنه يتضمن محاولة للخروج بـدرس الأدب من الإفتصار على النظر في النصوص الأدبية الى العناية بالظاهرة الأدبية في شتى مظاهر عملها واستعمالها. وأما الثاني فهو عمل فردي قام به الباحثة الفرنسية (فرانس فبرني) (F. Vernier) (24) وظهر سنة 1974 تحت عنوان : " الكتابة والنصوص " (L'écriture et les textes) وقد بحث فيه صاحبه عن بديـل تلك المدارس التي حصرت معنى الأدب في النصوص الأدبية واعتقد في درسه بالآثار المكتسبة أكثر مما اهتمت بأنماط حياتها في المجتمع وأوحى عملها فيه وكانت تهدف من ذلك الى توحيد الدراسات الأدبية وجهات أحرارائها أوسى بالحاجة منها وأنفع.

(23) - وروبيـراسكاربيت (R. Escarpit) هو أستاذ بجامعة بوردوليك، عرف بأبحاثه في "علم اجتماع يعنى بالأدب" وهو أحد عنسطيني حلف بوردوليك البحث. له أسال أسهم فيها جمع من زملائه سواء بالجامعة التي يدرس بها او بحلقة البحث التي ينتمي اليها، نذكر منهم على سبيل المثال : روبـراسكاربيت (R. Estivals) وبيار برشورني (P. Breccia) ومارك بوازيس (Ch. Bouazis) ومن أسال التي انجزتها هذه الحلقة : " الحديث الأدبي والحدث الاجتماعي " و " تحليل مفهوم التداول الزمني في تاريخ الأدب " وقد سبق ذكرهما.

R. Escarpit : le litteraire et le social ; éditions Flammarion. Paris 1970.

(24) - فرانس فبرني : الكتابة والنصوص. دار النشر الاجتماعية. باريس 1974.

F. Vernier : L'écriture et les textes ; éditions sociales. Paris 1974.

و قد واكب ظهور تدين السليبيس أبحاث عديدة طُلدت بها عيسى
الناس النشريات الممنوعة في الإرب (25) و قام بها باحثون تفرغوا لذلك
في مراكز البحث، ومع أن كل شيء تعريفا في هذا الاتجاه الجديد
ما زال مطروحا على صعيد الدرس، فإنه يخل للناظر في هذا أن الفطرية
بمردد الحصون بين المدارس والاتجاهات التي تعنى أساسا بالنصوص في
درس الإرب، وبين المحاولات التي يرمي أصحابها إلى تجاوز ذلك بالأبصار
على درس الحياة الأدبية في شتى ملامحها وتمدن صورها.

1- ذلك أن هذه النزعات الحديثة في فهم الإرب أو درسه لا تنطلق،
فيها يبدو، (من التساؤل عن الإرب) ما عدا ما تسلم بوجوده
في ما اصطفاه الناس من آثار على مر المصهور، ونطلق من التساؤل
عن الأسباب التي دعت الناس إلى اصطفاها النصوص، وعن المقاييس التي
انتخبوها بها، من بين أخرى، وتوجّهوها أدبا، وهي ترى
أنه بإمكان الباحث أن يتنبّأوا بالدراسة العملية انتخاب النصوص
وما يكس ورائها من معانيير جمالية لأن النثر أدبي أو ليس بأدبي
وفي نظر أنسب معين وامتداد المكان والزمان. وهي ترى أيضا
أن للنصوص الأدبية وظيفة انتخبت من أجلها وتتساءل عن وظيفة
الإرب ما شئ؟ وهل هي قارة ثابتة في الزمان والمكان، أم هي
متحولة من مكان إلى آخر، ومن زمان إلى زمان؟ وإذا كانت
متحولة فما هي أسرار تحولها؟ أو يحدث أصحاب هذه النزعات
بأعمالهم، إلى التعرف على أنماط حياة النصوص الأدبية في المجتمعات
التي تلح فيها، فعم يمتدون أن المنح الإرب لا يظهر فقط حتى يفتح
الاكتفاء بتسديد تاريخه أو التعرف على شكله أو محتواه وإنما
هو يستعمل استعمالا منهجيا للوجهة في نشره ويداع بين الناس،
ويعبراً، وينعقد. لذلك فهم يرون أنه يحسن بالأبحاث أن تتجه

(25) - نذكر من هذه النشريات مجلّة "الإرب" (Littérature)
ومجلّة "اللغة الفرنسية" (Langue Française) وسيميوتيك
(Sémiotica) والجذليات (Dialectiques) ... وكلها مختصة
في الإرب وأبحاثه أو في اللغوية ودرسه.

من بين ما سنجيه اليه ، الى طرق إزاحة البصوف ونشرها ، وإلى الوسوف
على إحصاء الفاعلين الذين يتعاملون مع النصوص ، وإلى ما يرحونه من التعامل
معها ، وهكذا فإن عنايته الباحثين الآن لا سجه إلى النصوص الأدبية فحسب ،
بل هي تحاول درس طرق إنتاج الأدب وطرق نشره ، وأساطير حياته ، وسدى تأثيره
وتأثيره بالوسط الذي يبرز فيه .

في هذا الإطار ، إيطار مراجعة الكتسب ، والنسائل عن حظه من الصحفة
والصواب ، وإطار السعي إلى طرح قضايا ، في درس الأدب ، لم يعنى السلف
بطرحها ، يتزليعلنا هذا . فقد اخترنا " تاريخ الأدب " موضوعا لبحثنا لأنه
لم يدل بعد حظه من الدرس على وفرة التصانيف فيه وبالرغم من
أنه قدم أعمالا أحسن إلهام هور الفاري ثقلها ونقلها عليها
طويلا ، لأنه من أبرز الطواهر حضورا في هسافل الباحثين
الحالية ضمن محاولتهم العناية في درس الأدب لمسائل أخرى لم تنل
حظها من البحث ، يتطرون منها أن (تشرى بطرنا إليه ونحلها
على صيبي من العلم العلمها اليوم في أوكد الحاحا إليه . فمؤلفات
" تاريخ الأدب " نعد من المؤلفات الأولى التي اعتنى فيها أصحابها
من وجهة أو من آخر يهبط حياه الطاهرة الأدبية في المحتسبات
التي برزت بينهم أو نعاليت معها . ذلك أن مؤلفيها ودمروا فيها على
صلية الأدب بالعنصر أو على ما يتأثر فيه ، ويتأثر به من
غيره ، وعلى منزلة الفقيرن الأدبييه بعضها من بعض ، وعلى ما
الى ذلك من صايبا تتصل بعمل الأدب واستعماله في الحياه الاجتماعيه
ومن قبلها . لهذا كانت دراسته تاريخ الأدب ، في نظونا على
الأقل ، لا تحلومى فائدة نلى ما تسعى اليه البحوث
الآن من إثراء النظره التي هذا الكاوى الكلاسي الذي يُعرف بالأدب ،
فلا من أنها نعرفنا ، عن قريب بأكثر المؤلفات العربيه ، الحدبشه
روادها لدى التاريخ وأشد ها تأثيرا فيهم .

* * * * *

ولعد اعترضنا في الفيسام بهذا العمل هناك مهيجه عديده ، وأبنا أند
نحسبنا ان نذكر بعضها ، وأن سبب الموقد الذي اتخذناه منها ، فغفل ذلك لا نحلو
من عصر الفائده في حصر الموضوع ، بحديد الطرقيه التي ناولناه بها .

أول موقد هو ذلك الذي يطرحه احتسابا .

١٦ البحت. والمؤلفات العربية في تاريخ الأدب كثيرة وسريعة يسر استساؤها. بعضها عديم ظهر منذ ابتدأ العرب التأليف في مادة تاريخ الأدب مع نهاية القرن التاسع عشر وبعضها حديث لم يمس على ظهوره سوى سنوات قليلة. وبعضها يؤرخ للأدب العربي منذ أقدم أزمانه إلى الآن، وبعضها الآخر يؤرخ لمسرح واحد من عصوره أو فنس واحد من فنونه. وأما تلك الكثيرة وهذا التنوع يجذب الباحث نفسه في حيرة : فأبي المؤلفات يختار وأي المصاير يعتمد في اختياره ما دام الوفوي على مؤلفات تاريخ الأدب العربي جميعها يبدو والآن أمرا منحيلا.

لقد رأينا في أول الأمر، أن عامل الشهيرة يمكن أن يستمد مقياسا تحتاربه مؤلفات دون مؤلفات، فليس كل ما أُلغى في تاريخ الأدب من أعمال أغبل عليه القراء. ومن الأعمال في تاريخ الأدب العربي ما لا يرى لها الباحث ذكرا في أي كتاب من كتب الأدب أو أي دراسة من الدراسات التي وصفت فيه. غير أن عامل الشهيرة هذا لم يكن ليحل هذه المسألة، ذلك أن العمل به ومعناه إذا مؤلفات عديدة في تاريخ الأدب العربي يبدو أنشا حظيت كلها بالشهرة والانتشار، وإذا هي كثيرة لا يمكن تناولها كلها بالدرس. ثم إن مبدأ الشهرة، وإن كان لا يخلو من أغورا بحكم عظمته العلمي، يظل في الأدب كشيء الزائل. فعددات معروفاتنا الآن أن المؤلفات الجيدة ليست كلها هي التي تحظى بالشهرة والانتشار، إذ كثيرة هي الكتب التي لا سمعة لها وتلفى مع ذلك انتشارا كبيرا، وكثيرة أيضا هي الكتب الجيدة التي لا تلفى عظمها من الانتشار. ثم إن تعدد شهرة الأعمال أمر تسببه إلخسوت والإصايات، وهو ما لم يتوقف بمقدار في الأبحاث الأدبية العربية.

لذا عدلنا عن مبدأ الشهرة والانتشار، واتجنتنا إلى مؤلفات تاريخ الأدب العربي عليها هي نفسها تمددنا بالمقياس الذي نختار به بعضها دون بعض مصادر لملئنا. وقد وجدنا أن المؤلفات العربية لا تكاد تخرج عن ثلاث

ففي تاريخ الأدب، فهمي أما أن تؤن للأدب العربي حسب التفسير
الرسمي إلى عصور يأتي بعضها لأثر بعض منذ الجاهلية حتى
الآن، وأما أن تعتمد في ذلك على التقسيم إلى أغراض فتؤن لكل
غرض على حده منذ نشأته حتى توقفه أو تجمده، وأما أن
تستعمل منهج التقسيم إلى مدارس فيية، فتقف على كل مدرسة
من مدارس الأدب العربي وتظهر فيما تخلص عليها من تدابير
وأراء هذه الملامح بدار لنا مقيولا أن نتناول من كل اتجاه
من هذه الاتجاهات الثلاثة عمداً نجعله مصدراً من مصادر
هذا البحث، ووجدنا أيضاً الدخول من مؤلفات تاريخ الأدب العربي
في هذه الاتجاهات الثلاثة يراعى السابن، إذ جاءت الأعمال
في كل اتجاه شديدة التشابه. فرأينا أن الوقوف على
الأول البارز من المؤلفات التي ظهرت في كل اتجاه قد
يفي بالمناجحة منه في التعرف على جوهر المصائد والقضايا في
تأول الأدب بالنظر التاريخي. إلا أننا لا حظنا أن منهج التقسيم
الزماني إلى عصور قد كان المنهج الغالب إذ المؤلفات فيه
تفجس عدداً ما وسع منها حسب المنهجين الآخرين، لذلك خصصناه
بنصيب أكبر من العناية، عند ما اخترنا منه كتابين اثنين
في حين اكتفينا بكتاب واحد من الكتب التي أُرخب للأدب
العربي حسب أغراضه أو حسب مدارسه. ونكذا حصرت
مصادر بحثنا في أربعة أعمال هي: "تاريخ آداب اللغة العربية"
لجبري زيدان، و"تاريخ الأدب العربي" لأحمد سن الزيات،
وحمداً يمثان منهج التقسيم إلى عصور. و"تاريخ آداب العرب"
لمصطفى صادق الرافعي فقد استعمل صاحبها في التاريخ للأدب العربي،
من بين ما استعمله فيه، منهج التقسيم إلى أغراض أدبيه.
ثم "في الأدب الجاهلي" لطف حسين فقد اعتمد فيه صاحبها
على منهج التقسيم إلى مدارس فيية على سبيل الاختيار والتجربة.

ومما شئنا على هذا الاختيار أن هذه المؤلفات الأربعة ظهرت
في تواريخ متعارفة لا يفصل الأول منها عن الآخر سوى خمسة
عشر عاماً، وأن أصحابنا عرف بعضهم بعضاً، إذ جمعت بينهم

الدراسة مثلما هو الحال بالنسبة إلى الزيات وطه حسين (26)، أو وضعت النسار الأندلسية بهم صبيد بعض مثلما هو الأمر بالنسبة إلى الرافعي وطه حسين. والاعتماد من ذلك كله أن هذه المؤلفات الأربعة يذكر بعضها بعضا بالنسبة أو التأريخ أو الإشارة. من ذلك مثلا أن زييدان ذكر كتاب الرافعي في قائمة المؤلفات التي أخرج بها أصحابها للأدب العربي (27)، وأنه تحدث عنه في مجلته الهلال فقال: "رأينا حضرة المؤلف اخذنا فيه خطه أحسن" (28). ومن ذلك أيضا أن طه حسين ذكر مؤلف زييدان مرتين. فذكره ذكره مرة في المقدمة التي صدر بها بحثه من أبي العلاء وأخذ صاحبها عليه السيرة في تذييل المعارف (29) وذكره ذكره ضيفا في النفوس في المؤلفات التي وضعها معاصره في التأريخ للأدب العربي أثناء جلسته إلى منهج التفسير إلى عصره، وأنه اتخذ من عمل الرافعي موفيقين جدًا. نظاريين، فقد قال عنه لما طهر الجزء الأول منه: "هذا الكتاب الذي يشهد الله على أنما لم نفعه" (30)، وقد آثر على صاحبه بعد ذلك قائلا: "فطن (الرافعي) لما يمكن أن يكون من تأثير النص في سجل السيرة إضافة إلى القدماء، كما يمكن لأشياء أخرى قيمة وأحاط بها إحاطة حسنة في الجزء الأول من كتابه "تأريخ آداب العرب". ... (31)". ومن ذلك أحيرا أن الزييدان

(26) - ذكر ذلك الدكتوران: حدي السكوت و مارسدن جونز في كتابهما: طه حسين: بيلوغرافية نقدية. القاهرة 1975. ص 6.

(27) - تاريخ... ج 242.

(28) - الهلال: مجلد السنة 19 بتاريخ فيفري 1912 ص 319.

(29) - تجديد ذكرى أبي العلاء. دار المعارف القاهرة 1953. ص 25.

(30) - استشهد به محمد سعيد العربي في كتابه: "مطالع في طائفة الرافعي" مطبعة

الاستقامة. القاهرة 1955. وقد أحذه من جريدة "الجريدة المصرية" سنة 1912.

(31) - طه حسين في الأدب الداهلي ص 143.

ذكر بعض هذه المؤلفات فقال في بعض إحالاته ، وويلم
أنه أصاب ذلك إلى إحدى التبعات اللاحقة بحكم ذكره كتاب
طبه حسين وفرد نشق بعد عمله بسنة أو سنتين : " جاء في
كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ، وكتاب (في الآداب
الجاهلي) . . . أن الشعر الفصحي أسبق من النثائي ، وهو زعم
لا مصدر له ولا دليل عليه " . (32)

وبناء على هذه المؤلفات يذكر بعضها بعضها ، وعلى أن
أصحابها ينتمون إلى فترة تاريخية واحدة بل إلى جيل واحد
أحياناً ، وعلى أنها أرخت للآداب العربي بالظاهر الثلاثة المتعارفة
في هذا الموضوع ، رأينا أنه يمكن اعتبارها إنتاجاً متجانساً
وجعلناها مصادر لهذا العمل .

أما المسألة المنهجية الثانية التي واجهتنا في إعداد
هذا البحث ، فهي أيسر المسائل اختصاراً . فلهذه المؤلفات
الاربعة غزيرة المادة ، وهي إلى جانب ذلك تلوح قضايا عديدة ،
وتثير مسائل جمة في الماضي والحاضر وفي الآداب والتاريخ ،
وفي غير الآداب والتاريخ من المواضيع . إنها تثير مثلاً قضية
تقدم العرب في المصور الماضي وتأخرهم في الحاضر
(ومحاولتهم النهوض ، وتتناول مسائل ذات صلة بالتعليم وبتدريس
الآداب ، وبالآداب أو أغسيامه) ، وبالموقف من المصادر القديمة التي
يُلتزم فيها الآداب العربي ، وبالنظرة إلى التراث ، وبالتاريخ العربي
في ماغيه وما عره ، بل بغضبة المرأة وأنظمة الحكم أحياناً .
وإزاء تعدد القضايا (وتنوعها) وتبعاتها لا بد للباحث من
الإختصار ، لأن دراسة هذه المؤلفات دراسة معمقة تحيط بكل
القضايا المطروحة فيها أو تمنس بكل المشاكل تدر شيئاً مستحيلاً .
وعد احترياً من هذه المؤلفات الاربعة أن ندرس ضائياً
أيتألف في تاريخ الآداب ، خاصة أنها تتناول هذه القضايا بالبحث فنحن إذن
لا ندرس مؤلفات زيدان والرافعي والزيات وطه حسين في تاريخ الآداب ، وإنما ندرس

الكيفية

تاريخ الأدب من خلال هذه المؤلفات نحن لا نتعرض لما في هذه الكتب من أحياء في أسس الاعلام أو أنسابهم أو تواريخ موالدهم ووفياتهم أو فنيهم أو مؤلفات لهم أو نسبتهم للفيلسوف أصحابها ، ولا نتعرض سكتاتهم في ذكر بعض الأحداث المشتملة أو بعض المظاهر الأساسية أو بعض المواقف الفعالية في تطور المجتمعات العربية وآدابها أو أغنان في فنون أو جوانب من الأدب العربي لمن البحر فلول تكشف عنا أثناء تدوين هذه المؤلفات فذلك كله لا ينبغي بنا مباشرة منها . وإنما ندرس الكيفية التي أخرج بها ريدان والزيات والرافعي وغيره حسين تاريخ الأدب العربي ونقف على الصعوبات التي واجهتهم ، وعلى الطرق التي لجؤوا إليها في تجاوزها ، فاسترار الفيلسوف أو خصائص التصوير وخصائص المصطلح هي التي نعني بدراسة من خلال هذه المؤلفات . لهذا جعلنا بحثنا في ثلاثة أقسام أساسية هي : المفاهيم والمناهج والأعمال .

و قد اعتيننا بالمفاهيم ، لأنه ليس من عمل في دراسة الأدب أو نقد أو تأريخه إلا أن هذه المؤلفات التي ننار فيها بمسألة المفاهيم شبه من الأمم والوهم غير قليل . من ذلك شبه أن أصحابها عرفوا الأدب بأنه أقسامه وشرحوا المصطلحات الدالة على فنونهم وقدموا تصورهم للأدب ولعملية انتاج النصوص الأدبية هو وعفوا على صلة الأدب بالحماية الاجتماعية وعلى أغلاقيه يشتمل المعارف الاخبرية في مقدوم تاريخ الأدب وفي مزيلته من التاريخ العام . فلأن أن احتلت المفاهيم مكانة بارزة ففي هذه الأعمال وعمارت في حاجة الي أن تدرس الدرس الذي يعرفنا بها . ثم أنه كان لهذه المفاهيم أثرها الفوي في تصور المؤلفين لأعمالهم افتعريهم الأدب عندهم مثلا هو تحرير الموسم والذي عاجوا تأريخهم هو تسريع تاريخ الأدب هو تحرير التاريخ العملي التي تناولوا بشأن ذلك الموسم وهذا فلن الأمم بالمفاهيم التي اندلج منها مؤلفوا تاريخ الأدب العربي يمكن من التفسير على أحد المؤثرات الأساسية التي يجلج أعمالهم تدرد على الصفحة التي وردت عليها .

وتناولنا المناها ~~لا~~ رأينا زبدان والزيات والرافمي
 و طه حسين يخبروننا بمناها ظاهرة في أعمالهم ففرد وقف كل
 منهم على مسألة المناها في تاريخ الأدب، وكان لكن منسب الموقف في
 معالجتها، بد أنه قد قام بينهم الجردن حول أي المناها أجري
 وانعج في التأريخ للأدب العربي. ثم ان المناها هي التي
 تكيف الاعمال و تبرزها بأبرز الخصائر التي تلمح فيها، فمسألة
 التأليف في تاريخ الأدب هي أولا وقبل كل شيء مسألة مناها ^ج
 فالمناهج هو الذي تتميز به أعمال عن أعمال وهو الذي تتم
 به سيطرة الكاتب على موضوعه أولا تتم. لذلك كان وقوفنا
 على المناها في مؤلفات تاريخ الأدب أساسيا في التعرف على
 ألبعض العوامل الأساسية في الاعمال التي أنتجها المؤرخون العرب.

وتناولنا بعد ذلك أعمال هؤلاء المؤلفين فدرسنا خصائصها
 العامة لأنه من المنطقي أن يتساءل الانسان عن النتائج التي وصلوا اليها بتل
 المفاهيم وهذه المناها. ثم ان هذه الاعمال هي التي راجت بين
 القارئ وأثرت فيهم زمنلا لا يخد لومس طول. وبالتالي فان التعرف
 على هذه الاعمال هو تعرف على طبيعة التكوين الذي يتلها القارئ
 ان هو أراد ان النظر في هذه الكتب.

و كانت غايتنا من ذلك كله أن ندرس تجربة في تاريخ الأدب قامت
 أساسا على البحث في نشأة النصوص الأدبية ونشأة الاعلام او نشأة الاعراض
 والمدارس والاتجاهات وما أن تدور هذه التجربة هي حردود
المفاهيم التي انطلي منها أصحابها فيها، و تدور المناها التي
 اصطنعها في أعمالهم فاننا وقفنا على أوجه الخل والنق في مؤلفات
 السمي الى التماس مفاهيم مناها أخرى يؤن بها للأدب تأريحا
 لا يعنى بنشأة النصوص ونشأة الاعلام ونشأة المذاهب والمدارس والاتجاهات
 فحسبهم وانما يعنى أينما بالأدب من حيث هو ظاهرة
اجتماعية لها حياتها وعملها في المجتمع البشري.

يمتد هذا العمل أربعة مؤلفات في تاريخ الأدب العربي ظهرت في ما بين سنتي 1911 و 1926 بمصر. وقد جاءت هذه المؤلفات في ما لا يقل عن ثلاثة آلاف من الصفحات، أرح أصحابها في معاملة هذا الأدب العربي منذ أن قدم أزمانه حتى أوائله القرن العشرين. وقد رأينا، نظرا للحجم الضخم الذي وردت عليه هذه المؤلفات، وللبؤس المذلة الومنبة التي تتناول الأدب فيها، أنه يتميز علينا منهجيا أن نبدأ بوصفها حتى يكون القارئ على علم بالطائفة التي نندلق منها سواء في التماس ما أخذ به أصحابها فيها من مظهر أو استعملوه من مناهج، أو الوصف على ما وصلوا إليه من نتائج. ولم نعرف بأصحاب هذه المؤلفات إلا بذيل المقدار الذي تدعو إليه الحاجة من حين لآخر، إذ أن جلد من معروف لدى القارئ سواء بما ألف في تاريخ الأدب أو في غير تاريخ الأدب من أعمال.

(1) - تاريخ أدب الأسرة العربية * : جرجي زيدان (مبيروت

1861 - القاهرة 1914 -)

يقع هذا الكتاب في أربعة أجزاء. وقد كان زيدان شرع فيه سنة 1909 كما تشتمل المصادر (33)، وانتهى منه سنة 1914، وهي السنة التي توفي فيها. ثم أعاد نشره الدكتور شوقي ضيف في طبعة جديدة منقحة بدون تاريخ.

ويرجع التأليف في مقدمة تاريخ الأدب العربي، عند زيدان، إلى أبعد من سنة 1909، فقد سبق له أن نشر فصولا * اعتمدت الطبعة الجديدة التي راجعها وعلق عليها الدكتور شوقي ضيف. عن دار الهلال. القاهرة. بدون تاريخ. ذكر ذلك محمد سعيد الريان في كتابه "م. ص. الراقصي" ص 65. 66 (33) وفي التصدير الذي وضعه للجزء الأول من "تاريخ... الراقصي" ص 8.

يكون "تاريخ الأدب" من مصطلحين متعارضين شديد النعارة هما :
التاريخ والأدب . وإذا كان هذا العلم منذ نشأ حديثاً باعتبار
 أن ظهوره لا يكاد يرجع إلى أبعد من مائتي سنة (1) ، فإن المصطلحين
 اللذين يتكون منهما تمييزان فامم حد ول كل منهما بهما
 أهل الفكر جردال طويل هما زال قائم الأسباب .

فقد أطال المؤرخون البحث في علم التاريخ وجوده حتى تكاثرت
 منه لديهم المداعب وتضاربت الاتجاهات وماروا كل ما أحدثوا فيه .
 درسها بعضهم عليه السناد (2) . وأطال الأدباء والباحثون ، ومن
 حقهم ، إعمال الرأي في الأدب حتى أعياهم أمره أو كاد لكثرة
 ما طرح غفوسه من تغايبا ، وباتوا يحتلون فيه أكثر مما يتفقون .

و قد نتج عن ذلك كله ، أن ورت "تاريخ الأدب" وهو العلم الحديث ، كثيرا
 من الحلافات العالقة بالمصطلحين النقد يمين اللذين يتكون منهما ، وأصبح
 المؤلفون فيه مضطرين إلى مواجهة مسائل مفتوحة عديدة عذلة يطرحها الأدب
 حيا ، والتاريخ حيا ، وتاريخ الأدب حيا آخر .

ولعل في المؤلفات التي وضعها الكتاب العرب أحد الأمثلة البينة على
 انصب مسألة التفاهيم صية حوهرية من قضايا التأليف في "تاريخ الأدب" . ذلك
 أن الناظر فيها سرعان ما يجد نفسه إزاء تعريفات كبيرة تقتر بها
 أصحاب الأدب في معانيه العامة والخاصة وضبطوا بها أسماء
الكبرى والصغرى حتى كادوا يأتون منها على كل شيء . والأظهر

(1) - حسب أسكارييت في : "تاريخ تاريخ الأدب" بدائرة معارف لابلير ، ج 11
 عدد 173 .

R. Escarpit : Histoire de l'Histoire de la Littérature. Encyclopedie de la
 Pléiade . V.III P. 1735.

(2) - المؤلفات التي تتعلق بالتاريخ من حيث هو علم كثيرة لعل أشهرها في القديم مقدمة
 ابن خلدون . أما في الحديث فتكتفي بالاحالة على هذين الأثرين :
التاريخ البيرم : عمل حمادي ، النشريات الاجتماعية . باريس 1975 .

Aujourd'hui l'Histoire. editions Sociéles. Paris 1975.

التاريخ : تأليف جان إهرارد وقي بلمار . نشر أ . كولان . باريس 1965 .

L'Histoire : J. Ehrard , M G. Palmar. editions A. Colin. Paris 1965.

من هذا أن بعضهم عثر الأرب أو تاريخ الأرب من عدة مصادر عديدة
وفي مواطن كثيرة متعارفة ومتباينة من عمله (3) وأن بعضهم
الآخر أخذ في التعاريف بأسلوب جدلي لا يخلو أحيانا من
عننف (4) .

ومن شأن مثل هذه الظاهرة أن تبعث على التساؤل عن
(المفاهيم التي أخذ بها المؤلفون العرب في ما قدموه
من أعمال في تاريخهم للأرب العربي ، خاصة أن هذه المفاهيم
كانت ، في ما يبدو ، تنطوي عليهم فضايا شائكة كانت أحيانا ، سبب
احتداد بينهم . ومما يبعث على تناول هذه المسألة أنه
ليس من عمل عربي نفرد الأرب أو درسه أو تأريخه إلا يقوم
على مفهوم معين ، بعضني أو صريح ، للأرب والأرب ، تتدبر
به الأعمال ويتميز بعضها عن بعض . ففلى قدر ومفهوم
(المفهوم) يلدون مفهوم العمل مثلما هو شائع في هذه الأيام .

لذلك رأينا أن ننظر في المفاهيم الكبرى التي اعتنى بها
المؤلفون العرب في أعمالهم حتى يتسنى لنا الوفاء
على ما كان لها من أثر في جعل مؤلفاتهم
تترد على الصورة التي وردت عليها . وفرد تأملنا تلك
المفاهيم فوجدنا أن الأسامي منها يتعلق بالأرب والتاريخ وتاريخ
الأرب ، وبما تفرع عنها من قضايا أولاهها مؤرخها والآداب
العرب عطا وافرا من عنايتهم .

1 - الأرب :

إن الناظر في مؤلفات تاريخ الأرب يلاحظ ، لا محالة ،
أن أصحابها من العرب ، فرد ونفوا على مفهوم الأرب فأطالوا

(3) - عزت زيدان مثلا الأرب وتاريخه في عدة صفحات من الجزئين الأول والثاني
من عمله . انظر : تاريخ ... ج 1 ص 13 - 14 - 18 - 22 - 23 ج 2 ص 6 - 7 .

(4) - أخذ طه حسين في كتابه في "الأرب الداهلي" بحثا وافرا من المدل . ومما
عاله في هذا الصدر : "والحق أن كثرة الدين يكتبون في تاريخ الأرب العربي يكدون
ويتحيلون" . ص 54 - 55 .

الوقوف. ذلك أنهم وضعوا لهذه التعاريف المديدة، وبحثوا
علافة مدلوله بالا اجتماع، وفكروا في طرق تطوره أو تعهده
وكانت المسائل عندئذ في هذا الموضوع، يدعون بعضها بعضا
أو يسلم بعضها إلى بعض إلى ما لا نهاية. وقد رأينا،
أزاء كثرة المسائل في مفهوم الأرب أن نفد منه على تعريفه
وعلى نظرية "الانعكاس" فيه وعلى علافته بالطائفة الاجتماعية.
وبما أن هذه المسائل ما زالت موضوع بحث، فأننا
ذكرنا بعض الحدود التي تتضمنها مفاهيم المؤلفين
العرب للأرب وتاريخه، بقدر ما يسمح به البحث عن طبيعة
الموافقات التي وقفوها من قضايا هذه المسائل.

أ- القصة: عرف المؤلفون العرب الأرب من
عديدة جهات بعضها في المقدمات التي متدوا بها
لأعمالهم، وجاء بعضها الآخر في تضاعيف تلك الأعمال
نفسها. وعرضوه من زوايا مختلفة بعضها بنظرة من
الحاضر. اضر أن الأرب هو موضوع هذا العلم الحديث الذي
ومعوا فيه مؤلفاتهم، ومن هذه الناحية فهو في
حاجة إلى أن يمدد ويصرف، وبعضها الآخر ينطلق من
مواقف متعددة في التاريخ، إذ الكلمة أرب تاريخ طويل
عرفت لها فيه دلالات متعددة ومتفاوتة في الاتساع
والشمول، وقام بالمفكرين بولها في مختلف الأزمان
وكان لا يخلو من عدة. ويبدو أنه كان لتلك الدلالات
ولهذا الجرد أن أثر في المؤلفين العرب أنفسهم، ففقد
توفر للأرب في أعمالهم تعريفاً فأن أحدهما عاباً والآخر
حاجراً، جنباً إلى جنب لدى البعض منهم.

1- التعريف العام: يطلق أصحاب هذا التعريف كلمة

"الأرب" على جميع الطوائف الفكرية التي شغل الناس وتركبوها
فيها آثاراً مكتوبة. فآداب اللغة عندهم: "مؤلفة من الشعر
والنثر. والشعر ينقسم إلى موضوعات كثيرة من الحماسة
والمزمل والفخير والرشاء والمدح. والنثر ينقسم إلى
التاريخ والأرب والعقيدة والفلسفة والمصطلح

في أسماء الفلاسفة والأطباء والساسة والجواري والخدم. (8) فكان في تأليفه من الأخذ بين بالتعريف العام لكلمة أدب لأنه نظر إليها نظره أوسع من التي جاءت في عمل زيدان.

لقد مال ثمة من مؤرخي الآداب الأريمة الذين ننظر في أعمالهم بالتعريف العام لكلمة أدب. وهؤلاء الثلاثة كانوا من بين الذين سبغوا غيرهم (9) إلى الكتابة في هذا الملم الحديث الذي بدأت تحتاج إليه البلاد العربية في مدارسها في مطلع القرن العشرين. فما كانت قيمة هذا الأخذ عندهم لما كان تأسيس ذلك في أعمالهم؟

يبدو أن الأخذ بالتعريف العام لكلمة أدب قد أوقع المؤرخين العرب في شيء من الخلط على صعيد المصطلحات. فهم يطلقون عبارة "الآداب" مجموعة على الآثار المكتوبة بأسرها، ويطلقون كلمة "أدب" مفردة على ن واحد من هذه المكنونات. ويسرر أن نظمئس إلى أن كلمة الأدب تطلق في هيغمة المفرد على شيء، وفي صيغة الجمع على شيء آخر. ولا يقتصر الخلط على كلمة "أدب" فالنشر مثلاً يدل عند زيدان والزيادات على المؤلفات المنشورة كلها كالناربيخ والفلسفة والفقه، ويدل على نوع واحد منها هو النشر النفدي حيناً والأدبي حيناً آخر. وليس حاول المؤلفان تفادي هذا الخلط أحياناً بأن استعمل زيدان كلمة "الإنشياء" واستعمل الزيادات كلمة "الكتاجنة" ففي الإشارة إلى ذلك النشر الأدبي، فإن آثار الخلط

(8) - المصدر السابق، ج II، ص 265 و 302.

(9) - تختلف المصادر في أي المؤلفين العرب كان السابق إلى كتابة تاريخ الأدب العربي فمنها ذهب زيدان إلى أنه أول من كتب سهم في هذا الموضوع بدليل قوله: "أما في العربية فعلنا أول من فعل ذلك، ونحن أول من سمس هذا العلم بهذا الاسم" تاريخ... ج I، ص 8. ذهب الزيادات إلى أن حسن توفيق العدل هو أول من نزل تاريخ الأدب إلى العربية، وحسن توفيق العدل هو أحد المصريين الذين تنغسوا في ألمانيا وتدرّس تاريخ الأدب العربي في مدرسة السماء الشرعي ويبدو أن دروسه قد نشرت كتباً لم نطلع عليه. انظر تاريخ... ص 4. (الاحالة). أما بروكلمان فذكر مؤلف فانديس وميلبيدس في رأس نائمه المؤلفات العربية في تاريخ الأدب كما رأينا سابقاً.

تبين مع ذلك قائمة تدل على أن المصطلحات عند هـ.ا في حاجة إلى
التدوين وال ضبط (10) . ومثل هذه الظاهرة لا تحلو من خطر لأن الخلط
في المصطلحات هو خلط في المفاهيم ، ولأن الخلط في المفاهيم يفتقر معالجة
(المواضيع الظاهرة في العلم في المنطق).

على أن الخلط في المصطلحات كان ذا أبعاد خطيرة في أعمال
المؤلفين العرب ، لأنه قد البس منهم إلى استعمال شيء من التوازي بين
قسمي الأرب الكبيرين الشعر والنثر . فالشعر عند زيدان مثلاً يقسم
إلى موضوعات ثبيرة من الحماسة والفحار والرثاء ، والشعر يقسم إلى
التاريخ والفقه والعلوم . وهذا يعني أن التاريخ موضوع من موضوعات
النثر مثلما الفقه موضوع من موضوعات الشعر . ويصحب أن نظمنا إلى هذا
التصنيف ولأن التعسيم في الشعر يعتمد المعنى أو الفهم ، في حين
أنه في النثر يعتمد الموضوع ، والفرق بين المعنى أو الفهم والموضوع واضح
لا يفتد أن يحدث فيه هذا الخلط .

والى جانب هذا الخلط في المصطلحات أدرك المؤلفون العرب ، بمجرد
أن شرعوا في الكتابه حسب التعريف فالعام للأرب ، أنه لا يمكن لهتم أن يهتموه
اعتماداً حرفياً ، فاضطروا إلى التكرار . وجاء هذا التكرار صريحاً في قول
زيدان : "أعدنا على أنفسنا أن نتوسع في علوم الأرب والتاريخ والجغرافيا
وغيرها (. . .) ونختصر في كتب الفقه والحديث وغيرهما من العلوم الدينية
أو الشرعية لطولها وكثرتها ، وأن تختصر أيضاً في العلوم الطبيعية
القديمة لذهاب ولتها " (11) ، وجاء ضمياً في عمل الزيات عندما غلب

(10) - استعمل زيدان كلمه "نثر" في الدلالة على النثر الأربي واستعمل كلمه
"النثر" في الدلالة على الكتوبات المنشورة الأخرى ، طيلة الأعوام الأولى من عمله . إلا أنه
تخلّى عن ذلك في الجزء الرابع من كتابه فاستعمل "النثر" مبراً عن الكتابه الأربية .
قال : " فالشعر والنثر ، الأحور فيهما المعنى (. . .) فالأرب والشاعر العربي
إذا نظم أو نثر . تاريخ . . . ج III ص 205 . أما الزيات فقد استعمل "النثر" مبراً عن
الكلمه الأربية (وعن الكاية العلمية سواء في أول عمله أو في آخره . انظر مثلاً :

تاريخ . . . ص 18 و 431 .

(11) - تاريخ . . . ج III ص 104 .

الحناية بالشعر والنثر الادبي على العناية بالملوم الشرعية
والعبيية حتى كمال كتابه يخلو منها . ومثل هذا الممثل
يبدو متعارفا مع ما انطلقنا منه من تسوية بين النصوص جميعها
في اعتبارها شاهدا على أحوال العصر وفي عدها كلها أدبا .

على أن هذا التفسير للتعريف العام يبدو راجعا الى ادراكهم
أن اعتماد حرميا يخرج باعمالهم من الأدب وتاريخه الى الثقافة
والحضارة تاريخهما لأن النارج للملوم والأدب لمختلف الطراهر الفكرية
يصبح من مواضع تواريخ الفكر أو الثقافة أو المعارف . ولعل هذا
الادراك هو الذي جعل القائلين بالتعريف العام من مؤرخي الآداب
المرب يدرجون الى جانبه التعريف الخاص له سواء عملوا به
أم لم يعملوا .

2- التعريف الخاص : تطلق كلمة الأدب هنا على بعض النصوص
المأثورة دون بعض . فأدب الله : " ما أشرع شعرائها وكتابها
من بدائع التبريل المشتغل على تصور الأخيلة الدقيقة وتصوير
المعاني الرقيقة مما يهذب النفس ويرتق الحس ويشرف اللسان " (12)
والأدب " هو هذه الآثار التي يحدثها صاحبها لا يريد بها
إلا الجمال الفني في نفسه . لا يريد بها إلا أن يصف شعورا
أو احساسا أحسه أو « اطعرا حطرا » في لفظ يلائمه رغبة
ولينها وعذوبة أو روعة وعنفام وخيرنة . هو هذه الآثار
التي تصدر عن صاحبها كما يصدر التخرير عن الطائر
الغرد ، وكما ينبعث العرف من الزهرة الأرجة ، وكما ينبعث الضوء
من الشمس المضيئة " . (13)

يبدل هذا الشاهدان على أن أصحاب التعريف الخاص
يميزون ، ضمنيا ، بين نوعين من النصوص : نوع يختص بالجمال
الفني أو تطلق عليه كلمة " الأوجب " ، ونوع لا جمال فني فيه ولا

(12) - تاريخ . . . ص 3 .

(13) - طه حسب في الأدب الحاهلي . . ص 33 .

نظري عليه كلمة "الأدب". وهذا يدل على أن الجمال الفني، عند أصحاب هذا التعريف، هو الذي يفهم الأدب إلى إبرازه في ما به يندفع من صوره أدبية، وهو الذي يشعر به القارئ، إزاء روائع الأمم سال سما.

ولكن ما الجمال الفني، ما مصدره و مآله ؟ إنه يأتي النصوص من قبل ما يتوفر فيها من خيال في نظر زيدان والزيات (14) وهو يأتيها من قبل اللفظ حين تقبل المعنى حينها، ومن قبل اجتماع اللفظ والمعنى حيناً آخر، ومن قبل أشياء أخرى تتجاوز ذلك كله في نظر طه حسين (15). إن الجمال الفني إذن، عندهم، شيء زائد على اللفظ وعلى المعنى، زائد على اجتماعهما، يدخله الأسبغ، ملأه و بغض البه التاري فيقدر به الأعمال الأدبية. وهو كائن في الشعر أو في ذلك النشر الجميل الذي يمدد نورا فنيا. وعلى هذا الأساس أطلق أصحاب التعريف الأساس كلمة "الأدب" على الشعر والنثر الفني فحساب أن الجمال الفني إنما يتوفر فيهما أو يكاد يقتصر عليهما. وأما سائر المكتوبات الأخرى فهي فنية نارية، وعلمية و معارف.

وقد قال بهذا التعريف طه حسين حاصلة و أعمده بنسبه في كتابه "في الأدب الجاهلي" فلم يصرح لا للعلماء ولا للفلاسفة أو المؤرخين، وإنما اعتنى فيه بالشعر والنثر الجاهليين بالمفردات التي سحب النصوص المأثورة عن عرب الجزيرة قبل الإسلام.

(14) - قال زيدان في هذا الصدد: "والشعر يصور "جمال الطبيعة" بالخيال ويعبر عن أحاديثها بهام وارتدادها إليها... (....) إذا فرأت قولا فيه خيال شعري تعرفت الشاعرية فيه و شعرت بلذ ذلك التعرف في طريق له "تاريخ... ج I ص 50.

(15) - طه حسين: في الأدب الجاهلي، ص 205.

و قال به الرافعي من غير أن يعتمد (16) ، لأنه أخذ
 بالتعريف العام في كتابه عدسا أن فيه لغير الشراء والناشرين
 من أعلام الفكر العربي الاسلامي . وقال بهذا التعريف أيضا
 زيدان والزيات ، ولكن الى جانب التعريف العام ، ولم يستمدده
 أي منهما ، إذ هو في نظرهما معنى آخر من معاني الأرب
 يجوز أن يذكر .

نستنتج مما تقدم أن من مؤرخي الآداب العرب من
 قال بالتعريف العام لكلمة "أرب" وحاول اعتماده حرفيا في عمله
 وأن منهم من قال بالتعريف الخاص له واعتمده حرفيا ، وأن منهم من
 نزل بين التعريفين فقال بالخاص أو اعتمد العام ، أو قال بهما
 صا وقلب في عمله الأخذ بالتعريف الخاص على التعريف العام . وبما
 أن الذي قال بالتعريف العام وحاول اعتماده بنفسه هو زيدان ،
 وأن الذي نزل بين التعريفين هما الرافعي والزيات ، وأن
 الذي قال بالتعريف الخاص وقطعه هو طه حسين ، فإنه
 يمكن أن نذهب الى أن تعريف الأرب عند تدرج من العام الى
 الخاص في الریح الاول من القرن العشرين . فزيدان هو أول من
 كتب في تاريخ الأرب من هؤلاء المؤلفين الأربعة وطه
 حسين هو آخرهم .

ونستنتج أيضا أنه إذا كان الأخذ بالتعريف العام لكلمة
 أرب قد أوقع المؤرخين العرب في شيء من الخلط على صعيد
 المصطلحات والمفاهيم ، وخرج بأعمالهم من تاريخ هذا الكائن الكلامي
 الذي يعد أدبا ، الى تاريخ الثقافة أو الحضارة ، فإن التعريف الخاص

(15) - مصر الرافعي الأرب في الدلالة على الشعر والنثر الفني ، إذ انتهى به البحث في تأريخ لفظة "أرب" عند العرب الى تولده
 ان الشعراء ؟ كما هم المستبدون بلقب الأديباء ، ولا يزالون على ذلك
 الى اليوم والى ما شاء الله لأن معنى الأرب عند استحقاقه لعربا كأنه
 كذلك في أصل الوضع ، من جهة الدلالة به على الشعراء والكتاب . تاريخ ... ج I
 37 . لكنه توسع ، كما رأينا ، في عمله فأدرج في الأرب الفلاسفة والأدباء والعلماء ...

يبدو قائما على أساس نظري ضيق : فأصحابه يظفرون كلمة الادب في صيغة المفرد والجمع على نوع واحد من الكتابة لا يتعددونه الى غيره ، ويخلصون الادب من غيره من الكتابات الأخرى التي كان المؤرخون يعدونها أدبا ، عندما جعلوا الجمال الفني شرطا أساسيا للادب الفني وهكذا فإن التعريف الخاص يبدو على محط وافر من الدقة والضبط على صعيد المصطلحات والفاهيم اذا نحن نأرثاه بالتعريف العام .

ولكن ما كان تأثير التعريف الخاص لكلمة أدب في المؤلفات التي اعتمدت ؟ يبدو أن الأخذ بهذا التعريف قد جعل مؤلفات تاريخ الأدب تقتصر على النصوص الجميلة "مطلحةا الخاص بها" ، وأما المديثاء عن الأدب إذ موضوع خاص به أيضا ، فقد كانت الكتابة عن الأدب ، قبل ذلك ، تخلط بين أشياء كثيرة من التاريخ والفقه والعلوم ، وأصبحت موضوعا للتعريف الخاص ، تقتصر على " ما يؤشر من النعت والنثر " (17)

ثم ان التعريف الخاص ، قد تيسر الباحثين من تطويره ، فأنزلتهم الى الأدب بعض التسميات ، بفضل ما ألزموه به من مبدأ "الأدب" وتدينه مدلوله ، فتريث : الأدب ذلك التعريف الذي يتمثل في إطلاق الأدب على النصوص الجميلة "مدلوله" الذي سمح لنا به . سينعشلا بان يعبر عن الأدب الى " إنشائي " و " وصفي " (18) ، وهو الذي دفعه الى البحث عن أسرار الجمال الفني في النصوص ، وهو الذي جعله أخيرا على أن يعتمد في التأريخ تلك الحصائص الفنية عندما نتبعها في تطورها وتحولها ساعيا الى الوفاء على الناس والمتغير فيها . إن تعريف الأدب التعريف الخاص ، إذن ، قد تمكن الباحثين من حصر الموضوع في دراسة الأدب وتأريخه ، ومن ضيق المصطلح الدال على ما اصطفاه المعاصر من نصوص ودورها جديدة ولعل ما في هذا

(17) - طه حسين : فني الأدب الباهلي في 27

(18) - المصدر السابق : ص 33 وما يليها .

التعريف الخاص من دعوة و صبيح هو الذي جعله يلفس انتشارا
واسعا في النصف الأول من القرن العشرين ، فقد اعتمدته المؤلفون
في تاريخ الأدب وفي غير تاريخ الأدب من المؤلفات ، و دليل
الباشون ، بمنتهى ، بسمون النسوة ، المأثورة إلى أدبيته و بسمون
أدبيته على أساس توفر البسمان الفني فيه أو عدم تفرقه ، و طلوا
أيضا بسمون الأدبيته منها إلى شعر ونثر ، و يقسمون النثر إلى
أغراض و النثر إلى فنونيه و أنواعه و يقسمون في درب الأدب و نقد بسمان
أعمال لا تخلو من جودة ، خاصة تلك التي استعانوا فيها بمكاسب
علوم اللغة ، و الفن و الاجتماع و الشعوب .

ألا أن الاختلاف بالتعريف الخاص للأدب ، ولأن انتشار انتشارا واسعا
لدى الباحثين المعاصرين ، لا يحلو من مواطن ضعف بداء الابحاث الحديثه
لفظ الاطصار اليديا . فأصبح هذا التعريف يطلقون كلمة
الأدب على حمله النصوص الأدبية ، وذلك يعني أنه يكفي
أن تصدر النصوص البيعرية أو النثرية أدبا مرة في عصرها
أو في غير عصرها لتعد دائما كذلك مهما كانت العمور و المجتمعات .
ومما ينجزع ذلك أن حركة الأدب في التاريخ تصبح مركبة
لخاففة فحسب ، مما دام تظه ر في كل عصر من العصور و نصوص
تعد جميلة فتتو أدبا و تلحق برصيد المؤلفات الأدبية
الموروثية .

ويبدو وأنه يصعب الاطمئنان إلى مثل هذا التصور لانه
يحمل حركة أخرى للتصو الأدبية غير حركة الاحتفاء ولا تعل
بها أهمية في نكي تاريخ الأدب . و تتمثل هذه المركبة في ذلك
التداول الدائب المستمر الذي يحدث على التصو الأدبية نفسها
في انتقالها من عصر إلى عصر و من نظام اجتماعي إلى آخر فاستتطاع
النثر ، أي تراث أدبي لا ي شعب من الد ، هوب ، يوقفنا على ظاهرة فيه يبدو
أدبا نفتقر إلى كنيس من التدبير والهيم ، لأنها لا تلق بعد ، في ما
يظهر ، حظها من الدرهم ، و تتمثل هذه الظاهرة في أنه
قد يظهر النهر في عصره لا يحتل بده الناس ولا يبدو من الأدب و لا

يبتدر صليبه أرييا ، حتى إذا مضى زمن أو وقعت تحولات ثم
الحاجة بالصوم الأريية وأصبح صاحبها في عدد الأرييا . وقد
يظهر النمر في عصره فيجعل به الناس ويعتد من الأرب ويعتبر
صاحبها أرييا ، حتى إذا مضى زمن أو وقعت تحولات أصبح نسيها
منسيها وكانها ما كان فطأ أرييا ولا كان صاحبها يوما أرييا .
وإذا كان يحسن أن نعد أمثلة عديدة بينة توضح مدى تراجع
عدد الطائفة في تاريخ الأرب العربي فلأنها ، في ما نعلم ،
لم تلق بعد حظها من عناية الدارسين ، ولأن معرفتنا بالأرب العربي
هي ، في معظمها ، معرفة رسمية هذبه رجال الدين والدولة
على مر العصور . ويبدو أن ريدان قد فطن إلى هذا الأمر
عندما قال متحدثا عما ضاع من كتب التاريخ في العصر العباسي :
" وسمما ضاع منها كتب هامة نحتوى على أخبار الأمويين ومناصبهم
وكبر فضائلهم وغيره من تاريخ الأمويين . . . فان أخبارهم
الدولة ضاعت في أيام بني الساس تزلزلا من الكتاب لأجل الدولة " (1) .
ولعل ما نال من زبدان عن كتب التاريخ يصدر على قبيلا لأربها
فان الناظر في كتب الأدب القديم يجد نفسه إزاء أسماء كثيرة
لأعلام كثيرين كانوا ، على ما يذكر معاصروهم ، صهررين في
أزمانهم ، ثم تغلص ذكرهم شيئا فشيئا حتى لم يجد له وجود
في مؤلفات الخلف ، ويجد نفسه ، بالمقابل ، إزاء أسماء أخرى
لغيريت صاوية في أزمانها لم تلفها حق بذلك من أزمان .

ولعل الرجوع إلى مؤلفات بن قبيلا " الامتاع والمؤانسة "
لأبي حيان التومري ، و " طبقات الشعراء " لعبد الله بن المعتز ،
و " الجوزية " لمحمد بن داود بن الحجاج ، و " رساله المفردات "
لأبي العلاء المعري ، كفيلا بتوفير الأمثلة الدالة على أن هذه الظاهرة
تاند سنوا . مدة في تاريخ الأرب العربي القديم . وأما من الأرب الحديث
فلنا في أعمال النابلي والدعا جبر ومحمد بيرم التونسي أمثلة
ان تدبرنا ما شبهها في الأرب العربي القديم وحدثه ، بنان

لنا أن في "جملة" النصوص الأدبية المأثرة مرحلة استيعاب
والحق إلى جانب حركة الاخافة فيها .

و قد تكون وراء ظاهرة الاستيعاب والإحسان هذه عوامل
سياسية بينية ، و قد يكون وراءها عامل زمني بحت أو تحول
في المعايير التي تصطفي بها النصوص ونختار وتتوَّج أدبها ،
ولكنه يبدو أن وراءها عاملا أساسيا يظهر أنه لم تتجه إليه
بمجرد عناية الباحثين ، وهو أن النصوص الأدبية انما تكتسب
صفة الأدبية من نفسها (أي من تحيئتها لأن تعد أدبها)
و من نارة الناس اليها وتعاملهم معها (و يبدو أن هذه الظاهرة
هي نتيجة من نتائج واقع التعليم وحالة المجتمع في تعالفه مع
الفكر وأهله) . و بما أن ظرة الناس إلى النصوص الأدبية تتحول من
عصر إلى عصر بتحول المعايير التي تنتخب بها ، و بتشكيل
النتائج التي يشتت بها الجمال عاملة ويعبر ذ ، كانت
بحسب النصوص الأدبية في حركة من التحول دائبة . و بما
أن تعامل الباحث مع النصوص الأدبية يتحول من عصر إلى
عصر أو من نظام سياسي إلى أو اجتماعي أو اقتصادي إلى نظام آخر
كانت جملة النصوص الأدبية أيضا في حركة دائبة وتحول مستمر .
و بناءً على التحول والحركة في جملة النصوص الأدبية ، فإن
إعلان كلمة أدب على سائر النصوص الأدبية يفس في حاجة
إلى مزيد من الدقة والضبط ، لأنه يطلب على نصوص بعضها
بالأمر منه ، و بعضها الآخر ليس منه اليوم ، أو بعضها
ليس منه بالأمس وهو منه اليوم ، و بعضها اليوم منه وبعضها
الآخر ليس منه غدا ، أو بعضها اليوم ليس منه ، و قد يكون

منه غدا .

و أصحاب التصرف في الخام يطلبون كلمة الأدب على جملة
النصوص الأدبية السأ ثورة أهلها على خط من العدل الفني
مديكون كبير و قد يكون مفيرا ولكنه سوف فيها على
أيده من لا ينكرون أن السياسي التي بها تنتخب
النصوص و تحدد أدبيا ليست في نهاية الامر ، سوى

مجموعة من الأحكام الذوقية والانطباعية، لأنهم يجعلون ذلك في أسسهم نظرتهم إلى الأدب. فالنصر عندهم يتوج أدباً على معيار ما يرى الناظر فيه من جمال فني. والنص والنصيص تعد أدباً ليست على، وظواهر من الجمال، وإنما تنفاوت في ذلك من أدب لاخير، وتتفاوت لدى الأدب الواحد من نواحيه وموج أن هذه النظرة تبدو وصائبه لما قدام به الناس في كل العصور من اختصار نصوصهم ونداء جليله واعتبروها بالتالي أدباً، فإن الباحث لا يسميه إلا أن يتساءل عن سطحا من النوايا، خاصة أن الاختلاف كان موبيا بين علماء الأدب في تقييم أعمال الأدباء في المقارنة بينهم فقد اختلف الناس في أي الشعراء الحاديين أحق بالتعدي، واختلفوا في الاخطل والفرزدق وجريز أيهم الأفضل، واختلفوا في الموازنة بين أبي تمام والبحتري وبين غير أبي تمام والبحتري من الشعراء. وقد نستنتج من ذلك أن اختلاف بين الناس حول الفهم يدل أيضاً على اختلافهم أراء الشعراء والناشرين الذين لم يملنوا ذكرهم لأنهم لم يعدوا من الأدباء أو لا سبباً أو عوامل أخرى محبولة طلبت منهم. وبالتالي فإن هذا الاختلاف من شأنه أن يمس بجملة النصوص التي يستطيع المطلع الأدب ويجعلها بعيدة عن الاستقرار والقبط.

على أن القول بالانطباع والذاتية في انتخاب النصوص واسطفائها أو تنويعها أدبياً، قد آل بالدارسين إلى أن يقيموا علاقات ذاتية بالنصوص والادبيات، وفي هذه العلاقة بين الدارس، أحياها، ساحب ويشتبه أن يراه في النص التي يتعامل معها. فأنجز عن ذلك أن قيل في النص الواحد كلام كثير على سبيل من التفاضل في بعض الأحيان شعر زهير بن أبي سلمى أو ما ينسب إليه من شعر، مبطل لأنه عند الرافعي: "من الروحانيات التي لا تزال تطير بين السماء والارض" (20) في حين أنه جميل عند طه حسين لأنه يقوم على "التفوير المادي" (21)

(20) - تاريخ ... ج ٣ ص 240.

(21) - في الأدب الجاهلي ص 236.

ر لا ن أبيانـهـ " كذا صـور حـساـبـ مـا د يـة " (22) . و هـو جـمـيـل عـنـد
الـريـاـت لـا نـهـ : " يـمـتـاز بـصـد ي الـلهـ جـة أو خـلـوه من الحـوشـي والتعـفـيـة
و بـنـد عـن سـحـب القـول أو حـد الحـديث و جـمـعـه الكـثـيـر مـن
المـعـانـي فـي نـظـيـل مـن الـألفـاظ " (23) .

يـبـدو أن الـأحـكـام الـانـطـبـاعـيـة الـذوقـيـة الـتـلـي عـدت كـا مـنـيـة
فـي اصـطـفـاء النـصـوص الـادبـيـة هـي الـتـي أسـمـمت الـى حـد كـهـنـيـي
فـي ثـجـر يـد عـلا فـة الـقـا ر يـس بـهـم ، و كـيـفـتـهـا الـتـكـيـف الـذوقـي
الـانـطـبـاعـي مـم فـكـا مـن مـتـأـج ذلـك أن صـار تـالـفـاء تـتـمـد لـلـنـص الـوا حـد
فـتـمـيـا ر بـأ حـيـا نا ، و تـمـد كـلـهـا ، و فـي تـخـار بـها ، صـحـيـة . بـل ان مـن
المـفـكـر يـس المـعـلـص يـس مـن أوجـد لـهـذا التـعـد د سـتـنـد الـنـظـر يـي
عـنـد مـا فـال : ان النـصـوص الـادبـيـة نـصـوص جـمـع (24) ، و مـن
الـادبـيـا مـن ذـهـب الـى أن الـأدبـيـة المـعـنـيـي الـذـي يـشـاء القـا ر يـ
أن يـرـاه فـيـهـ (25) . لـو يـظـهـر أنـه يـصـعـب عـلـى البـا حـث
أن يـطـمـئـن الـى أن الـنـص الـادبـيـي الـوا حـد يـمـكـن أن نـرى فـيـه حـيـاة
الـمـؤلفـه الشـخـصـيـة و نـدر سـه عـلـى ذلـك ، و نـرى فـيـه حـفـيـة
صـا حـبـيـة الـنـفـسـيـة و نـدر سـه عـلـى ذلـك ، و نـرى فـيـه و سـطـيـة الـاجـتـمـاعـيـي
أر تـنـاء لـفـويـا مـحـكـمـا و نـدر سـه بـمـفـتـضـي ذلـك أ يـضـم ، فـتـكـون هـذه الـدراسـات
مـع ذلـك كـلـه صـحـيـة و مـفـيـر لـة . يـبـدو أن فـي أ سـاس هـذه

(22) - المـصـد ر اسـابـق . السـوطـن نـفـسـهـ

(23) - تـا ر بـيـح . . . ص 54 .

(24) - فـان رولـان بـار ط : " يـحـتـوى الأثـر الأدبـي عـلـى مـعـان كـثـيـرة فـي الآ ن نـعـسـهـ ،
بـمـوجـب هـيـكـلـه لا مـن حـرا عـا هـة مـا فـي أولـك الـد يـن يـعـر و نـهـ . و مـن هـذه النـا حـيـة فـلـان
الأثـر الأدبـي ر مـنـيـي ، و ان الـر يـمـز لـيـس صـور ة و انـمـا هـو تـعـد د لـلـمـعـانـيـي " نـبـد و حـفـيـهـ .

نـشـر سـوي . نـيـو يـر كـ . 1966 ص 50 .

R. Barthes : Critique et verité . éditions Seuil . Paris 1966 ; P. 50 ;

(25) - مـهـور ة فـي هـذا المـصـد ر قـولـه بـول فـالـبـي ، فـي هـذا المـسـئـى ، عـنـد مـا اسـمـج

الـى مـرح فـام بـه بـعض الـأسـاتـد ة لـمـيـد ة " المـعـيـرة البـحـريـة " . و فـد أ حـذ بـما يـسـبـهـ

مـحـمـد مـنـد و ر فـي كـتـابـه " فـي المـيـزان الجـد يـد " . نـشـر مـكـتـبـة نـهـمـة مـسـر . العـا شـر ة بـد و ن تـا ر يـح .

المفاهيم شيئاً لا يتأزم من واقع الأدب بل فمن هذه الطرق فسي فهم الأدب
 ودرسه تأخذ بنظر وأقرب من التأويل عند ما تتساءل عن
 حقيقة الأدب ما هي ، وتمثل في البحث عنها على تفسير النص وهو
 ثم تعدد الموضوع الأدبية من قبيل الحقائق الثابتة المنزلة التي يحار
 في فهمها الفكر فيسـلم بوجودها ويأملها معاملـة الـبيـهات تدرك
 بلا كـيف ولا ونـمـيا برهان كأن ترد إلى " فطرة الإنسان " (26) أو تجعل " وحياً " (27)
 أو إبداعاً يفرزه " الإلهام " (28) في أوقات معينة ، أو إنتاج اجتماعياً
 منفصلاً عن المجتمع لا تحكمه قوانين الاجتماع ولا تؤثر فيه أوضاعه
 لأن الدر أنتجه " إنسان منفرد في الناس " (29) . هذا في حين أنه
 يبرر وأن البحث عن " ماهيته " الأدب عـسـل لا يكاد يربى منه
 شيء ، ذلك أن كلمة " أدب " تدل على أشياء كثيرة متباعدة لا تكون وحدة
 متأسكة يمكن أن يـمـر لها " جوهر " أو " ماهية " . فهي تدل على
 النصوص الأدبية وعلى الرجال الذين أنتجوها ، وتدل على جمهور القارئ
 الذين يتعاملون معها من غير أن يحرف لأمرهم ذكر ، وعلى
 الورافيين والناسخين والرواة والنفاد و " المؤديين " وعلى أصحاب
 المكتبات ودور النشر وما يتصل بذلك من هيئات اجتماعية . ولقد
 ذكر المؤلفون العرب بعض هذه العناصر عند ما أرخوا للكلمة
 " أدب " في الفروع الإسلامية الأولى وأكدوا على أنها كانت
 تطلق ، من بين ما كانت تطلق عليه ، على " المؤديين والرواة " (30) . ولكن انطلاقت

(26) - الرافعي : تاريخ ... ج III ص 94 .

(27) - المصدر السابق ص 58 .

(28) - قال الرافعي في هذا المعنى : " ... لأن البيان وحى ، ولأن الشعر يـكـاد

يكون تفاعل روحياً من امتزاج روح الشاعر بروح أخـرى إذ هـو كالحالة الطارئة
 على النفس تعبر بها وقتاً دون وقت ، وفي موضع دون موضع . " المصدر السابق ص 59 .

(29) - المصدر السابق : ص 74 .

(30) - أرح معظم المؤلفين لكلمة " أدب " عند العرب . من ذلك مثلاً أن الرافعي

خصرها لها حجاب عديد ، بدءاً من ص 31 من الجزء الأول من ريعه ، وأن طه حسين

تناولها في الصفحات 25-26-27 من عمله . ووقف عليها قبلها نالينوفي المقدمة

التي صدر بها عمله في تاريخ الأدب العربي . ولم يكن كتابا زيدان والزيات يحلوان

من التأريخ لتلك اللفظة في مواضع متعددة منهم . انظر على سبيل المثال : زيدان :

تاريخ ... ج III ص 169 . والزيات : تاريخ ... ص 215 .

من المفهوم الذي انتشر في هذا العصر لكلمة "أرب" هو الذي جعلهم يتعلمون بالنصوص ويفتقرونها على جميعها حيناً وعلى الفني منها حيناً آخر، إذ تدرجت منهم الإشارة إلى ما يفهمه الأجانب من هذه الكلمة، فقال زيردان: "آداب اللغة عند كل الأمم قديماً وحديثاً مؤلفة من الشعر والنثر" (31). وقال الرافعي بمرد أن حصر معنى الأرب في الشعر: "ولا يزالون على ذلك إلى اليوم" (32). وقال طه حسين بعد أن أطلق الأرب "على ما يؤثر من الشعر والنثر": "وهل يدل الأرب الآن على شيء غير هذا؟ (33). وهل يدل الأرب عند الأمم الانبياء القديمة أو الحديثة على شيء غير هذا الذي يدن عليه عندنا؟ (33). ولعل فهمهم الأرب هذا الفهم واتباعهم في البحث عن "ماهيته" تلك الطريقة هو الذي آل بهم إلى أن يمتقروا أن الأرب شيء غريب يصعب تحديده، وعسى أن نصد السي كنهه (34) على حد عبارة طه حسين.

بيد وأن اطلاق كلمة "الأرب" على النصوص الأدبية وما انجر عن ذلك من بحث عن ماهيته ومن أخذ بالمعاني الانطباعية فسي معالجته ذاتياً هو الذي يحمل الباحثين الآن على التماس وجهات نظر أخرى قد تكون أقرب من طبيعة هذا الكلام الذي انتخبه الناس ليتوجه أرباً وأجرى في فهمه (أو درسه) (35). فما طهر في هذا الاتجاه من أعمال لا يقطع، وفي

(31) - تاريخ ... ج I ص 18.

(32) - تاريخ ... ج I ص 37.

(33) - في الأدب الجاهلي ص 28.

(34) - المصدر السابق ص 22.

(35) - ما زالت وجهات النظر هذه موضوع أبحاث متسلسلة (أو الساتية) ثم يلي

لا تخلو من تضارب وتناقض لدى الطائفة الواحدة من الباحثين أدياناً. فبعض الدارسين يقدرون منها إلى وضع "علم اجتماع أدبي" كما في أعمال حلقة بورديو للبحث. وبعضهم الآخر يسي بها إلى تحديد فهم الأدب بالخروج به من الاعتدال على النصوص وأحياناً إلى العناية بالظاهرة الأدبية كلها. لهذا كله رأينا أن ننتقي من الأعمال التي اطلنا عليها في هذا النحو بروح البحث مع الإشارة إلى بعض المسائل التي تناولتها في نطاق "فهم الأرب" وتطوير التاريخ له.

ما يفترض، مع النصوص ولا يدعو الى الكفاف عن النظر فيها، بل هو ينطلق من وجود النصوص الاربية نفسها، ان من الظواهر النبي لا سبيل الى انكارها أن الناس انتقوا من كلامهم كلاما اعتبروه جميلا وأولوه عنايتهم. (وظاهرة الانتقاء هذه لا تختص بعصر وون عصر ولا تقع في مجتمع دون آخر، لانها توسرت في العصور جميعها وفي الانظمة الاجتماعية كلها مهما كانت طبيعتها واتجاهها) ومهما اختلفت منازعها وتمعت الفوارق بينها واشتدت ويبدو أن انتقاء الكلام الجميل يرجع الى ما بالناس من حاجة اليه (ان لا يغفل أن ينتقي الناس من كلامهم كلاما وأن يعنوا به من غير ما يحتاج تدعو الي ذلك).

لقد استغل الساسة ومن بيدهم النفوذ في ما يمد هذا الكلام الجميل واستعملوه في مصالحهم مثلما استعملوا سائر الأسياء والظواهر واستخدموها في بسط سلطانهم أو تدعيمه. ولكن الأكيد أن بالناس حاجة الى ذلك الكلام الجميل الذي رفع اصطفاؤه والمحافظة عليه. وهذه الحاجة هي التي يحسن بالدارسين أن يعطوها حظها من البحث، لأن فهمنا للآداب يفي فهمنا جزئيا ونفسها / إن نحن لنم نعرف الحاجة التي كانت سببا في وجوده. ثم ان انتقاء الكلام انما يقع بحسب معايير معينة، وهذه المعايير في حاجة أيضا الى أن تنال حظها من البحث وتعرف، فلماذا ينتقي الناس في عصر ما من عصور التاريخ كلاما جميلا يعدونه "جميلا"؟ ان معايير انتقاء الكلام تتغير، ففي ما يبدو من عصر الى عصر من نظام اجتماعي الى نظام اجتماعي آخر. واستنتاج التراث يؤكد مثلا ان من الكلام ما يختار ويعر جميلا لأنه في نظر الذين اصطفيه هو توجه أدبي ينطق بالحق والصدق، وان منه ما ينتقي ويتوج أدبا وإن نطق بالكذب أو خرج فيهم أصحابه عن التعارف الشائع من قواعد الأخلاق (36). والأمثلة على ذلك

(36) - قال النعالي متحدثا عن ابن الحجاج الشاعر: "انه من سيرة الشاعر... وقد اتفق من رأيتهم سمعت به من أهل البصرة في الآداب وحسن التصرف بالشعر أنه فرد زمانه في فنه الذي اشتهر به". يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. تحقيق محمد محي الدين عبد الحسيد. مطبعة السعادة. القاهرة 1377 هـ. ج 1 ص 31.

كثيرة في الأدب العربي، وكثيرة جداً، فقد أباح زيدان لجميل أن يتغزل لانه كان في نظره هالاقاً في عاطفته، وقد فسّوق الراعي مديح الجاهليين على مديح شعراء بني المباس لان مديح الجاهليين صارى في نظره في حين أن مديح شعراء بني المباس كاذب وقد أجمع زيدان والزيادات على أن أهاجبي الفرزدق من الأدب الرفيع رغم ما فيها من السباب الفاحش، وأن شعراء بني نواس في الخمير من أروع الشعراء وأن تكون معايير اصطفاة الكلام متغيرة تتري الجمال في السدرة حيناً وفي غير اصدق حيناً آخر يحتاج الى النظر فيها والوقوف عليها في كل العصور عصرها عصرها لاننا متى عرفناها عرفتنا عاملاً أساسياً من العوامل التي جعلت الناس في عصر ما من المصور يختارون كلاماً من كلامهم ويعدونه أدباً أو يفضلون من ذلك الذي اختاروه كلاماً معيناً على كلام آخر.

ثم ان معايير اصطفاة الكلام وانقائه والحفاظ عليه تبدو على صلة متينة بمعايير تقييم الجمال وتقديره، فهي جزء من كل البحث في نظرية الناس الى الشيء الجميل وهذه النظرية في حاجة كذلك الى أن يتناولها الباحثون بالدرس : فيجب ألا يغيب عنا أن الكلام الذي يختار انما يختار لأنه "جميل" في نظر الناس الذين اختاروه. فالكلام الجميل انما تفهم أسرار جماله في نظر الناس الذين اختاروه من نظرتهم الى الجمال وضمن معايير تقديره وبالتالي فان معرفته الباحث بنظرية الناس في عصر ما الى الحال شيء أساسي في فهم اختيارهم كلاماً معيناً أو تنويعه جهاً.

ولكن الناس انما يختارون الكلام بمصطفونه أو يحافظون عليه لانهم يتعاملون معه لأن له في حياتهم عملاً وذلك التعامل هو العمل الذي يحس بالباحثين الوقوف عليه ودرسه. فليس من شك في أن عامل الناس مع الكلام الذي يختارونه، وأن عمل ذلك الكلام في حياتهم لم يكن واحداً في كل العصور فما اذا كان النظم ينتظرون من

مفهوم الأدب أو درسه أو تدريسه أو نشره، وما كان أثر ذلك في حياتهم ؟ وكيف كان الناس يتعاملون مع الكلام البشري يختارونه ويتمجونه أديبا ؟ وهل كان ذلك التعامل عاما يقوم به كل الناس أم كان خاصا تقوم به نسبة معينة منهم . وما كانت ظروف ذلك التعامل وطرفيه ؟

ويمكن أن يؤدي تناول هذه القضايا إلى الوقوف على سلائد أخرى كثيرة بيد وعلاجهما أساسيا في فهم هذا الكائن الكلامي الذي يعرف بالأدب، لأن يتساءل الباحث مثلا عن الكلام الذي لم يفتح اصطفاؤه ولم يتزوج أديبا في عصر من العصور، فالتعرف على ذلك يفيد في التعرف على نوعية الكلام الذي يختار أديبا، وكأن يتناول بالدرس الكلام الذي يتم إلحاقه بالأدب بمدى عصره، أو الذي يقع اسقاطه منه في ما بعد، فذلك مفيد في التعرف على التحول في تعديرات الكلام وتقييمه وهي التعامل معه أو استسماله أو في إدراك العوامل الظاهرة أو الخفية التي يتأثر بها تتويج النصوص أديبا أو إخراجها منه.

إن الأدب أذن ظاهرة اجتماعية دائمة المضور في التاريخ ومد سببه وجوده وجود المصطلح الدال عليه (37) . وقد كان هذا الوجود نتيجة حاجة بالإنسان إليه إذ لا يعمل أن يكون ذلك الوجود محانيا . نلاحظ ظاهرة الأدبية (وظيفية) ويبدو أن تواصل هذه الوظيفة الآن هو الذي يسمح لتلك الظاهرة بتبوء مكانتها في المجتمعات المعاصرة مثلما تبوأتهما في العصور الماضية . لهذا فإن الأبحاث الحالية تتجه اليوم إلى التساؤل عن (وظيفة الأدب

(37) - قال الرافعي مؤرخا لكلمة "أدب" عند العرب: "يستحيل أن يكون

الـ (أدب) الاصطلاحي جاهليا ولا أن يكون من مصطلحات القرن الأول" تاريخ ...

ج I ص 33 . وقال طه حسين بالمناسبة نفسها: "نستطيع أن نقول في

غير تردد أنه ليس لدينا نص صحيح ظاهري يثبت أن لفظ (الأدب) ما يتصريف

فيه من الأفعال والأسماء قد كان معروفا أو مستعملا قبل الاسم

أوليان ظهوره . في الأدب الجاهلي ص 23 .

من حيث هو ظاهرة اجتماعية كان لها وجودها في المجتمع وعملها فيها. ويبدو أن البحث في الظاهرة الأدبية وفي وظائفها من شأنه أن يفتح آفاقاً جديدة في فهم الأدب ودرسه. لان عمله الوثائقي على صلة ستينة بداحة النار الى الادب وبالسقايش التي يختارونها بها ويتوجونه كلاماً "جميلاً" وبنظرتهم التي الجمال وتقديره وبأثر ذلك في حياتهم.

بمفهوم الانعكاسية لم يتفق مؤرخوا الادب العرب على شيء في مؤلفاتهم مثلما اتفقوا على ان الادب "مرآة لحياة الافراد والجماعات". فهو عند هم مرآة لانسه يعتد اللغة واللغة لا تخرج عن أن تكون مرآة تظهر الاجتماع كما هو في نفسه مهما تنوعت أشكاله واختلفت أزياءه" (38). وهو مرآة لأفقه ونيفه تنطق بما كان عليه الماضون ويستخرج منها الباحث أخلا فهم وسائر أحوالهم (39) فـ في اجتماعهم وانفرادهم. وهو أخيراً، مرآة لأنه يمثل "في قوة أضعف شخصية صاحبه وعصره" (40).

وقد جاءهم هذا المفهوم من الماضي في قول ابن خلدون: "ان الشعر ديوان علوم العرب وأخبارهم وشاهـد صوابهم وخطئهم، وأصل يرجعون اليه في الكثير من علومهم وحكمهم" (41). وجاءهم من الغرب عن طريق ما أذاعه اللبنانيون في بداية هذا القرن، من أن اللغة مرآة للفكر والجماعة، ومما بدأ ينشره المستشرقون في الجامعات والدراسات من أن الأدب مرآة لحياة صاحبه وعصره، وهذا طه حسين يشهد بذلك في حديثه عن الدروس التي تلقاها عن الأستاذ كارل نالينو بالجامعة الأهلية المصرية سنة 1910: "لأول مرة تعلمنا أن الآداب مرآة لحياة

(38) - الراقسي : تاريخ ... ج I ص 63

(39) - زيدان : تاريخ ... ج I ص 81.

(40) - طه حسين في الأدب الجاهلي . ص 317.

(41) - استشهد به زيدان : تاريخ ... ج I ص 81 ، والزيادات :

تاريخ ... ص 30.

السر الذي ينتج فيه لانه إما أن يكون صدرى من أصدائها ،
وإما أن يكون دافسا من دوافسها ، فتدور متدحرجا على
كل حال وهو مصور لها على كل حال " (42) .

وأيا ما تكون المصادر التي ورد منها هذا المفهوم ، فانه
نتيجة حتمية للتعريفين العام والخاص اللذين قد مهمما المؤلفون
الرب للكلمة أدب . فهم قد حصروا مدلولها في النصوص والمأثورة
حسبها ، أو في النصوص والمأثورة الفنية وحدها . ومن شأن هذا
الحد أن يؤدي الى التساؤل عن النص الأدبي ما هو ؟
وندد كان الجواب عندهم أن النص من إنتاج الأديب ، وأن
الأديب من إنتاج العصر . وهكذا أمام المؤلفون السعري
الصلة بين النص من جهة وبين الأديب وعصره من جهة أخرى .
ولكن ما هي طبيعة هذه الصلة ؟ إنها صلة "تصوير" عند
زبدان والزيات ، وصلة "تمثيل" عند الراقصي وطه حسين .

وعلى هذا الأساس من الفهم لصلة الأديب بالأديب
وبالعصر ، ذهب زبدان الى البحث عن الجاهليين في آدابهم ،
اعتفادا منه أنهم صوروا : " عاداتهم وحيواناتهم وأدواتهم وفي
اشعارهم كما صورها المصريون والأشوريون واليونان والرومان
على قصورهم وقصورهم " (43) . وذهب الراقصي الى عند
السعري " تمثيلا خفيفا للحياة " (44) ايمانا منه بأن " الحياة
مجموع من الممارات العظيمة والانفعالية والذهنية مرتبة ترتيبا
منظما " (45) وأن السعري " قوة مؤلفة من عناصر دقيقة تنتظم
بطبيعتها على النحو الذي يصورها في شكلها الملائم لتصريف مادة
النفوس فيها " (46) . أما الزيات فانه دطا بالمفهوم خطوة نحو

(42) - طه حسين : مقدمه كتاب " تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر
بيي أمية " لدارسون لينس . دار المعارف . القاهرة 1954 . ص 13 .

(43) - تاريخ ... ج I ص 81 .

(44) - تاريخ ... ج III ص 78 .

(45) - المصدر السابق . الموطن نفسه .

(46) - المصدر السابق . الموطن نفسه .

مزيد من الوضوح عند ما جعل الادب مرآة لحياة الفرد والجماعة في آن واحد . فهو مرآة للفرد لأن ما يتحلى به الشاعر من خلق "تجده متشكلا في شمسره ، مؤثرا في عرضه " (47) و مرآة لحياة الجماعة لما فيه من أثر حياتها ، فقد قال منجدنا عن أدب العزاري في القرن الاول : "ولعل الشعر العراقي الاسلامي أصدر في ما يصور حياة البادية وأصح ما يمبر عن نفسيه العرب" (48) . ولم يبلغ هذا المعهوم نمته في الوضوح الا سبع طه حسين ، فهو الذي أعطاه صيفته الجلية عندما رأى أن الادب " مرآة لنفس صاحبه ، و مرآة لمصره و بيئته كلما عظم حفظه من الجودة والاتقان " (49) . وأن الشعر " يصور لنا حياة الافراد والجماعات في أزمنتها وأمكنثها المختلفة " (50) وقد احتج لذلك بأن الادب في حد ذاته ظاهرة اجتماعية فكيف لا يكون أدبه ظاهرة من ظواهر المجتمع ؟

وقد لقي مفهوم الادب مرآة لحياة الافراد والجماعات انتشارا واسعا في الدراسات الادبية طيلة النصف الاول من القرن العشرين ، وما زال يسيطر عليها الآن (51) . ولكنه لم يخرج عن الاطار النظري الذي رسمته له هذه المؤلفات . وأنصبي ما جرت فيه أنه ازداد تهذيبا من جراء ما اعتمده فيه الباحثون من مكاسب علوم النفس والاجتماع والشعوب . فقد ظل

(17) - الزينات : تاريخ ... ص 74 .

(48) - المصدر السابق . ص 109 .

(49) - في الادب الجاهلي . ص 34 .

(50) - المصدر السابق . ص 316 .

(51) - قال شوقي ضيف مثلا : " نحتاج في دراسة لأدب أي أمة من الأمم أن نعرف الاحداث الكبرى التي أثرت في حياتها منشئيه ، لان الادب في حقيقته مرآة ناصعة صافية ينعكس عليها ما يسيب أهلها من أحداث عابرة و ظروف خاصة " . الادب العربي المعاصر في

الدارسون يعدون الأدب مـرآة تـسـوـر حـيـاة المـؤلف و حـيـاة المـجـمـوعة
البـشريـة الـتي عـاشـر فـيـها و أنـجـ لها أربـبه ، و ظـلـوا يـحـشـون
عـن الكـفـيـة الـتي يـصـور بـها الأرب نـفـس حـابـبه و خـمـائـص
عـمره . و إذا هـم اختلفـوا أحيانـا فـانـهم لا يـخـتـلـفـون فـي المـفـهـوم
نـفـسه و انـما فـي بـعض الجزئـيـات العـالـفـة بـه ، و أن تـرى طائـفة
طائـفة أن الأرب يـصـور حـيـاة الأرب بـالشـخـصـيـة ، و أن تـرى طائـفة
أخـرى أنـه يـصـور حـيـاة حـابـبه النـفـسـيـة ، و أن تـمـتـد طائـفة
ثـالثـة لـأنـه يـصـور و اـجـع الحـمـاعـة أكـثـر مـما يـصـور حـيـاة الفـرد .
و لـيـس مـن شـك فـي أن الـمـمـل بـهـذا المـفـهـوم فـيـد م فـي درس الأرب
أحيانـا لا تـنـسـي لـو مـن فـيـمـة ، و لكـهـا ، و مـن مـا يـلـاحـظ فـيـها أحيانـا
مـن اتـقان و مـن حـودـة ، تـظـل تـطـاـل بـشـيـ من الاحتراز . و لك أن
مـفـهـوم " الانعكاس " الـذي تـنـطـلـق مـنـه و تـعـمـل بـحـقـقـضـاه ، هـو
مـن أشـد المـفـاهـيـم انـتـشـارا بـيـن البـاحـثـيـن ، و مـن أكـثـر مـا
قـابـلية للنقد .

فـإن تـكـون الآداب مـرآة للـو اـقـع مـنـهـا أن لا تـكـون
مـن الوـاضـح حـتى يـكـن أن تـتـلـفـاه مـن الخـارج . لـأنـه شـك فـي لـم
نـكـن الآداب خـارج الوـاضـح أو الوـاضـح خـارج الآداب لـم يـكـن
الانعكاس . أن مـفـهـوم الانعكاس أن يـفـتـرض أن نـكـون الآداب فـي جـهـة
و أن يـكـون الوـاضـح فـي جـهـة مـتـابـلة أو أخـرى ، و يـفـتـرض خـاصـة
أن تـكـون الآداب مـستـقـلـة بـكـيـانـها الخـاص عـن الوـاضـح
الاجـتمـاعـي . و لكـن الأرب جـزء مـن الوـاضـح و طـاهـرة مـن
ظـواهره ، و أصـحاب مـفـهـوم الانعكاس أنـفـسـهم لـم يـدخـلـوا
حـمـدا فـي تـأكـيـد ذلك و البرهنة عـلـيـه . فـانـشـاء النـصـوص
الأدبـيـة عـمـل و افـعـي يـفـعـم بـه أناس و افـعـيـون و يـتـجـهـون
بـه الـى أنـاس و افـعـيـين أیـضـا . و اسـتـعـمـال النـصـوص الأدبـيـة
أمر و اـقـع فـي الوـاضـح كـذا لـك . فـمـدـرج حـسـبـان بـن ثـابـت
الرسـول مـثـلا عـمـل و افـعـي كـان لـه صـدـاه فـي تـاریـخ
الاسـلام و المسلمـيـن . و اسـتـعـمـال الاموینـس الأخطـل و اشـعـاره
فـي مـعـاركـهم المـذهـبـة ضـد العـمـلـویـن و الخـواج و الانصار .

عمل واعبي أيضا كان له أثره في حياة المسلمين .
وكتابة الكتب وطبعها وترويجها وفرائدها أعمال واعية
منخرسة في الواقع الاجتماعي . لهذا يصعب الاطمئنان إلى
أن يكون الأدب في آن واحد جزءا من الواقع ومظهره
من مظاهره الواقعية وأن يصوره أحسن تصوير وأصدق
يلفاه من الخارج . فالمرآة لا تعكس إلا ما هو خارج عنها
مثلما هو معلوم ، ولم يكن الأدب قط شيئا منفصلا عن الواقع
مزالا عليه .

وأن تكون الأدب مرآة للواقع لأنها تعتمد اللغة يفترض
أن تكون اللغة مرآة للواقع وأن تكون كائنا شفافا . وهذا
يتضارب مع ما تتجه إليه الدراسات اللغوية كلها التي تؤكد
فهي لا تقبل أن تعامل اللغة مثل هذه المعاملة أو أن ينظر
إليها مثل هذه النظرة (52) . بل إن الدراسات النفسانية
داتها لا تقبل أن تعد اللغة مرآة لأي شيء أو أن تعتبر كائنا
شفافا نرى ما خلفه . فاللغة ، في نظر علم اللسان وعلم
النفس ، جزء من الواقع ومظهر من مظاهر الحياة الواقعية ،
لها فيها عمل وبها منه آثار ، وليس يعقل أن تجرد
من المحتمل لتصوره أو تعكس ملامحه .

إن مفهوم الانعكاس أن مفهوم قابل للنقد ، لأنه ناتج
عن تعريف للأدب قابل للنقد أيضا . فإن يبرر الأدب بأنه
مجموعة النصوص الأدبية يؤهل بدارسه إلى اقامة علاقة معه
لا تحلوم من داتبة ، لأن المنطلق في هذه النظرة هو أن النصوص

(52) - Ernest Cassirer (في هذا الصدد ما معناه : إن
اللغة لا تدخل عالم المدركات لتخلع على الأشياء علامات اعباطية من الخارج بحسب ،
وانما تدخله من حيث هي أفضل الأدوات وأحسنها سواها في إخضاع عالم الأشياء
الحقيقي أو إعادة بنائه . راجع ذلك في مجلة "سيميوتيكا" . نشرات بلون . باريس

بتاريخ 16-1-1976 ص 2 .
Semiotica. éditions Plon. Paris 16.1. 1976; P. 2.

انما انتخبت وتوجت أديبا لأنها " جميلة " ، ودرسها انما هو بحث عن اسرار ذلك الجمال فيها وتعرف عليه في خاصيات صاحبها وخصائص العصر الذي ظهرت فيه . لهذا كانت الاتجاهات المتضاربة في فهم الادب تشترك في الاخذ بحظ من الذاتية في درسه غير يسير ، لا تسلم من ذلك أمدها حتما على الموضوعية . فهذا الاتجاه الاجتماعي مثلا ، وهو من أكثر الاتجاهات تلقيا بالعلم في درس الادب ، يعيد النظر للأوضاع الاجتماعية التي يظهر فيها ويعطيها من القيمة على مقدار ما يكتف من آسوال المجتمع . ألم يظهر لوكاتش مثلا الروائي الفرنسي بالزاك اطرا كيرا لانه رأى في رواياته وثيقة صادقة الاخبار فليس الواضعية عن المجتمع الفرنسي الرأسمالي في القرن التاسع عشر (53) . وألم تنجر على علمه ألفاظ من قبيل " أظهر " و " أبدي " (54) . وألم يجعل تلميذه فولدسمان " الهياكل الأدبية " تماثل " الهياكل الاقتصادية " أو توازيها على أساس الضارعة ، رغم ذلك التحليل القيم الذي رتب به على مفهوم الانعكاس وأظهر العيب والنقصان فيه (55) . ولمل هذا الموقف الذاتي من الادب هو الذي جعل درسه يكاد يكون " اختلا " بالنسوة ويثبت فيه الباحث فيه ما يظهر له مما يتصل بجمال النص حينما ، ولم يخبره عن شخصية مؤلفه أو نفسيته أو مجتمعه حينما آخر أو ما يتصوره مضمنا بالنصوص من ذلك كله . ولبيد أن هذه العلامة

(53) - لوكاتش : " بليزاك والواقعية الفرنسية " ،

G. Lukacs : Balzac et le réalisme Français .

(54) - وردت هذه الكلمات في المرجع السابق ص 23 و 25 حاشية .

(55) - قال فولدسمان : " يوجد تماثل دقيق بين شكل

الرواية الأدبي (. . .) وبين علاقة الناس اليوسية بالثروات . . . " نحو

علم اجتماع يعنى بالرواية ص 36 .

(L. Goldmann : pour une sociologie du roman P. 36)

وأما نفذه لفهم الانعكاس فقد ورد في المرجع نفسه ص 41 .

الذاتية التي يعيشها الباحثون مع النصوص هي التي جمعت من درس الأدب عملاً لا يطل يتسم بالبعد عن العلمية رغم طموحات الباحثين التي أخرج به عن ذلك.

ج - الأدب والمجتمع : يستند مؤرخو الأدب العرب أن للأدب صلة متينة بالوسط الاجتماعي الذي يظهر فيه. فعلاوة على أنه وثيقة تنطق بأحوال الماضي، وفضلاً عن أنه مرآة تصور شخصية صاحبه وبيئته وعصره، ذهبوا إلى أن الأدب يتأثر بحياة الجماعة ويؤثر فيها.

و فقد اعتمد المؤرخون العرب في تأييدهم هذه الفكرة على مجرعة من البراهين أهمها :

أ - أن الأدب يعتمد اللغة، واللغة كائن اجتماعي تطلق عليه الجماعة للإبلاغ والتعبير. وبما أن الأدب لا يخلق لغته وإنما يتسلمها عن المجموعة التي يعيش فيها فإن أثر الجماعة يتدخل بواسطتها في إنتاج الأدب (56).

ب - أن الأدب كائن اجتماعي لا حياة له خارج المجموعة البشرية التي ينتمي إليها، وشاغلها لا تعدو أن تكون مشاغل الجماعة التي يحيا فيها، وقضاياها هي قضاياها. لذلك فإنه عندما يصدر عن ذاته في أدبه، إنما يصدر في الآن نفسه عن راب المجموعة البشرية التي يعايشها فيتأثر بسبله بها ويؤثر في حياتها من عوامل.

ج - أن الأدب يتبع الحياة الاجتماعية في مختلف حالات تطورها وتدهورها، وهو يتبعها لأنها تؤثر فيه. والدليل على ذلك، عدهم، أنه كلما وقع تغيير في الحياة الاجتماعية وقع تغيير مساهمة له في الأدب.

(56) - نافر الرافعي مثلاً اعتبر القدماء اللعبة وحياً ونوعياً، وأرجع سرفهم عنها إلى "التقوى التاريخية لا أكثر"، ورأى بدوره اللعبة اصطلاحاً لاها تنبع "اجتماع في البسط والنض" و "تنبيه بحسبه ما دامت مستعمله فيه" تاريخ 600 ج 1 ص 5 - 63.

وبناءً على هذه البراهين جعل المؤلفون العرب الأدب يتأثر بالمجتمع الذي يبرز فيه. ولقد عبروا عن ذلك بطرق متفاوتة في الوضوح والدقة ولكنها مشابهة شديدة التشابه أحياناً. فبينما جعل زيدان تأثر الأدب بالحياة الاجتماعية أحـد الأسس التي أقام عليها عمله وذهب في أكثر من مناسبة إلى أنه "من القواعد الأساسية في تاريخ الشعر أن يتبع في أسلوبه ولفظه وطريقته حال الأمة التي تقول به، فيتشبع شعرها بتنوع نظام اجتماعها وسائر أحوالها" (57)، اكتفى الرافعي بقوله: "علي مقدار ارتقاء كل أمة يكون مبلغ شعرها منها" (58). وبينما وصفه الزيات بفكرة التأثر هذه عندما كان سعارفاً من أثر البيئة الطبيعية في الإنسان وأدبه فقال متحدثاً عن الأدب الجاهلي: "وعوثة الصحراء، وحسونه العيش، وحرية الفكر، وطبيعة الجو، وسذاجة البدو، وكل أولئك طبع الشعر الجاهلي بطابع خاص ووسم بسمه ظاهرة" (59)، أعطى طه حسين هذه الفكرة صيغتها البيئية التي انتشرت لها بعد ذلك لدى قطاع واسع من الباحثين في قوله إن الأدب يخضع "لكل ما تخضع له الآثار الفنية من تأثير بالبيئة والجماعة والزمان وما إلى ذلك من المؤثرات الأخرى" (60).

على أن مؤرخي الأدب العرب، وإن اتفقوا على القول بتأثير الوسط الاجتماعي في الأدب الذي يظهر فيه، لم يتفقوا على أي العوامل الاجتماعية يؤثر أكثر من غيره في الأدب. فذهب زيدان والزيات إلى أن العامل السياسي هو المؤثر الأقوى في الأدب، لأن الاحتكاك به، عندهما، يتأثر بالسياسة ويحمل طابعها. وإذا كانت السياسة تؤثر في الاجتماع فهي تؤثر بشكل أقوى

(57) - تاريخ... ج ١ ص 39

(58) - تاريخ... ج ١ ص 74

(59) - تاريخ... ص 32

(60) - في الأدب الجاهلي ص 34.

وأشدد في الأدب . ولعل هذا الفلاس هو الذي جعلها
يكتسب في أكثر من مناسبة أن الأدب " لا يزدهر إلا في ظل
ملك أو أسير يتعهد به ويأخذ بأيدي أهله " (61) . وفي الحقيقة
فإنهما ربطا التاريخ الأدبي بالتاريخ السياسي ربطا محكما
جعل رقي الأدب وانحطاطه يتبع رقي السياسة وانحطاطها .
ولكن طه حسين لم يرف في ذلك رأيهما ، إذ العامل السياسي
عنده لا يعدو أن يكون مؤثرا من بين مؤثرات أخرى
عديدة في الأدب . وليس من الحق ، وفي نظره ، أن يعمد الباحث
إلى جعل العامل السياسي وحده هو المؤثر الأقوى في
الأدب يتبعه في مختلف حالات الرقي والانحطاط لأن ذلك
لا يتلاءم مع واقع الأشياء ، ففي تاريخ المغرب فترات انحطت
فيها السياسة وازدهر الأدب ، وذلك يكفي لإبطال فـيـسـر
التاريخ الأدبي بالتاريخ السياسي . وأما الرافعي فإن العامل
السياسي عنده يؤثر في الأدب حيناً ولا يؤثر فيه حيناً آخر ،
لأنه قال بالرأيين المتضاربين معا في معرض حديثه عن
تاريخ الأدب الأندلسي . فقد كتب محمد بن عبد الرحمن
ابن الحكم (حكم الأندلس من سنة 206 هـ إلى سنة 238 هـ) ولولا
هذا الأمير لرصد العصر الثالث من الأندلس في نفس الثاني ،
إذ نبغ في أيامه يحيى بن الحكم المعروف بالغزال الشاعر المفلح
الفيلسوف (62) . وهذا يعني أن السياسة تؤثر في الأدب
أيما تأثير ، ثم كتب : " وسار الأدب في وجهته غير
مبال بقيام الملوك وسقوطهم ، لأنه لا يقوم بهم ولا يسقط
مهم إلا في أول نشأته " (63) .

أما تأثير الأدب في الحياة الاجتماعية ، فإن جل مؤرخي
الأدب العرب لم يغيروا الدليل عليه براهين مقنعة توضح
كيفيته وتبين مداه . وإنما ردوا في مناسبات عديدة أن للشعر

(61) - زيدان : تاريخ ... ج 1 ، والزيات : تاريخ ... ص 213 .

(62) - تاريخ ... ج III ص 263 .

(63) - المصدر السابق ص 276 .

وفعلا عظيمًا في نفس عرب الجاهلية والاسلام حتى أن البيت الواحد منه يقيمهم ويفعدهم ويكبههم وقد يهلكهم، وأوردوا في تأييد ذلك أخبارا استندوها من كتب الأدب القديمة والتراجم. ومن هذه الأخبار خبر الأعشى مع المحلى وبناته، وخبر الحطيئة مع الزبرقان وبنى أنف الناقصة وفرد حاء بها زيدان والرافسي والزيات في اللفظ يكاد يكون واحدا عند ثلاثهم. ومفاد هذه الأخبار أن العرب يرفضن شأن أناس ويضع من أقدار أناس. ولعل ذلك كان كافيا، في نظرهم، للبرهنة على تأثير الأدب في الحياة الاجتماعية. وإذا كان الزيات قد حاول أن يقدم صيغة أخرى لتأثير الأدب في الاجتماع عند ما رأى في مقدمة عمله أن "كل شئرة سياسية أو نهضة اجتماعية إنما تعدوها وتمدها شئرة فكرية تظهر أولا على ألسنة الشعراء وأقلام الملما" لقوة الحسن فيهم وصفاء النفس منهم" (64). فإنه تجاهل ذلك تماما في عمله واعتد على الأخبار والأخبار وحدها في تأييد مذهبه.

ولكن لطه حسين محاولة طريفة في تناول هذا المفهوم، أراد أن يبرهن فيها بطريقته العقلية على تأثير الأدب في المجتمع. فذهب أولا إلى أن الأدب يؤثر في ما ينأثر به من عوامل اجتماعية، ثم رأى أن هذا التأثير ناتج عن أن في الأدب "ما يرضي حاجة الشعور، وفيه ما يفرج عوج اللسان، وفيه ما يصلح من فساد الحلق، وفيه ما يرضي حاجة الإنسان في حياته الفردية والمنزلية والوطنية والانسانية" (65). إن الأدب إذن، في رأى طه حسين، يؤثر في الحياة الاجتماعية عن طريق ما في فحواه من أفكار وما في صياغته من اتقان. ونعسى ذلك أن الأدب ينشر الآراء والأفكار بين الناس فيكون له التأثير

(64) - تاريخ ... ص 5.

(65) - في الأدب الجاهلي ص 14.

الذي لكتاب الفكر عامة في الناس، ولكن من ينشر من ذلك طرقاً في التعبير جيدة أو سيئة كذلك لأنها تقوم من عروج اللسان. ويبدو أن هذا الفهم الذي نستنتجه من محاولة طه حسيب هذه، لم يواصل عند الباحثين العرب إلى غاياته، إذ ظل مفهوم تأثير الأدب في الوسط الاجتماعي عندهم أمراً مفروضاً منه، ولكننا لا نعلم لهم محاولة أخرى برهنوا فيها على كيفية هذا التأثير ومداه (66).

لقد ورد مفهوم تأثير الأدب بالحياة الاجتماعية وتأثيره فيها عند المؤلفين العرب ضمن تصور عام لتاريخ الأدب. فلم لا يعتفدوا أنه يمكن أن يؤثر للأدب على أنه كائن مستقل بنفسه. وهم، بالسبيل، يرون أن التاريخ له أنما يكون على صلة متينة بالتحولات السياسية والاجتماعية. لذلك ربطوا بين الأدب والاجتماع، واحتاحوا في هذا الربط إلى أن يأخذوا بمفهوم التأثير والتأثير.

قد يبدو للناظر أن هذا المفهوم لا يختلف في شيء عن مفهوم الانعكاس. ولكن الفرق بين بينهما. فمفهوم الانعكاس ينسب أن الحياة الاجتماعية تظهر مصورة في الأدب، وليس من الحسني أن تكون مبنية فيه، بل إنه قد يفهم منه أن الأدب يصور الحياة الاجتماعية تصويراً لا يخلو من سلبية. أما مفهوم التأثير والتأثير فهو يجعل الأدب منفرداً في

(66) - مثل ذلك مثلاً أن الباحث السوري شكري فيصل، وعلمه يمكن أن يعد حوصلته لخطوة الأبحاث الأدبية حتى سنة 1948 وهي سنة فراغه منه، اكتفى في تناوله مفهوم تأثير الأدب في الحياة الاجتماعية بقوله: "وهل في عالم الفكر شيء آخر غير الأدب يرسو في إطار النهضة ويحفرها، ويلهب القلوب من أجلها ويثير كل القوى في سبيلها". وعند ما حاول أن يقدم أمثلة من التاريخ يدعم بها فكرته اتجه إلى الأدب الغربي. انظر: سماج الدراسة الأدبية في الأدب العربي ص 35.

المجتمع لما يخضع له من عوامل ، ويؤثر في العوامل
المؤثرة في المجتمع نفسها وفي المجتمع ذاته . وينتج عن
ذلك أن الأدب يصبح كائنا اجتماعيا متحركا بحركة المجتمع
ومسهما فيها . وهذه الحركة هي التي تسمح بأن يكون
لتاريخ .

هكذا إذاً يكون مفهوم التأثير والتأثير من المفاهيم
الأساسية في تاريخ الأدب . وقد أولاه المؤلفون العرب عنايتهم
على مقدار احساسهم بأهميته . فوضعوا بمقتضاه مقدمات في
التاريخ السياسي مهدوا بها للمسور الأدبية مثلما فعل
زيدان والزيات . لقد كتب زيدان مثلاً : " وتمهيدا للكلام
في آداب اللغة العربية في ذلك العصر نذكر الانقلاب الذي حدث
بانتقال الدولة من الأمويين إلى العباسيين ليمنون علينا
تفهم ما حدث من التغيير في الأدب والمفهوم " (67) . وأمكن
لهم أن يؤرخوا به للأدب العربي رغم ما يرمى به من
ممن تغلب في عصر الانحطاط ، إذ اعتقدوا أن " الشعراء وان
حافظ على طريقته وطبيعته قد تأثر بهذه الحياة الجديدة
تأثراً ظاهراً في معانيه وأعراضه " (68) . بل إن مفهوم
التأثير والتأثير هذا هو الذي أعطى منهج التفسير إلى
عسور في تاريخ الأدب إذ قال الزيات : " ولكن المعاصرين
بالرغم من (التقليد) يخضعون لا حيلهم السياسية والاجتماعية ،
فيكونون لانشائهم طابع خاص يميزهم من باقي العصور " (69) .
إن مفهوم التأثير والتأثير إذن أساسي لتاريخ الأدب ، فاعل في
منهجه ، وكيف لطريقته لأن عمل المؤرخين العرب اتجه بمقتضاه
إلى البحث عن أثر العصر في الأدب ^{بأن} أن مفهوم " تأثر
الأدب بوسطه الاجتماعي وتأثيره فيه " هو آخر المفاهيم التي

(67) - زيدان : تاريخ . . . ج ١ ص 18 .

(68) - الزيات : تاريخ . . . ص 107 .

(69) - المصدر السابق . ص 218 .

لقيت رواجا كبيرا ، في أشكال شتى ، لدى دارسي الأدب وناقديه
ولدى المؤرخين له . ويبدو وأنه وليد تلك النظرة الحديثة
التي تعد الأدب انتاجا يقوم به أفراد من المجتمع طبق
ما يهيئه لهم واقعهـم من ظروف . فالاديب " نفسه ظاهرة
اجتماعية ولا يمكن أن يكون أدبه الا ظاهرة اجتماعية " (70) تتأثر
بما يؤثر في البيئة الاجتماعية من عوامل وتؤثر فيها .

وقد ذهب الباحثون ، حديثا ، في إصرار ما بين الأدب
والمجتمع من علاقات ، مذاهب شتى انتهت بهم الى الاختلاف في
أبي العوامل الاجتماعية أقوى أثرا في الظاهرة الأدبية . فرأت طائفة
أن العوامل الفكرية هي التي تؤثر في الأدب التأثير الأقوى
لان الأدب انتاج افكرى بينه وبين سائر النتوجات الفكرية
تأثير متبادل . ورأت طائفة أن العوامل السياسية هي التي
تطبع الأدب بطابعها لها من تحكم فيه وسلطان عليه ،
فالساسة يشجعون الأدباء بالصلات والناصب ويروجون الآداب
التي تخدم ركبهم ، ويضربون على أيدي من يتحداهم أو
يمهدد مصالحهم من الكتاب ولا يسمحون بظهور المؤلفات
التي لا يودون لها الظهور . ورأت طائفة ثالثة أن العوامل الاقتصادية
هي التي تؤثر في العوامل الاجتماعية والسياسية والفكرية .
وأن كل شيء في المجتمع متأثر بها خاضع لتطلباتها ،
ولا يخدم الباحث طوائف أخرى مزجت بين العوامل الثلاثة
كلها أو بعضها وعدتها مؤثرة في عمل الاديب سكية لانتاجه .

ولكن هذه الطوائف الثلاث وان اختلفت هذا الاختلاف ، درجت
على اعتبار الأدب جملة النصوص الأدبية التي ينتجها الأدباء
ضمن مجتمع معين فتتأثر بما يخضع له من مؤثرات .
ومثل هذا الموقف يجعل مؤرخ الآداب ينصرف الى البحث عن ذلك
الأثر الذي تركه العوامل الفكرية أو الاجتماعية أو الاقتصادية

(70) طه حسين : مقدمة " تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر

في الادب، فيكون من هذه النواحي الثلاث السلي واعداء و اذا هي اختلفت فيما بينها فانها لا تختلف الا في ذلك العامل الذي تبحث عن اثره في نصوص الادب. ولشأن من ذلك تتفق على اعتبار الادب مجموعة من النصوص تحيل أثر الفكر أو الاحتجاج أو الافتصاد. وهذا يعني أنها تفصل بين الادب وبين الاجتماع والاقتصاد لتقيم بينهما علاقات تأثير، وتأخذ بمفهوم الانعكاس تجسيميا لهذه العلاقات. ومثل هذا الفهم ما يقوم عليه من تصور للاشياء. قد يتضارب مع الواقع التاريخي للادب في علاقاته بالنظام الاجتماعي، خاصة أنه يفصل بين الادب والاجتماع ويعتبر كلا منهما كائنا على حدة تربط بينهما صلات معينة. ويبدو أن هذا الفهم قد اسهم بخلق كبير في ابتعاد الباحثين عن الموضوع الذي كان يحسن بهم تناوله، خاصة أن التعرف عليه يساعد على حل قضايا عديدة ظلت ملغاة فيما يتعلق بعلاقة الادب بالاجتماع.

فالادب يتأثر فعلا بالمجتمع الذي يظهر فيه، ولكنه لا يتأثر به من حيث هو كائن مستقل أو شبه مستقل عن المجتمع حتى يحسن أثره و يتلقاه من الخارج، بل هو يتأثر بالمجتمع لأنه هو أيضا ظاهرة اجتماعية لها عملها في الوسط الاجتماعي. فهو يتأثر مثلا بظروف انتاج النصوص والمعايير التي تنطوي بها وتتزوج أديبا، وبالمدارس ونظم التعليم وطرقه، وبالكيفية التي يتم بها ترويجه ونشره بين الناس، وباستعماله وتداول القرار معه وبالغايات التي ينتظر الناس بلوغها عنه. ان الادب يتأثر بكل هذه العوامل لأنه كائن اجتماعي منتشر في المجتمع كله فيه حياة معينة، ولكنه لا يتأثر بالمجتمع لأنه يحمل طابعه ويظهر خصائصه ويكشف عن مدى رمية أو انحطاطه مثلما تكشف المراجعة عن الأخيلة التي تتلقاها من الخارج، وان الابحاث الان للم تكشف شيئا كبيرا عن تأثير الادب بالمجتمع الذي يظهر فيه لان الدارسين انصرفوا إلى العناية بمردى تشييد النصوص الادبية عمورها فنظروا إلى محتوياتها وإلى شكلها وحاولوا أن يلائموا بين ذلك وبين ما يعرفون عنه عن المجتمعات التي

ظهرت فيها ، ولم يثججوها السي البحث عن نمط حياة
النصوص في مجتمعاتها ، ولو كانوا فلبسوا لانفتحت في درس الادب
آفاق واسعة تشري فهم الظاهرة الادبية وادراك جوانب غامضة
من كيانها التاريخي .

والادب يؤثر في الوسط الاجتماعي الذي يظهر فيه ، ولكن
مسألة تأثيره هذه في حاجة الى أن تعالج بحذر كبير
لانها شديدة التعقيد والإشكال . ولعل هذا الإشكال هو
الذي جعل معظم الباحثين يفتشون من مسألة تأثير الادب
في الحياة الاجتماعية موقفا يكار يكون واحدا . فهم يؤكدون
دون تردد أن الادب يؤثر في الحياة الاجتماعية ، وهم يسكتون
عن الكيفية التي يتم بها ذلك التأثير . وإذا اتفق بعضهم
أن تظهر في ذلك ، ذهب الى أن الادب انما يؤثر في المجتمع بالمعنى
الذي يتضمنه في حين أن هذه المسألة تبدو أعقد من أن
تحل هذا الحل .

فالادب كما هو معلوم ، يعتمد اللغة مادة أولى مثلما
يعتمد الرسم اللون والخطوط . ولكن اللغة هي نفسها
أداة ادراك وفهم وتبوير . فهي التي بها يتعلم الانسان كيف
يفكر ويميز ، والمجتمعات لا تخلق لغاتها وانما تراث منها الكثير
وتراث منها طرفا في التفكير والتعبير معينة . والكتاب لا
يستند من اللغة التي يجدونها في مجتمعاتهم فحسب وانما
يؤثر كل منهم فيها تأثيرا على قدر طاقته . فعمل الكتاب
ان هو عمل في اللغة يعبر فيها وطرق أدائها ويحدث
أحيانا في ألفاظها وتراكيبها . وبنسبة على هذا فان الذين
يحاربون صوما يوجونها أدبا يختارون أيضا لغة معينة وطرقا في الأداء الجديدة يثرونها
بين الناس ويعدونها مثلا يحتذى . ومن هنا فان أطفالنا نصري
وتتوحيها أدبا هو أيضا أطفالنا لنوع من التساير وتوحيها
أمثلة تضرب على الفصاحة والبيان . والناظر في تاريخ الادب
السري يلاحظ ، من بين ما يلاحظه ، أن صيغ التعظيم كانت تـ

ففي أدب الجاهلية وأدب عصور الإسلام الأولى، وأنها انتشرت وتنوعت في القرن الرابع وفي ظل جلاء بعده من عصور، ويلاحظ أيضاً أن لغة الجنس كانت موجودة في المؤلفات القديمة في حين أنها كانت تنعدم. . . منها في القرنين التاسع عشر والعشرين. . . ومن الأدلة على ذلك أننا نقرأ اليوم في المؤلفات زيدان والرافعي والزيات عبارات من غيبيل: "أنبح أسباب التهلكة... الفاحشة... مما يخلج القلب من ذكره" (71). "ألم بأطراف العفاف... تمطر... أفحش" (72).

بيد واد أن النص وص التي تختار وتتقن أدبا تؤثر في المجتمع لأنها تنشر فيه طرقا في التعبير مبنية على "بليغة" أو فصحة. . . وبما أن اللغة التي يستعملها الانسان والطريقة التي يستعملها بها تؤثر في علاقته بالعالم وتحدد نوعيتها، فإن الذين يختارون نصوصا يعدونها أدبا دون نصوص أخرى يختارون معها نوعا من علاقة الانسان بالعالم ويتوجونه مثلا يفتدى به. . . كذا أن يؤثر الأدب في المجتمع من حيث عبوكائن من كلام يؤثر الس حرد ما في لنته. . . وما يسهر على الأدباء هذا التأثير أنه يباح لهم، في السالب، ما لا يباح لغيرهم من خروج عما يتفكر به الكتاب عادة من قواعد اللغة. . . وإذا كان البلاغيون قد حاولوا، على مر العصور، ضبط الوجوه البلاغية في التعبير لعناية حصر الموهن التي يباح فيها للأدباء الخروج عن قواعد اللغة وتحديد ها، فإنهم لم يفلحوا في ذلك، كما هو معروف، لأن حاجة المجتمعات لانمط من العلاقة بالواقع ليست واحدة في كل الزمان.

على أن للنصوص الأدبية، إلى جانب ذلك، الأثر الذي للتأثير الكلامية في مجتمعاتنا. . . ومن هذه الناحية فإن النص الأدبي يعمل في المحسوس ويؤثر فيه عمل الأشكال البلاغية والمعرفية فيه. . . إذ هو يحمل فكرة ويؤسس فهمها وينشر وعيها. . . وهذا

(71) - زيدان: تاريخ... ج II ص 48.

(72) - الرافعي... تاريخ... ج III ص 196.

الواجب من التأثير هو الذي نال حظا كبيرا من البحث
في أعمال معظم الاتجاهات التي تناولت مع الأدب تعاملها
مع شتى أنواع المعارف الأخرى .

ولكن النصير في الأدبية لا تختار وتتوج أدبا لأنها صديقة
التمايز مستقيمة التراكيب ، أو لأنها تنطق بالحكمة والسدى
والمعرفة فحسب . فهي تختار لأنها " جميلة " . ولأن هذه
النصوص جميلة أو عذبة كذلك ، فهي تؤثر في المجتمع
التأثير الذي للأشياء الجميلة فيه . ويبدو أن الجمال في
النصوص الأدبية ليس أثرا انطباعيا في النفس يراه كل في
ما يحب ويشتهي من المظاهر فيه ، لأن المجتمعات البشرية
عبرت كلها عن مواقف من الجمال معينة طيلة تاريخها
مهما كانت الأطوار التي مرت بها ومهما كانت الاشكال
التي اتخذتها . وهذا يدل على أن بالناس حاجة إلى الشيء
الجميل ، وهي حاجة جعلت له وظيفة في حياتهم . وقد يعسر
الآن أن نفهم وظيفة الجمال ما هي ، وعلى حاجة الناس إليه
ما نوعها ، ولكنه لا يمكن إلاّ نشير ، ولو في إيجاز شديد ،
إلى تلك الفكرة المنتشرة بين المفكرين والتي تجعل الفن
يتمارب مع العلم ، لأنها في جوهرها نقصد إليه من
أثار هذه المسألة . فمن المعتقدات السائدة بين المثقفين
أن الفن متعة ولذة لا يفيدان معرفة ، في حين أن العلم معرفة
لا لذة أو متعة فيها . وهذا المعتقد قد لا يتلاءم مع واقع
الأشياء تمام التلاؤم ، لأن للفن ، في ما يبدو ، وظيفة معرفية .
وهي وظيفة تذهب الأبحاث الآن في التعرف عليها مذهب
شتى ، فالتعبير الجمالي ، عند البعض ، يقدم معرفة تختلف عن
المعرفة التي يفدها العلم للناس ، ولكنها قائمة بذاتها
متجاوبة مع حاجيات الفرد والجماعة للجمال واسع حاجيات
المجتمعات للمعرفة الجمالية ذاتها . وفي الأدب تبدد والمعرفة
الجمالية خاصة في خصوصية الأدب نفسه من حيث هو
سائن خاص من الكلام . أو مررت هذه المعرفة ، في عرف باحثين

عديدين ، الى أن الفن نفسه أداة سيطرة على الوانخ ووسيلة تحكم فيه تمكن ، الى حد ما ، من تغييره . وبما أن النصيب من الادبيية تختار أدبها لأنهم ، وفي عرف الذين اختاروها ، على حظ من الجمال ، فانهما تؤثر في المجتمع مثلما تؤثر فيه الاشياء الجميلة عندما تمد الناس بنوع من المعرفة الفنية للواقع ، يبدو أنهم في حاجة اليها .

وهكذا نمل الى أن للادب أثرا مزدجا في الواقع ، علاوة على عمله فيه ، فهو يؤثر من حيث هو ككائن من لغة له في تطويرها وفي تعييرها وتحديد عملها ، ولله في النظام الفكري العام كله ضلع في تأسيسه أو تحويله ، وهو يؤثر من حيث هو ككائن من جمال أو عد في وقت ما جمالا حسب مقاييس معينة وضمن نظرية معينة أيضا للاشياء الجميلة .

2 - الادبيية : (73) :

لئن عرفت مؤرخو الادب العرب الادب ووقفوا على بعض القضايا التي يطرحها مفهومه ، فانه لم يتعرضوا ، لا في المقدمات التي مهدوا بها للمؤلفاتهم ولا داخل هذو المؤلفات نفسها ، لمفهوم الادبي عندهم ، ولم يذكروا نظرتهم اليه . الا أنه بإمكان الباحث أن يستخلص تصورهم لمنتج النصوص الادبيية مما ترجموا به لأعلام الادب العربي ، ومما كتبوه

(73) - نطلق كلمة "الادبي" على منتج النصوص الادبيية سواء كانت شعرا أم نثرا ، وإذا كانت اشواهد التي نذكرها مأخوذة ، فمن معظمها ، مما تحدث به المؤلفون العرب عن الشعراء فان هذا لا يعني أن الشاعر وحده هو الذي نظروا اليه النظرة التي نغف على بعض عناصرها . فنظرتهم تلك تشمل الشعراء أو الناثريين معا ، وإذا لم يكن كذلك في أحاديثهم عن الشعراء ، أظهر فلان عناية مؤرخي الأدب العربي كانت تنجبه إلى الشعر أكثر مما تنجبه إلى النثر ولعل المؤلفات التي استقنوا منها ما دتهم هي التي أجبرتهم على ذلك .

عرضا عن عملية الخلق الأدبي . ولا يخلو البحث عن مفهوم
الأديب عند هم من فائدة ، لأن نظرتهم له أسهمت ، أسهاما فعالا في
بعض الأحيان ، في جعل مؤلفاتهم تأتي على الصورة التي وردت عليها .

يبدأ الأديب أول ما يبدأ وعليه في أعمال زيدان
والرافعي والزيات كائنات غريبة ، فهو " إنسان منفرد في
الناس " (74) . تحيط به هالة من خرق المألوف ترتفع به عن
المألوف من البشر العاديين . وقد تسبق هذه الحالة
وجود الأديب نفسه كما هو الشأن في حديث الزيات عن جرير .
فقد قال إن أمه : " رأته وهي حامل به أن حبلا نزل منها
فصار يثب على الناس فيختهم واحدا بعد واحد . فلما تأولت
رؤياها قيل لها إنك تلدين ولدا يكون شديد الحياء
والبلاء على الناس والسمراء " (75) . وقد تسبق تلك الحالة بالأديب
سند الصعر مثلما ورد في حديث زيدان عن لبيد : " وكانت
الساعرية ظاهرة في عينيه منذ صباه " (76) . إلا أن صفة
خرق المألوف هذه كثيرا ما تلازم الأديب في أطوار حياته كلها ،
وخاصة فيما يتصل منها بإنتاج النصوص . فابن الفارض مثلا " إذا أراد
النظم أصابته غيوبة قيل إن بعضها كان يستغرق عشرة أيام ،
لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ، فإذا أفاق ألقى من الشعر أبياتا " (77) .

وينفرد الأديب عن الناس بما لديه من إحساس مرهف
يهيئه السبل لتلقي الوحي ، " والالهام " فهو إلى الأنبياء أقرب
منه إلى الناس العاديين . وقد جُمع المؤلفون العرب أنفراد الأديب
عن الناس وتمييزه في ما نسبوه إليه من ألقاف غامضة تدل على
تطور إحدى الملكات فيه عن المستوى العادي لدى البشر العاديين ،

(74) - الرافعي : تاريخ ... ج III ص 74 .

(75) - تاريخ ... ص 124 .

(76) - تاريخ ... ج I ص 105 .

(77) - المصدر السابق ج I ص 16 .

فـتـوـذـو "نبوغ عبقرى" و ذـو "فريحة" أو "بديهة" أو "إلهام" (78) .

وليـسـر الـادـبـيـاب وحده كائننا غريباً في أعمال مؤرخي
الادب العرب ، فانتاج النصوص هو نفسه عمل غريب أيضاً ، ذلك
أن انتاج النصوص لا يبدأ تلقى للادباء ، وتتما يشاؤون ، فقد تمر بالهمض
منهم أومات لا يقدرون فيها على شيء من ذلك ، وقد تمر بهم
أوقات "تجيش فيها صدورهم" بالشعر كما تجيش المرجل (79)
و هم يستشعرون على ذلك بأخبار كبيرة وردت في تصانيف
القدماء ويتبنونها . قال زبدان : "معما بلغ المرء من
سمو المدارك و صفاء الذهن و سرعة البديهة فإنه لا يستغنى
أحياناً عن شحذ قريحته و ذهنه و استحثاث خاطره و خصوصاً
في الشعر" (80) . ان انساء النصوص الأدبية اذن لا ينتج
عن اجها فالنفس و اعمال الفكر بفرد ما ينتج عن تلبس الاديب
بحالة من الهياج و الخضب يفتح له فيها باب الكلام . ولعل
أغرب فكرة نعرضها المؤلفون العرب عن انتاج النصوص
ان المصائب و الفواجح من اقرب العوامل تأثيراً في نبوغ الادباء .
فـ "ما شعرت الخنساء في نظر الرافعي - حتى كثرت مصائبها ،
و كانت قبل ذلك كغيرها من النساء : تقول البيتين
و الثلاثة " (81) . و تبرير ذلك عند الزيات أن "الأسى يـرـق
الشـمـسـور ، و يـرـق العاطفة ، و يفتق القريحة" (82) . ولم تـرـد
هذه الفكرة في معرض الحديث عن الخنساء فحسب ، بل هـنـي
متوفرة في تراجم عدد وافر من الشعراء ، نذكر منهم المهلهل
و ابن الرومي و أبا فراس ، و عائشة التيمورية . و هـذا يـرـد
على أن انتاج النصوص في نظر المؤلفين العرب ليس عملاً إرادياً

(78) - هذه الالفاظ كثيرة التواتر في مؤلفات تاريخ الادب العربي .

راجع على سبيل المثال : الرافعي : تاريخ ... ج III ص 14 .

و الزيات : تاريخ ... ص 501 حيث قال : "لم يزل شوقي مهبط الوهمي

والإلهام" .

(79) - زيدان : تاريخ ... ج I ص 305 .

(80) - الصدر السابق ... المودن نفسه .

(81) - تاريخ ... ج III ص 69 .

(82) - تاريخ ... ص 150 .

فقط، بل تتحكم فيه أيضا حالات الانفعال التي يمر بها
الاديب فتخرج به عن مصاف البشر العاديين. وفي هذا
الشار يتنزل تريفهم الادب بأنه "لغة الروح" (83) ولغة الاحساس
والشعور.

وعد أشر اعتبار المؤلفين العرب الاديب كائنات غريبة
وتصورهم انتاج النصوص عملية عجيبة، في نظرهم الى النصوص الادبية
نفسها. فانتاج هذا الكائن الغريب في تلك الحالة الغريبة لا يمكن
بدوره ألا بعد عرييا عجيبا. لذلك أكثر المؤلفون العرب
من ترديد أن للشعر وقع السحر في نفوس العرب، وأن بيانه
معجز، وأن نسيج الشعراء فريد. وازاء هذا التصور فانه
لا يسع الناري إلا أن يتأمل روعة النصوص الادبية ويعجب من
قوة بيانها. فهي بدعية منذ النطق لان الذي أنتجها كائن
مشوق على الناس العاديين ولانها ظهرت في حالة خلق ساذجة عن
الحالات العادية. لذا كانت الكتابة عنها لا تكثر تتجاوز
ابرار ما هو الاعجاز والبيان والروعة والسحر فيها. وهكذا
فان قراءة الادب تصبح لونا من ألوان التعبير لهذا الكائن الكلامي
المتميز عن غيره من الكلام بهالة الاعجاز البياني التي يحاط بها.

ولا تقتصر هذه النظرة على الادب القديم حتى تكون من
آثار ما كان يعتفده القدماء في أن للشعراء اشياطين يساعدونهم
على النظم، لانها موجودة في حديث المعلمين عن الادباء
المعاصرين. فهذا الزيات يرى مع النقاد أن شوقي "شاعر
موهوب" [وصل] ما انقطع عن وحى الشعر" ان كان "ينشغل
شعره عن طبع دقيق، وحس صادق، وذوق سليم، وروح
قوي" (84). وهذا زيدان يستعمل ألفاظا من قبيل "الفرحة"
و"الموهبة" و"سرعة الخاطر" في حديثه عن الشعراء المعاصرين

(83) - الراجحي : تاريخ ... ج III ص 74.

(84) - تاريخ ... ص 501.

مثنى "عائشة القيصرية" و "خليل الخوري اللبناني" و "شاكر شقير اللبناني" (35).
 إلا أن لهذا المفهوم نفيذه في المؤلفات نفسها التي ورد فيها وفي بعض
 طبعه حسين خاصة. فالأدب عند المؤلفين العرب كائن متناثر في الناس العاديين،
 لا هو يختلف عنهم ولا هم عنه يختلفون. وكل ما في الأمر أنه اتجه
 إلى الأدب فتعلمه وحده واحترفه مثلما اتجه غيره من الناس إلى أهليته أخذ
 فتعلموها وحذروها واحترفوها. فالحطيئة تعلم الشعر واضطر إلى
 أن "يجلب به القوت" (86). وما صار الفرزدق شاعرا إلا بعد أن "أخذ
 أبوه يرويه الشعر ويعلمه الفريضي" (87). وكان أبو نؤس إذا قرأ
 شعرا ارتاحت نفسه إلى معانيه ونشأت عنده رغبة في النظم ولم يكمل
 الشعر حتى "روى لستين امرأة من العرب" (88)، ولم يكمل
 أب تمام يعاني الشعر حتى أجاده (89). واذن فالأدب يكتسب
 بالتعلم والرواية ويتعاطاه صاحبه مهنة يطلب بها معاشه.
 وهذا يتنافى مع ما رأيناه من أن الأدب ابن "القرينة"
 و "الموهبة".

وإذا كان الأدب يكتسب بالتعلم فإن إنتاج النصوص يكون من جهرا
 أجهار النفس وأعمال الفكر والسمانة، فلا هو يفيض من صاحبه فيضانا
 ولا هو ينزل عليه وحيا وإلهاما في حالات الانفعال والتأثر. فمجرد
 كان أوس بن حجر "يميل الشعر عملا وينشئه انشأ" (90) وكسانت
 لغز هيريق أبي سلمى "فوائد تعرف بالحوليات يزعمون أنه كان ينظمها
 في أربعة أشهر ويهذبها في أربعة، ثم يعرضها على خاصة الشعراء
 في أربعة فلا ينشدها الناس إلا بعد حول (91) وكان لا يخطئ يلبث في مداحه

(35) - تاريخ... ج ١ ص 220 . 224 . 225.

(36) - الزيات : تاريخ... ص 155.

(37) - المصدر السابق ص 164.

(38) - زيدان : تاريخ... ج ١ ص 31.

(39) - المصدر السابق ص 68.

(40) - ط.ه حسين : فني الأدب الجاهلي ص 271.

(91) - الزيات : تاريخ... ص 53.

سنة (92) . ويبدو أن هذا المفهوم قد انتشر لدى مؤرخي الادب العرب عندما عرفوا بالادباء المعاصرين واطلوا من طرق انشاءهم النصوص على ما لم يتسنى لهم الاطلاع عليه عند تناولهم الادباء القدامى ، إذ أنهم أكثر من الوقوف على النيفات التي اعبح بها أدباء النهضة أدباء . فالشيخ ابراهيم اليازجي اللبناني (توفي سنة 1906) نشأ بين المكتبات والمجاهر ، وتلقى الملم على أبيه وأكسب على المطالعة بنفسه ، فاتقن اللغة العربية وأوضاعها وسائر علومها (93) ، وصار أدبياً ، وجميلاً صدقي الزهاوي (توفي 1936) يصدره أخوه من الادب " وبأبى عناده وهو ، وتسامح أبيه ، إلا أن يدهم النظم " (94) فيه ليصبح شاعراً . ومحمود سامي البارودي (توفي 1904) " أخذ نفسه بدرس واوهن الفحول من شعراء العرب حتى شتت فسيح اللسان " (95) . ويبدو أيضاً أن هذا المفهوم يتضارب مع ما كان منتشراً عند جمهور واسع من المؤلفين القدامى والمُعَلِّمين من أن العرب أمية شاعرة لا يكاد الفرد منها يصرف خاطره إلى الشعر حتى يقدر عليه ، وأنه كان يقصد به السن تخلص انتاج النصوص العربية الغرابية التي أحاط به بها القدامى . فالادباء العرب القدامى والمعاصرون تعلموا الادب تعلماً وأتقنوا تعلمه حتى برعوا فيه وأنشؤوا ما أنشؤوا من آثار بعد اجهاد النفس واعفات الخاطر .

وإذا كان الاديب ، كائنًا عاديًا يكتسب الادب بالتعليم ، فإن النصوص الادبية نفسها تصبح انتاجاً عاديًا يكون بعد اجهاد النفس واتصاف الفكر حسب مقاييس فني البلاغة والانتاج معلومة ، فتنزاح بذلك عن صفة الغرابية ويتخذ منها العاري موقفاً

(92) - المصدر السابق ص 162 .

(93) - زيدان : تاريخ ... ج IV ص 240 .

(94) - الزيات : تاريخ ... ص 508 .

(95) - المصدر السابق ص 492 .

عاديها مجردا من السبقات، فينظر اليها من حيث هي انتباه
لديه فوائده وظروفه، وقام به انسان عادي من الناس العاديين
انصرف الى التأليف مثلما انصرف غيره الى احتراف مهنة اخرى.

ولقد كان لهذين المفهومين المتضاربين اثر بين
في مؤلفات تاريخ الادب العربي، فبينما يكاد يكتفي زيدان
والرافعي والزيات في أعمالهم باظهار جوانب البلاغة
والبيان في كل ما أشرع عن العرب من أدب، زاهبين الى أن
التراث الشعري كله قيم جيد، وأخذين بما ورد في مصنفات
القدامى دون كبير نقد، يتخذ طه حسين لنفسه وقفا
نفديا من التراث فلا يرى كل القصائد التي أئتمتها الرواة
والادباء عن القدامى جيدة حسنة، ولا يمسد كل الاخبار
التي نقلت عنهم صححة، وفي حين أبدى زيدان والرافعي
والزيات اعجابهم بما نسبته الرواة الى امرئ القيس من
شعر، كل على طريقته (96)، ذهب طه حسين الى أن جـ
ما ينسب الى هذا الشاعر من شعر ظاهر الضعف بين
الاضطراب، يكاد التكلف والاسفاف فيه يلسمان باليد (97).
وهكذا فان اعتبار الاديب كائنا عاديها وانتاج النصوص عملا
اراديا يأتي بمقدار الجهد والتعب، يسمح للباحث بأن يمول
على فكره في تناول الادب دون سبقات، وفي الحقيقة فان
الناظر في أعمال المؤلفين العرب يلاحظ أن أصحابها
تدرجوا فيها من الاخذ بالمفهوم الاو للاديب الى المفهوم
الثاني له، تدرجوا في ذلك من ماضي الادب العربي الى
حاضره عندما تشفوا عن بعض الطرق التي اتبعها الاعلام

(96) - يمتاز شعر امرئ القيس بالوصف "البديع" وبرفة اللفاظ
في نظر زيدان. تاريخ... ج I ص 95.96. وبكثرة التشبيهات والاستعارات
في نظر الرافعي. تاريخ... ج III ص 203.204. وبأنه: "جزل اللفاظ،
كثير الغريب، جيد السبك، سريع الخاطر، بليغ التشبيه" في نظر الزيات: تاريخ... ص 48.
(97) - طه حسين: في الادب الجاهلي ص 302.

المشاهرون حتى صاروا أدباء، ويبدو أن ذلك كان على شئ من
العسراة. أعلام الماضي البعيد وتدرجوا من كاتبات
التي آخر منذ مبتدأ القرن العشرين حتى منتهى القرن
الأول منه. باعتبار أن زيدان هو أول من باشر التأليف في
تاريخ الأدب منهم، وأن طه حسين هو آخرهم. وله حسين هو
ومنه الذي عدّ الأديب كائنا عاديا ينتج النصوص الأدبية
في حالات عادية.

3 - التاريخ :

للم يعقن المؤلفون العرب بالتاريخ مثلما اعتنوا بالأدب
في مؤلفاتهم. فلا هم حاولوا تعريفه تعريفا بيانا يظدر
نوعية فهمهم له، ولا هم حاضوا في المسائل التي يطرحها
مفهومه. ولكن الناظر في الأعمال التي أرخصوا بها للأدب
العربي لا يجد أسرار هنا وهناك تدل على أنهم
تصوروا مؤلفاتهم وفق مفاهيم معينة للتاريخ. وبما أننا نقدر
أن لهذه المفاهيم أثرها في تشكيل نظرتهم إلى تاريخ الأدب،
رأينا أن نحاول التعرف على ملامح فهمهم العامة للتاريخ على
ذلك يعرفنا على بعض الأسباب التي جعلت مؤلفاتهم ترد على
الصيغة التي وردت عليها.

يبدو والتأريخ عند المؤلفين العرب أول ما يبدو،
"علما" (98) يتناول بالنظر نشاط الناس المادي والفكري
على أساس التحول والحركة فيه. نستنتج ذلك من قول زيدان:
"لكن أمة تأريخ عام يشمل التطور في كل أحوالها،

(99) - لم يبحث المؤرخون العرب باستثناء طه حسين وفي
التاريخ أعلم هو من العلوم الدفينة أم علم من العلوم التعريضية؟
ولم يتناول أي منهم الشروط التي إذا توفرت في العمل الفكري جعلت منه علما
علميا. ويبدو أنهم كانوا يستعملون هذه اللفظة استعمالا لا يراعي
جوانبها الاصطلاحية أو جوانبها المفهومية.

ويتفرع إلى تاريخ سياسي وأخر اقتصادي وآخر أدبي أو علمي (99) ، ومن زهاب طه حسين إلى أنه يمكن التأريخ لفروع النشاط البشري فرعا فرعا ، فلاد تاريخه ، وللسياسة تاريخها ، وللعلم والفن والمذاهب والآراء تاريخها (100) . ويبدو أن هذا يعني أن كلمة التاريخ تدل في نظر المؤرخين العرب على الملم الذي يعني بحركة معارف الإنسان وأوجه نشاطه في الماضي ، وعلى حركة ذلك العلم نفسه ما دام للتاريخ تاريخه مثلما لسائر الأنشطة تواريخها .

ويبدو أن هذا الفهم للتاريخ ورد نشأ حياثا عند المؤلفين العرب ، إذ أن القدامى لم يعرفوا إلا معنى واحدا للتاريخ هو الذي صنفوا فيه أعمالهم من الأمم والشعوب الماضية ، وعن الملوك والمماليك والعهود والدول . أما تفريع التاريخ إلى تواريخ تعنى بأنواع المعارف نوعا ، وبأوجه نشاط الناس وجهها وجهها ، فلعله وليد ذلك الوعي التاريخي الذي فرضته معطيات الواقع على المفكرين العرب المطربين ، ولعله أيضا ضروري للمؤلفين العرب حتى يتسنى لهم التأليف في تاريخ ، الأدب من حيث هو "علم" مستقل بموضوعه ونهجها . ولكن مؤرخي الأدب العرب ، وإن اتفقوا على فهم التاريخ هذا الفهم الحديث ، سرعان ما اختلفوا في طرق التأليف التاريخي وفتيانته واشتد بينهم الاختلاف حتى تصوف لذلك في أعمالهم اتجاهاً متضارباً .

أما الاتجاه الأول فنلسه في مؤلفات زيدان والرافعي والزيات ، ومن أبرز خصائصه ، في ما يبدو ، أنه أخذ يميل إلى القصر ويعتمد النقل عن القدماء ويفتقر إلى الفكر الفردي أشد الافتقار . ولمن ذلك يرجع إلى أن

(99) - تاريخ ... ج I ص 13 .

(100) - في الأدب الجاهلي ص 54 .

أصحاب هذا الاتجاه قد فهموا التاريخ فهما لم يولوا بمحتوى الترميمات فانصرفوا غنايتهم الى ضبط الاحداث وتحديد أزمان وقوعها محاولين الوقوف على الأوليات . فالتاريخ ، عندهم ، خط زمني تأخذ فيه الوقائع أماكنها الواحدة تلو الأخرى . لذلك حرصوا على التعرف على الرواد الذين اخترعوا الفنون الأدبية أو المعاني الطرفية وعلى أوائل العلوم في نشأتها . ومما يبرهن على ذلك أننا نطالع في مؤلفاتهم جملة كثيرة من قبيل قول الرافعي متحدثا عن تاريخ الادب الاندلسي : "وأما لأولية العلوم فان أقدم ما اشتغلوا بمدارسته من العلوم انما هو الفقه" (101) ، و"قول زبدان : "أول الجمعيات العلمية في سوريا ، الجمعية السورية . . ." (102) ، "وأول من [كتب في المسكن] مـارون النفاش . . ." (103) . وقد عاين البحث عن أولية الاحداث التي البحث عن أسبغية الاعلام في تماطلي الادب والعلوم . من ذلك مثلاً أن الرافعي كتب متحدثا عن الرواية والرواة عند العرب فقال : "أول من قرر شروط الرواية ابن شهاب الزهري . . . ثم كان أول من تكلم في الرواية جريراً وتعديلاً شعبة بن الحجاج . . . ثم كان أول من صنف في هذا العلم القاضي أبو . . ." (104) ، فهذه البحوث عن أولية العلوم وأسبغية الاعلام قد جعل المؤرخين العرب يمتدنون أن التاريخ خط زمني يرتبون عليه الطواهر ظاهرة ظاهرة حسب تتاليها وتمايقها . لذلك كثرت على ألسنتهم عبارات من قبيل : "ثم نبع . . . وجاء . . ."

(101) - تاريخ . . . ج III ص 260 .

(102) - تاريخ . . . ج IV ص 130 .

(103) - المصدر السابق 168 .

(104) - تاريخ . . . ج I ص 313 . 314 .

هـ - ولا ... ثم جاء ... ثم كان * (105) . ثم ان أصحاب
 هذا الانجاء الاول قد اعتمدوا في اعمالهم على مصنفات
 القدماء ينقلون عنها دون تثبت أو تحفيظ ، فهم يسيلون الى
 تمديد كل ما جاء فيها ، واذا وجدوا من ذلك شيئاً
 يتعارض مع المقبول عمداً والى تهريب ساحته العرب مما يلحقه
 ذلك يهتم من عيب بالمقارنة مع مبالغيات الشعوب الاخرى
 ونعلوها في بعض فترات تاريخها بالوهم ، كما في قول
 زيدان متحدثاً عن المرافعات التي تخبرن الطلوف عند العرب :
 " على أن ذلك ليس حاصلاً بالشرييين كما يتهمنا به بعض
 علماء الافرنج ، بل هو يتناول سائر الامم في تلك المصور
 من الهيكل الى المبالغة في رواية الخرائب " (106) ، وكما
 في تعليق زيدان ، والزيات بتعديدي القدس في ما ذهبوا
 اليه من أن المملكات السبع كانت تعلق على جدار الكعبة
 وقد شد في ذلك المعاصرون ، فقال زيدان : " وأي غرابة
 في تعليقها وتعظيمها بعد ما علمنا من تأثير الشعوب
 في نفوس العرب وتعظيمهم لاصحابه " (107) ، وقال الزيات :
 " على أن تعليق الصحائف الخطيرة على الكعبة كانت سنة
 في الجاهلية بقي أثرها في الاسلام " (108) . وقد
 نتج عن فعل المؤرخين العرب على تلك الممنوعات
 القديمة أن جاءت مؤلفاتهم في تاريخ العرب حافلة بالافاصيص
 والاختصار والكيالات بعضها على صله بالموضوع وبعضها
 لا صلة له به . فهذا الرافعي يقول متحدثاً عن النساء
 الشواعر : " وقد جعل المرأة جسمها قصيده مع شعرها
 في التحفيظ ، كالذي في فعلته اثبتاً الفرند الزمان في ،
 فقد قالوا إنه لما اشتدت الوبى يوم التحالق وخفاف

(105) - المصدر السابق ... ج III ص 141 ، 142 ، 153 .

(106) - تاريخ ... ج II ص 299 .

(107) - المصدر السابق ... ج I ص 92 .

(108) - تاريخ ... ج ... ص 34 .

بنو بكر من الفرار، عمدت احداهما الى اثوابهما فألقتهما
عنهما وأثبلت عارية مجردة وجعلت تحض الناس وترتجزز، وفعلت
اختهما مثل ذلك، فتحمس العوم وشبوا يقاتلون قتالا منكوا (109) .
وهذا زیدان يمهّد للمصر الادبي السياسي الثاني فقـول :
" وما يحكى عن استبداد [الأتراك] بالخلفاء أنه لما تولى
السعز قـمـد خواصه وأحضروا المتجمين وقالوا لهم : " انظروا
كم يعيش الحليفة وكم يبس في الخلافة " وكان في المجلس
بعض الطرفاء فقال : " أنا أعرف من هؤلاء بمقدار سره وحلقته "
فقالوا له " فكم تقول أنه يعيش وكم يملك ؟ " فقال : " ما
أراد الأتراك " . فلم يبق في المجلس الا من ضحك (110) . وليس
من شك في أن الاكثيار من مثل هذه الحكايات يجمعون
الاخبار المفيدة تختلف بما ليس بمفيد منها ، وتفقد عمل
المؤرخ أى طابع علمي .

ثم ان هذه الحكايات الكثيرة جعلت اعمال المؤرخين العرب
تفتقر الى التحليل العلمي فهم كثيرا ما يسوقون الاحداث
كما هي في مظهرها الوائمي ، من غير أن يبحثوا عن
عللها وأسبابها أو يحاولوا تبينها من خلالها . من ذلك
مثلا ذكره زیدان في حديثه عن المعول لما فـان :
" وفي أواخر هذا العصر ظهر جنكيز خان القائد
المغولي وحمد على الملكية الاسلامية في أول القرن
السابع فاكسحها وخرب مدنها وأحرق مكاتبها وقتل أهلها
ما لم يسبق له مثل . ومن نسله ظهر هولاكو الذي
فتح بغداد وحرقها وقتل خليفتهما المستعصم سنة 656 هـ . " (111)
هذه الاخبار تفيض اخبارا لا تقدم معرفة بالاسباب والعـلـل
التي تحكم حدوث الوقائع وتفسرها . ويبدو أن بعض هذه

(109) - تاريخ ... III ص 67 .

(110) - تاريخ ... II ص 156 .

(111) - المصدر السابق III ص 9 .

الأخبار لم يذكر لتأييد فكرة أو تدعيم مدعى بـ... ما كان يدكر للتتـ... والتعجب... فعد أكنـ... الرافسي خاصة من التعلق بالعجائب والغرائب طيلة أحزاء مؤلفه الثلاثة (112) .

ومن ملامح هذا الاتجاه أن أصحابه نظروا فيـ... التي نشاط العرب الفكري والمادي في الناصي بهيـ... الرضا... والاعتزاز فأكثر... من تمجيد... وانتصروا للعرب وأطروهم... أطراء كـ... في بعض الأحيان . وإذا واجهوا فيـ... بعض الفترات المالكة المنحطة أكثر... من التوجع أمـ... أو مروا سراعا عليها كأنـ... لا يحق لها أن تذكر . فهذا زينـ... يقول :

" ومما يحسن إرادته لبيان امتياز أصحاب التمدن الاسلامي على سواهم من الأمم الفاتحة ... " (113) ، وهذا الرافسي يحمي الأدباء العرب بالاندلس ويتحسر عليهم فيقول :

" وإن الواحد من هؤلاء ليكفي أن يكون فخر أمـ... فكيف بهم مجتمعين في قرن من الزمن " (114) ، " فيا أسفا على كتب أصبحت أسائرهما تحت راجـ... إلى تفسير " (115) . وهذا الزيات يمر مروراً سريعاً على الفترة الفاصلة بين سقوط بغداد سنة 656 هـ وبين نهاية العصر التركي سنة 1220 هـ ، ولا يتخصـ... أكثر من أربعة عشر صفحة . وقـ... الحيفه فقد كانت كتابتهم لتاريخ العرب كتابة ذاتية وجدائية يطـ... عليها التحيز وإبراز أجداد العرب وإظهار آثارهم .

(112) - قال الرافسي مثلاً : " وأعجب من انشاد حماد الراوية بين يدي الوليد ليلة كالملة (...) ما ذكروا من أن أبـ... المتوكل الهيثم

الاشبيلي ... " تاريخ ... ج III ص 134 .

(113) - تاريخ ... ج III ص 21 .

(114) - تاريخ ... ج III ص 309 .

(115) - المصدر السابق ... ص 276 .

وقد صرح بذلك زيدان عندما جعل الطراء العرب غرضاً من اغراض كتابه (116) . ولكن الاطراء والتمجيد انما بلغ قمته عند الرافعي ان رضى الاندلس ومصر عن العربية فيها وصرح العرب القدما بما تسبب لن مدحهم به أحد سواء .

وكمان من نتائج هذه الذاتية أن اتجه المؤلفون العرب الى صروب المقارنات بين الاداب العربية واداب الشعوب الاخرى اظهارا لمزايا العرب وتمجيذا المظاهر عظمتهم . وقد جاءت هذه المقارنات في شكل أحكام كانوا يلفون بها بدون مناسبة أحيانا كما في قول زيدان : " الشعر العربي أكثره من الشعر الفخائي ، وهو أرقى في العربية منه في سائر اللغات ، وليس في الدنيا أمة تفاهي العرب في شرة الشعر والشعر " (117) وأو في قول الرافعي متحدثا عن القرآن : " فلو أن أعضاء المجلس العلمي الفرنسي لحدونا أرادوا مخاطبة أمتهم التي أرجاها الترف بلبنه (. . .) لما أصابوا في أغراضهم أشد ولا أشكم ولا أبلغ من تلك الآيات " (118) . وجاءت ايضا بمناسبة المفاضلة بين العرب وبين الشعوب العربية كما في قول الزيات : " أخذ الفرنسيون والاسبان عن عرب الإنجيل (. . .) مبروسا شتى من الشعر " (119) .

فإذا الاتجاه ان يبدو وندرجا في اطار قومي دفاعي يفاخر

(116) - قال زيدان بعد أن عدد الاغراض التي رعى اليها غيره من المؤرخين في أعمالهم : " أما نحن فقد أردنا أن نجتمع بين ذلك كله " تاريخ . . . ج II ص 7 . ومن بين الاغراض التي ذكرها لهم : " الاكتفاء بطراء أصحاب اللسنة العربية ومابلغوا اليه من الرضي في معالجة الموضوعات الهامة بالفياس الى الامم الاخرى " . المصدر نفسه ص 6 و 7 .

(117) - المصدر السابق . . . ج I ص 54 .

(118) - تاريخ . . . ج II ص 77 .

(119) - تاريخ . . . ص 315 .

بالعرب ويرد على منتقضيهم فدي ماضيهم، لذلك فأنه يجد فسي
الابتعاد عن النظرة العلمية للاسياء وسياكل لدرك العالمات
التي ارتسدتا أصحابه لانفسهم من كتابة تاريخ الادب العربي .

وأما الاتجاه الثاني، فجدده فدي عما طه حسين . و
نمائضه أنه ينظر الى مصادر التاريخ العربي ومراجعته نظرية
ندية تعتمد الشك في كل شيء ولا تحتكم الا الى العقل .
وأول ما يشك فيه أصحاب هذا الاتجاه هو تلك الاخبار التي
تضمنتها كتب القدماء (120) لافتقار مؤلفيها الى منهج علمي
يحلهم على التحري والتثبت والتحلي بالموضوعية سواء في نقل
الاخبار أو تأويلها (121) .

وبما أن العهود الغابرة في نظر أصحاب هذا الاتجاه قد
غبرت ، ولا سبيل الى التعرف عليها الا من خلال الاخبار والروايات
التي سجلها القديسون ، فان عمل المؤرخ ، عندهم ، إنما يتشبه
في الكيفية التي بها نستطيع الوثائق على السبيل حتى تتم
معرفة . وهذه الكيفية هي التي وصف عليها طه حسين أطال
الوصوف في عمله ، فقال من حيثها عن الادب العربي : " هو ... مصدر
من أصدى مصادر التاريخ اذا عرفنا كيف نقرأه ونفهمه ونخضمه
لناهج البحث العلمي " (122) . واشتد أن سبق العمل
التأريخي جهود كثيرة متفجرة تستكشف الوثائق وتضبطها وتحققها
وتدرسها رسماً منفصلاً ومفصلاً لا حتى يتهاى لمؤرخ الادب أن يستعملها
في استخلاص ما كان عليه الماضي فعلاً لا تصوراً أو تحبيداً (123) .

(120) - في الادب الجاهلي ... ص 64 . 65 . 66 . وهي الصفحات التي

وصف بها على أحدها بالشك المنهجي في تناول المصادر .

(121) - المصدر السابق ... ص 69 . قال طه حسين في هذا الصدر : " لنجتمد

في أن ندرس الادب العربي غير حائليين بتعجيد العرب أو الخوض منهم .

(122) - المصدر السابق ... ص 317 .

(123) - المصدر السابق ... ص 53 . 54 . 55 .

فأصحاب هذا الاتجاه اذن، يستترطون فهم السجل التاريخي،
أول ما يستترطون، ان لا تصدق الوثائق للوهلة الاولى، وأن يقع
تلقّيها بكثير من الشك والتثبت والتحري. ان يمكن للرواة أن
يحطّوا ان لهم يتزيدوا فيها أو يحذفوا منها، وان اسبابها
كثيرة لتدعو الى ذلك. وقد رفاطه حسين على بعض تلك
الاسباب في بحثه مسألة النحل في الشعر الجاهلي.

ويستترط أصحاب هذا الاتجاه، الى جانب ذلك، أن يتجرد
المؤرخ من أهواءه وميوله عند ما يستقبل الوثائق ويسرع
في التأليف، ان التاريخ في هذا الاتجاه وصف، والوصف يجب
أن يكون مجردا من الافكار المسبقة والاهواء السائدة ومن
البداهات. وقد جعل طه حسين من هذا الشرط قاعدة
للبحث اذ قال في قوله: " يجب حين نستقبل البحث عن الادب الربي
وتاريخه أن ننسى عواطفنا القومية وكل شخصياتنا، وأن ننسى
عواطفنا الدينية وكل ما يتصل بها (. . .) يجب الا نتقيس
بشيء، ولا ندعن لشيء الا سناهج البحث العلمي الصحيح " (124) .

وأما الشرط الثالث، في هذا الاتجاه، فهو أن يتجاوز
المؤرخ الوثائق فيظهرها الحدثي الى أسبابها وعللها،
وأن يقوم بالتحليل العميق حتى يدرك الاسباب المكونة للوئاع
ويتعرف عليها، ان الاسباب لا تفترض انما تلتزم بالتماسا. ويبدو
هذا الشرط نتيجة منطقية للشرطين الاولين، فالتثبت من الوثائق
والخضوع الى الحقيقة والحيدة فحسب هي النظريتها، يؤدي الى
التمسك في فهم الاشياء فهمها ينطلق من الظاهرة ويبحث
عن عللها. وقد حاول طه حسين أن يطبق هذا الشرط الثالث
والشرطين السابقين في عمله فكان أن أعطى كتابه في الادب الجاهلي.

ولقد تأثرت أعمال المؤلفين العرب، بهذين الفهمين المنقابليين
للتاريخ تأثرا بالغيا حتى كادت تأتي على طرفي نقيض. فبينما

يمتاز زيدان ومن بعده الرافعي والزيات بكثرة الشعر الشعراء
المعرب ويقول : " يحيل لك أنهم كانوا لا ينطقون إلا بالشعر ،
وكان كل واحد منهم شاعرا أو يفرض الشعر ولو قليلا " (125) ،
يقول طه حسين معلقا على ما كان يعتقده القدماء وبمف
المدحيين من كثرة الشعراء العرب : " ولكن رأيا كهذا لا يلزم
طبيعة الاشياء ، فنحن نستطيع أن نؤمن بأن الأمم تنفاوت حظوظها
من الشعر (. . .) ولكن لا نستطيع أن نفهم أن يكون جميع
من الناس شاعرا كله أو أن تكون أمة من الأمم شاعرة كلها " (126) .

4 - تاريخ الادب :

كان من المنتظر أن يولي المؤلفون العرب تاريخ الادب
عناية بارزة في أعمالهم . فهذا السلم الجديد الذي طه - ر فسي
أروبا ابيان نهضت فيها الامة ووفد على الفكر العربي فيما
رفد عليه من مظاهر المدنية السريعة واسبابها ، في حاجة
شديدة ليس أن يضبط منه المفهوم ويحدد له الغرض ، والى
أن تبين علاقاته بالتاريخ العام وبعض المغلف الاخرى . ولم
قدرة الحاجة شي التي حملت زيدان والزيات وطه حسين على
أن يفتقروا ، فيطيلوا أحيانا الوصف ، على تاريخ الادب وعلى
يطرح مفهومه من فضايا . ومن العرب حقا أن يشهد
عصم في ذلك الرافعي ، فلا يعرف العلم الذي وضع فيه كتابه
ولا يذكر موضوعه رغم أنه انتقد مؤلفات غيره فيه وعابها
بالنقل عن الغربيين .

وبما أن التأليف في سادة تاريخ الادب لا يمكن ألا يتأثر
عسى التأثير بالمفهوم الذي ينطو به أصحابه إليه ، فاننا رأينا
أن نحاول الآ لمصام بكيفية تعريف المؤلفين العرب بهذا العلم الحديث
وبلعايات التي ينتصرون اذراكها منه ، هو نوعية علاقته بالتاريخ
العام عندهم .

(125) - زيدان : تاريخ . . . ج I ص 66 .

(126) - في الادب الجاهلي ص 135 .

أ - التعريف : كان مؤلفي المؤلفين العرب من تعريف تاريخ
الادب على شبه كبير بموقفهم من تعريف الادب نفسه . فقد
عرفوه مدركات عديدة في مواطن كثيرة من أعمالهم ، وقد موا
لته تعريفهم أدهمها عام والآخر خاص ، وقد تجاوز التعريفان العام
والخاص في مؤلفي زبدان والزيادات مثلما تجاوزا من قبل بالنسبة
للادب . وليس من الغريب أن يشبه مؤلف المؤلفين العرب من تعريف
تاريخ الادب موقفهم من تعريف الادب إذ علانية الادب بتاريخه من
طبيعته علاقة العلوم بمواضيعها تنزع الى التماثل في غالب الاحيان
وتشابهه .

1 - التعريف العام : عرف زبدان تاريخ الادب بأنه علم
" يبحث في تاريخ الامم من حيث الادب والعلم ، ويدخل فيه
النظر في ما ظهر فيها من الشعراء والادباء والعلماء والحكام ،
وما دونوه من ثمار فرائدهم أو نتاج عقولهم في الكتب ، وكيف
نشأ كل علم وارتقى وتفرع عملا بسنة النشوء والارتقاء " (127) .
وعرفه الزيادات بأنه " وصف سلسل مع الزمن لما دون في
الكتب وسجل في الصحف ونسب في الاجلار تمبيرا عن
عاطفه أو فكرة أو تعليما لعلم أو فن ، أو تخليدا لحادثة أو واقعة ،
فيدخل فيه ذكر من نبج من العلماء والحكماء والمؤلفين وجبان
مشاربهم ومذاهبهم وتقدير مكاتهم في الفن الذي تعاطوه ليظهر
من كل ذلك تفرع العلوم جميعا أو تأخيرها " (128) .

نستنتج من هذين الشاهدين أن تاريخ الادب قد عرف
بالموضوع الذي ينظر فيه وبالغايات التي يروم مؤرخ الادب ادا ركها
منه أكثر مما عرف بما هيته . فقد اكتفى زبدان في تعريفه
بأن جعله " تاريخا " ولم يزد على ذلك ، واقتصر الزيادات على
نعتيه بأنه " وصف سلسل مع الزمن " . وأما خصائص ذلك التاريخ
ونوعية هذا " الوصف " فلم يمتن أي شذمنا بالوقوف عليها . وليس

من شك في أن هذا التعريف لا يكاد يفيد الناظر فيه بشيء فغزو من قبل تعريف الأسياس بذواتها ولكن زيدان والزيات قد حاولا في التعريفين السابقين أن يحددا تاريخ الأدب بالنظر إلى الموضوع الذي يتناوله، فهو يعنى عندهما بالآثار الفكرية جميعها مذكرا أوقات ظهورها ويندرجنازلهما من الفنون التي تندرج فيها ويصف فوائد هذا وكيفية تفرع بعضها عن بعض (129) وهو يعرفه بالاعلام الفنية أنتجوا تلك الآثار الفكرية فيؤرخ لهم ويبين "مشاربهم ومذاهبهم" (130). وأما الفايعة التي يؤمل البهاس تاريخ الأدب فهي تتمثل في أنه يمكن من التعرف على حركة السارف من حيث نشأتها ورقعها أو تخلفها وتفرع بعضها عن بعض.

ان تاريخ الأدب اذ حسب التعريف العام، علم يعنى بحركة المعارف من خلال النظر في نشأتها وظهور المؤلفات فيحدا والتربية للاعلام الذين وصموها وفي ما كان عن تطويرها أو تفديرها. وقد أثير هذا التعريف في المؤلفات التي انطلق فيهما أصحابها عنه، فجاءت قائمة على البحث في نساء العلوم والمعارف والأداب العربية وعلى تتبعها في مختلف الفترات التاريخية التي مرت بها، وجاءت حافلة بذكر الاعلام في كل علم وفن، فقد حاول كل من زيدان والرافعي والزيات أن يتفقا على تاريخ نشأة العلوم العربية علما علما وأن يعرفا بابرز رجالاته وأظهروا آثارهم في العلوم والمعارف التي تناطوها، وحاول ثلاثتهم أن يتبينوا تطورها أو تخلفها وتفرع بعضها عن بعضها اعتمادا على نانون "النشوء والارتقاء" الذي قال به جميعهم. وأثير هذا التعريف أيضا في مؤلفات تاريخ الأدب عند ما جعل أصحابها يتناولون فيها منتلج العلوم التي عرفها العرب القدامى والمعاصرون ما كان لها صلة بالأدب

(129) - زيدان : تاريخ... ج I ع 14.

(130) - الزيات : تاريخ... م 4.

ومما لم يكدن لهذا به صلبة. من ذلك مثلاً أن زيدان والرافعي
والزيات قد أرفسوا في أعمالهم للادب والادب. والكثير ممن
العلوم ورجالها. وليس من شك في أن هذا العمل يجمد
من تاريخ الادب علماً يشتهر بتواريخ الفكر أو الثقافة أو المساق،
وذلك يندل علي أن تعريف تاريخ الادب هذا التعريف يفتقر إلى
كثير من الدقة والضبط، وأن الأخذ به من به لم يتهينوا بعد
حلوه. ولم يميزوه عن غيره من التواريخ التي تشتهر به.
ولعل البعض منهم كان شاعراً بانعدام الدقة والصحة في
هذا التعريف فأدرج إلى جانبه تعريفاً آخر هو التعريف الخاص.

2 - التعريف الخاص: ليس من اليسير أن نعرف على
مفهوم واحد عند المؤلفين العرب لتعريف تاريخ الادب بمعناه
الخاص، ذلك أن هذا التعريف الذي ذكره زيدان والزيات إلى جانب
التعريف العام مجرد ذكر لا يتفق مع ذلك الذي قدمه طه
حسين واعتمده في عمله فأخلصا تعريفاً.

فتاريخ الادب بمعناه الخاص عند زيدان والزيات: "علم
يبحث عن أصول اللعبة وما انتجته من أجناس أبنائها من بليغ
النظم والشعر في مختلف العصور، وما عرض لها من
أسباب الصعود والهبوط والدثور، ويبحث بتاريخ النابغين من
أهل الكتابة واللسان ونقد مؤلفاتهم وبيان تأثير بعضهم
في بعض بالفكرة والصناعة والأسلوب" (131). وهذا يعني
أن تعريف تاريخ الادب بمعناه الخاص لا يختلف عن تعريفه بالمعنى
العام إلا في أنه لا يجعل من موضوعه سائر العلوم، ويقتصر
على تناول المؤلفات التي تعرف بأنها أدبية على أساس
ما يتوفر فيها من جمال فني. وفي ما عدا هذا،
الاختلاف تظل مراً للاهتمام هي هي لدى مؤرخي الادب
سواء اعتمدوا المعنى العام أو الخاص لتاريخ الادب، فهم
يبحثون في نشأة الفنون الأدبية ويدكرون أبرز أعلامها وأظهر التأليف
فيها، ويستشبعونها في مختلف حالات الرقي والانحطاط التي تمر بها.

وإذا كان طه حسين قد جسد تاريخ الأدب يتناول الآثار الفنية بالنظر فبدلاً متفهماً مدح زيدان والزيادات في تعريفهما تاريخ الأدب هذا التعريف الحاصر، فإن الفهم لم يكن عنده على ما كان عندهم. ذلك أن طه حسين تساءل عن تاريخ الأدب أهو "علم" أم ليس بمعلم، وعمداً إذا كان يقتصر على الآثار الأدبية لا يعتني بغيرها من الآثار وعن الكتابة في مادة تاريخ الأدب ما إذا كان يغدر على تعاطيها الأدباء وغير الأدباء من الشغبيين. وكان من نتائج هذه التساؤلات أن اختلف فهم طه حسين لتاريخ الأدب عن أفهام بقية المؤلفين له.

لقد ذهب طه حسين إلى أن تاريخ الأدب ليس "علماً" من العلل، وليس "فنًا" من الفنون، وأكد على أنه "بحث" فيه موضوعية العلم، وفيه ذاتية الفن. وآية ذلك، في نظره، أن مؤرخ الأدب لا يستطيع أن يعتمد، في إنجاز عمله، على منهج البحث العلمي الحالم، إذ هو مضطر معهما إلى الذوق، ولا يستطيع أن يعتمد في ذلك، على الذوق وحده، لأنه مضطر معه إلى العلم (132). ويبدو أن ذلك إنما يرجع، حسب طه حسين، إلى موضوع تاريخ الأدب، فتاريخ الأدب يتناول جملة النصوص الأدبية الماثرة بالنظر، ولكنه لا يكتفي بذلك، فيتناول معها "أشياء" أخرى لا سبيل إلى فهم النصوص الأدبية ولا إلى تدقيقها إلا إذا فهمت وعرفت تأثيرها فيها وتأثيرها بها" (133). وبناءً على ذلك فإن مؤرخ الأدب يأخذ بالعلم ويحاول أن يكون موضوعياً عندما ينظر في مختلف العوامل التي أثرت في النصوص الأدبية نفسها فينظر إليها من حيث هي آثار فنية لا غنى له عن ملزمة الذوق والاحساس في فهمها.

ويبدو أن ذلك، إنما يرجع أيضاً، إلى طبيعة تاريخ الأدب نفسها. فتاريخ الأدب، عند طه حسين، هو عمل أدبي في حد ذاته،

(132) - أنظر في ذلك "في الأدب الجاهلي" ص 33.

(133) - المصدر السابق، ص 31.

اذ انه يستحيل " أن يؤرخ الادب غير الادبي " (134) ، والسبب في ذلك أن بين الادب وتاريخه صلة متينة صنعت تاريخ الادب من أن ينقصل علما قائما بذاته ، بينه وبين الحياة الادبية من البعد مثل الذي بين التاريخ السياسي والحياة السياسية مثلا ، وجعلت غير الادبي لا يقدرون على أن يؤرخوا للادب ، وبما أن الادبي واحد هم الذين يقدرون على أن يؤرخوا للادب فان " تاريخ الادب هو نفسه ادب لانه يتأثر بما يتأثر به تأثير الكلام من الزوق وهذه المؤثرات الفنية المختلفة " (135) .

وهكذا فان موضوع تاريخ الادب ونوعية متماطيه وطبيعة العمل فيه ، هي التي جعلت طه حسين يعتبر هذا النوع من التأليف " بحثا " ولم يجعله في عداد العلوم أو الفنون . ولكن ماذا يتناول تاريخ الادب ؟

انه يتناول ، في نظر طه حسين ، النصوص الادبية فيؤرخ لها ، ولكنه " يوسع ميدان بحثه ، ويتناول أشياء قد لا يستطيع أن يتناولها من يعنى بالادب من حيث هو أدب في تفصيل و اسهاب " (136) . من ذلك مثلاً أنه يدرس تاريخ السياسة والاقتصاد ، ولكنه يدرسه من حيث هي مكملة لبحثه . " ففهم خمريّة من خمريات أبي نواس يصطبر مؤرخ الادب السى أن يدرس التوحيد واختلاف أهل السنة والممتزلة " (137) . ان مؤرخ الادب اذن يتناول الادب بالبحث التاريخي ، ويركز عليه اهتمامه ، ولكنه يؤرخ مسه كل شيء " حتى يمكن له أن يعوم بعمله على وجهه . (138) .

(134) - المصدر السابق ص 33 .

(135) - المصدر السابق ص 31 و 35 .

(136) - المصدر السابق ص 31 و 32 .

(137) - المصدر السابق ص 31 .

(138) - يجد الباحث صعوبة في استخلاص فكرة طه حسين في علاقة تاريخ

الادب بالتاريخ العام وبمؤثرات التاريخ التي يتفرع اليها لانه يبدو أنه ذهب من ذلك الى الدعوة الى ضرورة الكف عن مزانة الكتابة في مادة تاريخ الادب لما عليه الكتابة في هذه المادة من عسر ومشقة .

وفي هذا هداية هذا الاختلاف فان تاريخ الادب يتناول ، عند طه حسين ، المواضيع التي يتناولها عند غيره من الناقدين بالتحريف العام له . فهو يبحث في نشأة الادب وفي تاريخ طه رر أغراضه وفنونه واتجاهه ومدارسه وفي الظروف التي ساعدت على ظهورها . وهو يؤرخ للنصوص وللأعلام الذين أنتجوها ، ولصلاتهم بعضهم ببعض ، وباتجاههم ، ويدل على الوقوف على حركة سير الاتجاهات الأدبية في ريفها وانحطاطها وتفرعها أو تظلمها . واذ هو بحث في العلوم والمعارف الأخرى ، فانما بحث فيها بالمقصد الذي يمكنه من ادراك تأثيرها في الادب والادب أو تأثيرها بهم .

وقد كان لهذا التعريف أثره الهين في المؤلفات التي اعتمده . ان اقتصر أصحابها فيها على الادب وحده وحاولوا التأريخ لحركته ، واستعانوا في ذلك بشتى المسارف والعلوم . وتأثرت تلك المؤلفات بهذا التعريف أيضا عند ما جاءت قائمة على البحث في نشأة الادب وفي مختلف التحولات التي طرأت عليه . ومن الأمثلة على ذلك أن طه حسين جعل نشأة الشعر النزلي أعوبة ورأى أن أوس بن حجر هو الذي ابتدع تلك المدرسة البهانية المضربة التي سار على أثره فيها زهير بن أبي سلمى وأتباعه .

والمأمل في هذا التعريف ملاحظة لا محالة ، أنه أكثر دقة ومنطقية من التعريف العام الذي ورد في مؤلفي زيدان والزبدات ، وان كان عدده من العلم أو من الفن ما زان سحاطا بشيئ من الغموض ، فقد أصبح تاريخ الادب بحثا مستقيا يتناول موضوعا معينيا أيضا هو والنصوص الأدبية وينتظر منه أصحابه شيئا معينيا هو التسرف على المركزية والتحول في الادب بالاعتماد على دروس نسوبه ودرس الاعلام الذين أنتجوها في علاقاتهم بعضهم ببعض في أعمالهم ومن خلال ما بين تلك الأعمال وبين مختلف الظواهر الفكرية والاجتماعية من دلاته وليس من شك في أن ورود مثل

هذا التعريف بهذا المعنى في أعمال بعض المؤلفين العرب يدل على أن تاريخ الأدب قد بدأ يستقل عند هم بموضوعه وبتدوينه مثلما بدأ من قبل يستقل الأدب عند هم بتدوينه وعقوبته.

فالتعريف الخاص لتاريخ الأدب لم يرد في صيغته البينة إلا عند طه حسين، وهو آخر المؤلفين الأربعة الذين ننظر في أعمالهم. وقد كان الزيات حاول قبله أن يقدم لهذا التعريف صيغة بينة إلا أنه اتجه إلى العمل بالتعريف العام عندما أرح لغير الأدب من مظاهر الفكر العربي وعرف بغير الأدباء من أعلامه المشهورين ويبدو أن هذا التعريف الخاص قد لقي انتشارا واسعا في النصف الأول من هذا القرن في البلاد العربية، إذ كف المؤرخون عن الاختصاص بالمعنى العام لتاريخ الأدب، واقتصروا في ما وضعوا من مؤلفات على التأريخ للنصوص الأدبية مجردة من النصوص العلمية والفنية والفلسفية، وعلى التعريف بالأدباء دون سائر أعلام الفكر العربي (139).

يجدد المتأمل في تعريف المؤلفين العرب لتاريخ الأدب بعنايه العام أو الخاص، أن أصحابه أتوا به وفق نظرتهم للأدب نفسه. فالأدب عندهم هو جملة النصوص الأدبية المأثورة، والتأريخ له هو التأريخ لهذه النصوص وللرحاا الذين أنتجوها. لذلك فإن حدود تعريفهم لتاريخ الأدب هي حدود التعريف الدن ومعهوه للأدب. فان يكون الأدب جملة النصوص الأدبية المأثورة يؤدي إلى فهم التأريخ له على أنه بحث في مواقيت نشأة النصوص وفي تصنيف بعضها اثر بمحض على خط الزمن.

(139) - لقد انشروني ضيف مثلا على النصوص الأدبية وأصحابها فأخ لسا في كتابه "تاريخ الأدب العربي". واقتصر على ذلك أيضا عس فوخ في كتاب له يحمل العنوان نفسه.

والبحث عن مواقيت نشأة النصوص يؤدي بدوره إلى البحث عن نشأة الرجال الذين أبدعوها وإلى ملاحظة الوقوف على نشأة فنون الأدب وأنواعه ومدارسه واتجاهاته. ومثل هذا الفهم يجعل من حركة الأدب حركة تنجم عن نشأة نصوصه وأعلامها وعن انضمام بعض ذلك إلى بعض أنظمة تحكمه حركة الزمن. ويبدو أن هذا الفهم هو الذي حصل المؤرخين العرب على أن يمتنعوا أن يصوروا الأدب الزهراء هي العصور التي شهدت نشأة أكثر عصور من النصوص والأعلام وأن عصوره المنحطة هي تلك التي لم تشهد سوى نشأة نصوص قليلة وأعلام قليلة. لهذا كان تاريخ الأدب بقدر الفهم تاريخ نشأة النصوص الأدبية وتاريخ الأعلام الذين أنتجوها.

وليس من شك في أن فهم تاريخ الأدب هذا الفهم يعوم على أهمان جوانب أخريان في الظاهرة الأدبية قد يغفل تاريخ الأدب ودرسه من تناولها إفادات كثيرة. فهو يهتم بطروف إنتاج النصوص الأدبية وطرق نشرها وإذاعتها في الناس، ويهتم بالجهور الذي يتعامل معها يومئذ كما يهتم بأسباب ذلك التعامل ونوعه والعوامل المنتظرة منه. وهو يهتم كذلك تلك النماذج التي تحتار بها النصوص وتتوخأ بها والتي يتأثر بها الأدب أيما تأثر. ومثل هذا الاهتمام لسبب هذه السواضيق قد يجعل نظرتنا للأدب مقصورة وتاريخنا له مقصورا. إذ التاريخ للنصوص الأدبية وحدها والرجال الذين أبدعوها فحسب يؤول إلى نهاية بسيطة بسيطة بنشأتها وبظهور أصحابها وبانضمام بعضها إلى بعض في خط الزمن. وهي عناينة تقتصر إلى البحث عن عمل الظاهرة الأدبية واستعمالها في المجتمع وتقتصر بالتالي إلى تحليل ظروف نشأة النصوص وطرق حياتها، ومكانتها بين المعارف وعلاقتها بالنظام الاجتماعي والاقتصادي الذي تظهر فيه.

ب - المعجم من تاريخ الأدب : أرى تعريف تاريخ الأدب بالمؤلفين
المرتب إلى الوصف على الأغراض التي كانت لهم من التأريخ
للأدب العربي . فخرى زيدان . لذلك فهي التقديمات التي مهد بها
للجزء الأول من عمله ، وانتهى لتاريخ الأدب فوائد عديدة أبرزها :
" بيان منزلة العرب بين سائر الأمم الراقية من حيث الرقي
الاجتماعي والعقلي من تاريخ ما تقلبت عليه عقولهم وفرائدهم
من تاريخ كل علم من علومهم على اختلاف أواره ، وتراجم رجالات
العلم والأدب " (140) . لكنه ذكر فائدة أخرى جعلها هي العرض
الأساسي من أقدمائه على وضع مؤلفه في تاريخ الأدب ،
فقد انتظر أن يكون لكتابه : " فائدة عظيمة ففلا عن الفائدة
النظرية ، بحيث يسعد على طلاب المطالعة معرفة الكتب الموجودة
ومحل وجودها ، وموضع كل منها وقيمتها بالنسبة إلى سواه
من نوعه " (141) . وقد وقف على هذا الغرض مرارا عديدة
في مواطن كثيرة من محلات كتابه الأربعة ، فقال في الجزء
الثنائي : " ألفنا هذا الكتاب للناشئة العربية وطلاب هذا اللسان
الذين يريدون الوقوف على العلوم وأماكنها المظلمة
أر التأليف " (142) . وقال في الجزء الثالث متحدثا عن مساعدة
أحمد تيمور باشا له في التعرف على المؤلفات العربية :
" وانما نشير هنا إلى عنايته باطلاعنا على كمال ما فيه نفح
للمشقة العربية " (143) . ويبدو أن الوقت على هذا الغرض
بمن هذا الإحاح يدل على أن زيدان انما ألف كتابه
في تاريخ آداب اللغة العربية عندما لمس حاجة طلاب المدارس
إلى هذا النوع من التأليف ، فهو إذن يفسد به إلى غاية
تعليمية لعلها كانت من مقتضيات ظاهرة جديدة في البلاد العربية

(140) - تاريخ ... ج I ص 8 .

(141) - المصدر السابق . ص 9 .

(142) - المصدر السابق . ج II ص 7 .

(143) - المصدر السابق . ج III ص 5 .

بشي طاعة انتشار التعليم النظامي فيه .

وقد كان للزيات العرض نفسه من كتابه في تاريخ الادب العربي ، ان قال في الخطبة التي صدره بها :
" ونحن انما كتبناه لناشئة الادب لا لفحولة " (144) ، الا انه
نقد كتاب له غرض آخر الى جانب خدمة ناشئة المدارس ، وهو
عرض نستنتج منه من قوله : " ان المحافظة على اللبنة وما فيها من
سار البقل والقلب أحد الاساسات التي يبنى عليها الشعب
وحدته ومجده وفخره . فاذا حرمت شعبنا آدابها وعلومها
الجليلة الموروثة فنطمت سبل تقاليد اديبه والتوسيلة حرمة
خصائسه ونظام وحدته ، وفدته الى العبودية " (145) . فلزيات
اذن من عمله غرض قومي يتمثل في الاسهام في الحفاظ على
وحدة العرب وعلى مقومات شخصيتهم وخصائصها ، وفي امانتهم
على الانعاق الفكري .

أما الرافعي فنقد وفقاً لتاريخ الادب مسوقاً غامضاً متضارباً ،
فتاريخ الادب عنده عمل لا غاية له كما ينتج من قوله :
" ومعلوم أن تاريخ العرب لا ينفج صدقه أحدا ولا يضر كده
أحد ، اذا جعلنا من داء النفع x والضرر ما يتبهنه الـ
ففي خاصة نفسه مما يحسن منه أثر النفع والضرر " (146) مهذا
لا تستمداده بهدده الاية : " تلك أمة قد خلت لها ما كسبت
ولكم ما كسبتكم ولا تسألون عما كانوا يعملون " (147) .
ولتاريخ الادب ، في نظره ، غرض شبيه بهذا النقص الثاني الذي
دكره الزيات ، ان هو يـ ومن بأن تغلب الاسم بعضها على
بعض لا ينم بتفكير الافراد واسترقاعهم ولا تغلب الحكومات ،
وانما يتلهم الغلب باندماج المغلوب في جنسية الغالب أو مذهبـه

(144) - تاريخ ... ص 2 .

(145) - المصدر السابق ... ص 4

(146) - تاريخ ... ج I ص 377 .

(147) - المصدر السابق ... المواطن نفسه .

استدراجاً لجنسيته ، ومن أجل ذلك تجهد الامم الفاتمة والمستعمرة
 في نشر لغتهما وآدابهما (148) . وهذا يدل على أن الرافعي
 نشر كتب كتابته في تاريخ الادب من باب مقاومة الغزو الاجنبي
 للبلاد العربية ، وزودا عن كيان العرب المسلمين بواسطة الوقوف
 على آثارهم في الماضي . وأساس طبعه حسين فقد رأى لتاريخ
 الادب غايتين اثنتين ، أحدهما تاريخية صرفة تتمثل في بيان :
 " ما اختلف على [الادب] من أطوار وما عمل فيه من مؤثرات
 متباينة بتباين العصور والبيئات " (149) . فلتاريخ الادب هنا
 القيمة التي لتواريخ سائر الأنشطة البشرية عندما يوفنا على
 الماضي وعلى ما حصل فيه من تحول ، وعند ما يجلي
 عوامل الرقي والسقوط فيه ويظهر عللها وأسبابها .
 والثانية غاية تعليمية ، إذ يهون تاريخ الادب " على طلاب الادب
 درس الادب والتحقق فيه ، دون أن يضيعوا من وقتهم الشيء الكثير
 في تحصيل أشياء لا بد لهم من خلاصتها ، دون أن يتعمقوا
 فيها " (150) ، فلهذا " نافع لعامة المستنيرين لانه يربدهم
 ويقدم اليهم ما يحتاجون اليه ، نافع للطلاب لانه يهتد
 فيهم الشوق الى البحث والدرس ، يعلمهم كيف يبحثون ويدرسون " (151) .

بيد وان من هذه الافوال ، أن لتاريخ الادب عند المؤلفين من
 العرب فرضين أساسيين ، أحدهما هدفوا به الى التعليم
 واتجهوا به رأساً الى طلاب المدارس ، والثاني انتظروا منه ما
 ينتظره المؤلفون عادة من التأليف في مادة التاريخ العام
 أو التاريخ المختص بعلم من العلوم أو بنشاط معين من سائر أنشطة الناس .

(148) - المصدر السابق . . . ج III ص 232 .

(149) - في الادب الجاهلي ص 32 .

(150) - المصدر السابق . الموطن نفسه .

(151) - المصدر السابق . الموطن نفسه .

ولذين المؤلفين العرب وان اتفقوا على أن للتاريخ مذهبين
العرضيين ، لم ينفقوا قط على كيفية ادراكها . فهينما رأى
زيدان والرافسي والزيات أن الفائدة إنما تحصل للطالب من تاريخ الأدب
بتفريب المواضيع والاعلام منه وتمكينه منها بأيسر السبل
وبأضواء العرب وبمدح لغتهم وإظهار جوانب القوة والتفوق في التراث
فانهم عناية بهم في أعمالهم على الترتيب والتصنيف والايجاز
والإشارة إلى المصادر والمراجع ، وعلى ذكر أمجاد العرب
وبيان مظاهر رزقيهم في ما أشرعهم من أدب وفكره
رأى طه . س . أن الفائدة إنما تحصل للطالب بتعليمه مناهج
البحث العلمي وحمله على التفتح على الآداب الأجنبية القديمة
والمعاصرة بذلك يكسبه راحة الأفق ويمده بالخبرة في استكشاف
النصوص وفهمها وتغيير مواطن الجسار فيها . وبينما كان
زيدان والرافسي والزيات يتخذون تاريخ الأدب ذريعة يظهرون
بها أمجاد العرب الأدبية والفكرية في ماضيهم عندما انتصروا
للعرب المسلمين أيما انتصار وادفخوا عنهم وتغنوا بهم
في تعابير من قبيل : " ان العرب أقوى الامم شاعرية وأقدرهم
على النظم في الشعر الخائن " (152) و " العربية تعتبر
أحكم اللغات نظاما في أوضاع الماني وسياسة بالالفاظ ،
وهي من هذا القبيل أعظمها ثروة وأبلغها من حفيظة
التميز من حيث لا تدانيها في ذلك لغة أخرى كائنة ما كانت " (153)
و " الآداب العربية أغنى الآداب جمعا " (154) ، اكتفى طه
حسين بالفائدة التاريخية من تاريخ الأدب وحصرها في اكتشاف
حقيقة الماضي اكتشافا مجردا من الهواء والسيول والافكار
السابقة ، فلم يتعصب للعرب أو عليهم ولم يجعل همه تدعيم
أواستغناءهم ، وإنما حاول أن يبحث عن الحقيقة في إطارها

(152) - زيدان : تاريخ ... ج I ص 58 .

(153) - الرافسي : تاريخ ... ج I ص 227 .

(154) - الزيات : تاريخ ... ص 3 .

المفسون وحجتها الطبيعي ، وأن يعلم القراء كيفية ادراكها بنظر
العلماء العلمي في البحث وبتحقيق المنال في كل ما يملأنا من
الماضي (155) . ويبدو أن هذا الاختلاف قد كان في أصل
ذلك التباين الذي جاء عليه مؤلفات تاريخ الادب العربي فيما
نصير اليه أصحابها من غايات ، وفي الطرق التي ظنوها
توصل اليها . فبعض هذه المؤلفات يأخذ بالهملوى
والهيواداف في تجديد العرب ويختلف بعضها عن بعض في الاغراض
في ذلك . وبعضها الآخر ينزع نحو الموضوعية ويحتكم إلى
المنال ما قدر العقل على ذلك . وفي الحقيقة فإن الناظر
في هذه المؤلفات لا يعدم تدرجاً واضحاً من الغموض إلى
الوضوح ومن اعتماد الميول والاهواء إلى الأخذ بالتجريد
والمعقول . فالغاية من تاريخ الادب انما وردت واضحة بينة
في عمل طه حسين ، ووسائل ذلك هي هذه الغاية وردت واضحة
جليه في عمل طه حيد بن أيما ، والاحتكام إلى العقل ونهذ
المهوى والتحلي بروح السلام ورت صريحة بينة في كتاب طه حسين
كذلك . وهنا أيضاً تدرجت المفاهيم إلى الوضوح والنتقائية
تدرجها في سائر الواضحة السابقة .

ومهما يكن أمر هذا التدرج وذلك الاختلاف فإن حدود
الفهم في الغرض من تاريخ الادب تظل حدود الموضوع الذي
يتمطيه بالبحث ويروم منه ادراك غايات معينة ، فمهما تعمقت
العوارق بين نظر هذا ونظر ذاك إلى تلك النهايات السوسنة
تظل طرق بلوغها كاشنة في التأريخ لنشأة الادب ونشأة نصوصه
ونشأة رجاله ونشأة أغراضه وفنونه ومدارسه ، وهي
طرق لم يختلف المؤرخون العرب بعد في ضائتها .

ج - ملائة تاريخ الادب بالتاريخ العام : رأينا المؤلفين
العرب يأخذون في أعمالهم بهذه النظرة الحديثة التي تجعل من

التاريخ تاريخاً عاماً يتفرع إلى تواريف كثيرة في حدود
مظاهر النشاط البشري بوجهه المادي والفكري (156). فالتاريخ
العام عندهم يتناول سائر أحوال الأمة. أما التواريخ التي
تتفرع عنه فتتناول الاقتصاد حيناً والسياسة حيناً والفنون
والادب والمذاهب أحياناً أخرى. وعند مادتهم مثل هذه
النظرة إلى البحث في مثل بين فروع التاريخ العام مثل علاقات
وفي ما بين كل منها وبين التاريخ العام من صلة. ويبدو
أن زبدان إنما كان واعياً بهذه المسألة عندما كتب: "والتاريخ السياسي
إن لم يشمل تاريخ آداب اللغة، كان تاريخ حرب وفتح وسفك
وتعذيب واستبداد، إذ لا يستلزم الوصول إلى فهم حقيقة الأمة
أو كنه تمدنها أو سياستها إلا بالاطلاع على تاريخ العلم والادب فيها" (157).
إن التاريخ الأدبي إذن بحسب زبدان، ضروري للتاريخ العام لا يمكن
لده بأية حال من الأحوال أن يستغنى عنه.

ويظهر أن سائر المؤلفين العرب قصد اتجاهه الوافي لا يثتم
عن علاقة التاريخ الأدبي بالتاريخ العام إلى شيء من المفاضلة
بين فروع التاريخ. فتاريخ الادب وإن كان لازماً للتاريخ
السياسي يتبعه في الصدور والهبوط وحسب الزيات، فأنه
يسبغه في الظهور والتأثير ويصدر له، إذ تسبق الثورات الفكرية
الثورات السياسية فسي نظره (158). وتاريخ الادب الذي يشترح
علل الأحداث وأسبابها في نظر زبدان وعند غيره عن ذلك
مرات عديدة في عمله كما في قوله: "فإذا نظرنا تاريخ أمة
وعرفنا ما توالى عليها من الأحوال السياسية والإدارية والاقتصادية
والاجتماعية، واستدركنا أسباب تمدنها وريقها وتدهورها وسقوطها،
مهما علمنا من ذلك كله، فإن الأسباب لا تزال غامضة حتى نعلم

(156) - راجع في ذلك الصفحات 8 و 90 من هذا العمل.

(157) - تاريخ ... ج I ص 13

(158) - الزيات، تماريخ ... ص 5.

تاريخ علوم الأمة وهو تاريخ عبولها وتاريخها، فتتجلى لنا
المواضع الأصلية في أسباب ربيعها وسقوطها (159) على
أن هذه المضامض بين فروع التاريخ الدام سرعان ما تحولت على
يد حسيين، إلى شيء من التكامل بينها، ذلك أن طه
حسين رأى أن فروع التاريخ في حاجة بعضها إلى بعض أن
تدرك بعضها، يكمل ذلك، وأن حياة الإنسان، وشده، كما كانت
فقط مجزأة إلى أغسام منفصلة بعضها عن بعض، لذلك ذهب
إلى أن مؤرخ الآداب في حاجة إلى أن يدرك تاريخ السياسة
مثلما يدرك السياسة في حاجة إلى دراستاريخ الآداب أو
العلوم، إذ يتعذر على مؤرخ الآداب أحياناً أن يفهم الموضوع
الذي يؤرخ له ما لم يلم بتاريخ موضوعات أخرى كما
يتعذر أحياناً على مؤرخي الموضوعات الأخرى أن يفهموا
مواضيعهم ما لم يلموا بتاريخ الآداب، ولكن كل مؤرخ عنده
أنما يهتم بموضوعه أولاً وينظر في تواريخ الموضوعات
الأخرى من حيث هي مكملات لموضوعه تعينه على فهم
سيره التاريخي. وهكذا للمؤرخ المسألة في نظره
سألة داخلية وإنما أصبحت مسألة حاجة متبادلة تتمثل
بمقتضاها فروع التاريخ بعضها ببعض، ويبدو لهذا التسويع
لهذه العلاقات بين فروع التاريخ الدام على غاية من الأهمية،
أن هو يفتقر على تلك النظرة الكبيرة التي شغلت الباحثين
طويلاً وما زالت تشغلهم والتي تتمثل في مدى صحة التعويض
على النصوص الأدبية في استخلاص الأحداث التاريخية، فبدأ
رأب المؤرخون على التعامل مع النصوص الأدبية تعاملهم مع
سائر الوثائق المكتوبة وغير المكتوبة في إعادة بناء التاريخ.
ولم يكن هذا التعامل ليخلو عن عيوب، بل أهمها تلك
التي تتشغل في انصراف المؤرخ عن ذلك الوجه الفني الكامن
في النصوص الأدبية والذي عدت به أدباً. فالمؤرخ لا ينظر
عادة إلى النص الأدبي على أنه وثيقة يستنتجها بالكيفية نفسها

وقد يلجأ بعضه وتقدم يتأخر عنه كما يسبق الفروع الأخرى
أو يلحق بعضها أو يتأخر عنها ، ان التاريخ العام يهوى توارىح
عديدة منفصلة بعضها عن بعض . وهذا هو الفهم الذى
بدأت الابحاث الان تدعو الى تجاوزه ، والتاريخ عندنا تاريخ واحد ،
وما كان يعد فرعاً له ليس عندنا أكثريته من وجوهه .
فحركة التاريخ في نظر الابحاث الان هي حركة واحدة
كلية تتجلى في وجوه عديدة بعضها اختياري وبعضها
اجتماعي وبعضها ثقافي ، وعلاقات هذه الوجوه المتعددة
ليست علاقات خارجية لاشياء منفصلة قائم كل منها بداته
وانما هي علاقات داخلية متشابهة يدفع بعضها بعضا ويجبر
بعضها بعضا فتتجلى حركة عامة كلية هي حركة التاريخ .

تلك هي معظم المفاهيم الكبرى التي انطلق منها
المؤلفون العرب في وضع أعمالهم . ويبدا ان مفهوم
الادب وتاريخه هما اللذان حظيا بالتوسط الاوفر من عنايتهم .
ولعل ذلك يرجع الى أن مفهوم الادب يطرح فعلا قضايا عديدة
تلتزم المؤرخ بالاطاله في علاجها ، والى أن مفهوم تساريخ
الادب كان نظرا لجذوته وحدائته ، يتطلب كثيرا من التوسيع
والدقة في خطه وتحديد مدلوله وفتيات العمل فيه .
ولكن استثناء هذين المفهومين بالحظ الاوفر من عنايتهم
المؤرخين العرب ، لم يصبرهم عن الرفوف على مفاهيم
أخرى وعرفنا عرضا أو مفصلا دل على وعيهم بخطورة
السائل المفهومية في مادة تساريخ الادب . فكانت
مؤلفات تساريخ الادب العربي تستند الى مفاهيم معينة
كثفت نظرية المؤلفين الى الادب والادب وتاريخ الادب والتاريخ .

وعلا اتممحت عنايتهم المؤرخين العرب بالمفاهيم بالتدرج
من السوممية والعموم والاضطراب الى الخصوصية والوضوح والدقة .
متسدد انطلق زبدان والرافعي والزيات من ذلك الفهم الذى
يطلق لفظة الادب على جملة النص ومماثله أدبية كانت
أو علمية ، وجعلوا التساريخ له تأريخا للظاهرة الفكرية

فهي سمها واتساعتها ، ورأوا في الاديب كائنات خارقة للسألـوف
يبدع انتاجها فـيـن العادة ، وأخذوا بالميقول والاهواء في الطـرـا
السرب وتمجيد ماضيدم . ولم يكن هذا الفهم وحده هو الذي تقـوم
عليه مؤلفات المؤرخين الثلاثة ، فقد ترفـفـر في بعضها التي
جانبه . فـهم آخر هو الذي استند اليه عمل طـه حسين . فقد
انطلق طـه حسين من حصر مـنـسـي الادب في مآثر الكـلام شـعـر
ونثـرا وذهب الى أن تاريخ الادب " بحث " يختص بالجمع بين موضوعية
العالم وذاتية الاديب ، وندـزل بالاديب من منزلة الرفيعة التي
يتوى الناس العاديين ، واعتبر انتاجه عملا عاديا ينصرف اليه
فيبدع فيه أولا يبدع ، ودعا الى التجرد من العواطف والاهواء
عـدـر الا مكان في معالجة المسائل . فكان من نتائج هذا التدرج
أن بدأ الادب يستفـل بفهمومه وأن بدأ تاريخ الادب ينفرد
بموضوعه ، وأن تحددت مفاهيم أخرى كثيرة وصارت على حـال
وافر من الموضوع .

ولكن هذا التدرج لم يكن ، في جوهـره ، أكثر من تمدد
عـيـم أحيانا لمطيمات أصلية طلـت هي هي سـواء في أعمال
زيدان والرافعي والزيات أو طـه حسين . فقد ظل الادب عند
هؤلاء المؤلفين الاربعة يـلـق على النصوص المأثورة بـكـار
لابـنـجـارزها الا الى الاعلام الذين أنتجوها ، وطـس الادب مرآة يـلـ
ما حبه و يـصور عـمـره عند أريعتهم ، و ظل جـمـال النصوص الأدبية
جـمـالا مـلـفـا يـتـجـه الى كـل الناس ويشعر به كـل الناس ، و ظلـت
علاقة الادب بالمجتمع علافة شطاعين منفصل كل منهما عن الآخر
انفـسـالا يـنـسـان معـه ثـمـاطا من علامات التأثير والتأثر و طـلـ
التاريخ تاريخا عـمـاما يتفـرع الى تـواريـح كـثـيرة منفصل بعضها
عن بعض . يـبـدو أن هـذه المفـاهيم كانت ثابتة عندهم
حـمـيـما لا يـخـتـلـفـون الا في بعض الجوانب الثانوية
والثانوية جـدـا فيـها ، وهي مفاهيم سمى بها طـه
حـسـيـن السـ الوضوح والجلال وقبـلـم لها صيغها البينية
التي انتشرت لها من بعد كثيراً عند جمهور واسع من الباحثين .

وفد نتج عن هذه المفاهيم أن كان تاريخ الادب عند هـ.م
مبنيًا عملاً يبحث في نشأة النصوص الادبية ونشأة الادب ونشأة
الاغراض والفنون والمدارس فيه، وفي تصنيف بعضها اثر
بعض علي خط الزمن. وهنا أيضا لم يختلف المؤرخون السرب
الاول جزئيات لا تنس بالمعنى العام، وكان التدرج يسير الى التخلص
من السلبيات تحلها تدريجيا كلها تغذي بروح الملهم. لهذا لم
يكن عمل طه حسين، وفي الحقيقة، سوى تهذيب لمعطيات
عامّة ضلت هي هي عمده وعند غيره من المؤرخين السابقين.

ولعمل بناء المفاهيم هي عند هؤلاء المؤرخين الارمسة
هو الذي جعلها تشترك في الافتقار الى التخلص من الحدود التي
قيدتها بالنصوص الادبية وأعلامها، فلم تخرج عنها الى المنايا
بالظاهرة الادبية في كل مظهر علمي واستعمالها، فلم يتسألوا عن
الاجابة التي تكون الادب بمقتضاها، ولا عن مقاييس انتقاء النصوص
الادبية ومعايير الحدود فيها، ولا عن حياة النصوص في
مجتمعاتها وفي غير مجتمعاتها، ولا عن الجمهور الذي ينشأ
وعن طرق انتاج النصوص وطرق اذاعتها ونشرها. فالاعتناء بنشأة
النصوص ونشأة الاعلام جزء وليس له جزء صغير من كل يدوني
حاجة الى الفهم حتى نفهم هذا الكائن الذي يدعى أدبا.

واذا كانت هذه هي المفاهيم التي انطلق عنها مؤسسو
الادب العرب في الربع الاول من القرن العشرين، فماذا كانت المناهج
التي اظنموها في التأريخ للادب العربي.

القسم الثاني

المادة الأولى

١٠٠ - وضع زيدان للجزء الأول من عمله مقدمات عديدة عرف فيها بالآداب
والتاريخه ووقف على ما في ذلك من نوايا مفهومة و منهجية ،
واستعرض تاريخ الآداب اليونانية على أنسه نموذج تقاسر عليه
تساريف سائر الآداب . انظر كذلك تاريخ . . . ج I ص ٣٠٠ . ١٣٠ .
١٩٠ . ٢٠٠ . ثم عار الس بعض من هذه النوايا في مقدمات
أخرى وضعها للجزء الثاني ، و تناول ، من بين ما تناولـــــــــــــــــه ،
شروط التأليف ومعناه وغاياته . راجع في ذلك تاريخ . . . ج II ص ٥
و ما يليه .

(2) - تاریخ... ج ۱۱ ص ۵۶۵.

التيبيرة التي توصف فيها عادة العدميات والتسميات. وهذا
الرافضي يصف الطريقة (3) التي انتهجها في كتابه: "تاريخ آداب
السرب" فلا يكتفي بذلك، بل يمدد إلى المؤلفات التي سلطته
فيبين مبلغ أصحابها "من العلم" (4) فيما أخذوا به فيها من
خطأ ويطرح ويرخصه في حيل المنهج تفاداهما أمر من
الزيادات بقوله: "أثرتنا أن نجاري كثرة كتابنا فلي تسميه
تاريخ الآداب إلى خمسة مصور" (5) ويبلغ بها طوله حيل نملة
العنف في كتابه "في الآداب الجاهلي" يمدد واذن أن تميزه
هؤلاء الكتاب لأعمالهم لم يكن من قبيل ذلك الكلام الذي كثيراً
ما يتجده فيه صاحبه بالخطاب إلى القارئ يهديه به إلى أظهر
حوائضه وأبرز سمائيه لأن ما حاطه فلي المؤلفات العربية من
حدال لا يخلو من عنف يدل على أن لأصحابها وعيا بمسألة
المنهج وأساسها بخطورة القضايا فيه.

1 - الوعي بالمسألة :

جاء الوعي بمسألة المنهج في مؤلفات تاريخ
الآداب العربي متفاوتا في العمق والشمول. فبينما عرض زيدان
على القارئ طريقتي (6) في التأريخ للآداب أحدهما تأخذ فيه
بالنسبة إلى "مصور" زمنيته والآخرى تتناول منه حسب "العلوم"،
اقتصرت الزيادات على الاكتفاء، وفي مواجهة المسألة، بحاراة
"الكثرة" (7) من سابعه في انتهج سبيل التفسير الذي
(3) - افتتح الرافضي كتابه في تاريخ الآداب العربي بخطبة مسجوعة أشار
فيها إلى بعض الحوافز التي حلت به على التصدي إلى التأليف في هذا الموضوع.
ثم وضع مقدمة نظرية مهد بها له وركز الكلام فيها على نقد المناهج
التي أخذ بها معاصروه في رفع مؤلفات لهم في هذه المادة. تاريخ... ص 17.
(4) - المصدر السابق. الموطون نفسه.

(5) - تاريخ... ص 5.

(6) - تاريخ... ص 9.

(7) - تاريخ... ص 5.

مصور في تاريخ الادب العربي ، وفي حين استعمل الافي
عنه بـ " كلمة " (3) لعل فيها الاسباب التي دعت الى أن
يقلع عن نهج . نفلها ، حسب ، " الصيغة " عن موضوعات اللغات
الاجنبية " (4) وذكر العوامل التي حملته على أن يلتمس منها
آخر رأه أوفي بالادب العربي وتاريخه ، خصص طيه حسي سواطن
كثيرة من كتابه " في الادب الجاهلي " لسألة المنهج فأشبهها
درسا وتحليلا .

ولعل أبرز ما يظهر التفاوت في وعي المؤلفين
العرب بمسألة المنهج أن كلمة " منهج " نفسها لم تسرد
صريحة بلفظها الا في عمل طه حسين . فقد استعمل زيدان
والرافعي في الدلالة على ذلك كلمتي " الطريقة " (10) حينما
و " الخطه " (11) حينما أحمر . و اذا كان الزيات قد استعمل
كلمة " منهج " في التعبير عن طريقة الوضع في تاريخ الادب ، فانه
استعملها بعد مضي خمسة وأربعين عاما على ظهور
الطبعة الاولى له لعل كما يظهر من الناحية التي
صدره بها (12) .

ولكن هذا التفاوت لم يمنع مؤرخي الادب العرب
من أن يثيروا قضايا عديدة من تلك التي تنهض شائكة في
تاريخ التأليف في مادة تاريخ الادب ، ولعل ذلك يرجع الى
ما كان لهم من وعي بخطورة مسألة المنهج في تناول

(8) - تاريخ ... ج ١ ص 17 .

(9) - المصدر السابق ص 17 . انظر الاضافة التي وضعها الرافعي في
أسفل الصفحة .

(10) - زيدان : تاريخ ... ج ١ ص 9 .

(11) - الرافعي : تاريخ ... ج ١ ص 17 و 24 .

(12) - ذلك ما نستنتجه مما استعمل به الزيات كتابه
بعد خمسة وأربعين عاما من ظهور الطبعة الاولى حسب
عبارته . تاريخ ... ص 2 .

التسويات. ولكن مما كانت مظاهر هذا الوعي في أعمالهم ؟

أ - هذا - ~~ظواهر الوعي بالوعي~~ : كان للوعي بمشكلة
السنج في أعمال مؤرخي الادب العرب على ما يبدو،
مظاهر عديدة ومتنوعة تمثل بعضها في تلك الحجج التي
ميزوا بها مؤلفاتهم عما فقد يشتمل بها من المؤلفات
الغديسة والحديثة، وتمثل بعضها الآخر في ذلك الجردان
الذي قام بهم حول السنج، وفي ما شفقوا به اختياراتهم
المنهجية من مبررات.

ولعل أول هذه المظاهر هو ذلك الذي نتج عن
اعتبار بعض المؤرخين العرب " تاريخ الادب " علما حديدا
لم يهتم اليه العرب القدماء على ورة ما صنعوا من تأليف
واكتشفوا من علوم (13) . ان رأينا كهذا يصطدم بكتب
" التراجم " و " الطبقات " ولسا بينهما وبين التأليف في هذا
العلم الجديد من شبهة خاصة أن فيها ما فيه من تراجم
الرجال وتعريف مؤلفاتهم و وصفها (14) . لهذا كان
على المؤلفين العرب أن يففروا على أوجه الفرق بين كتب
" التراجم " و " الطبقات " وبين تاريخ الادب تحببا للخلط بين
هذا العلم الجديد وتلك المصنفات القديمة. وقد فعل
زيدان والزيات ذلك، فأكد الاول أن كتب التراجم : " لا يصح
أن تسمى تاريخا لادب اللغة بالمعنى المراد بالتاريخ اليوم " (15) ،
وعلى الثاني هذه الفكرة بعولها انها : " احبار مفردة غير مرتبطة لا تظهر
ما بين الشعراء أو الكتاب من علاقة في الصناعة والحرص والاسلوب ولا
تذكر ما عدا النظم والنثر من تحو وتقلب " (16) . وهكذا فإن افتتار

(13) - حسب ما ذهب اليه زيدان : تاريخ ... ج I ص 7 و 8 . ومرد

عاد الى الفكرة نفسها مرات عديدة في نضايف اجزاء كتابه الاربعة .

(14) - المصدر السابق ص 7 .

(15) - المصدر السابق ص 8 .

(16) - تاريخ ... ص 4 (انظر ذلك في الاضافة بأسفل الصفحة) .

كتب "التراجم" و "الطبقات" الى منهج ينظم موضوعاتها على أساس الحركة والتحول فيها هو الذي تعدد بها ، فهي نظير المؤلفين العرب ، عن أن تكون من "تاريخ الادب".

ولكن تاريخ الادب لم يكن عند المؤلفين العرب علما حديدا على الفكر العربي فحسب ، بل هو أيضا علم حديث لم يكن معروفا عند الافرنجيين قبل نهضة النهضة في التسعينيات (17) ، فقد ابتدعوه ، وفي نظر البعض منهم ، الايطاليون في القرن الثامن عشر (18) ، وكان المستشرقون أول من كتب فيه عن اللغة العربية (19) ، ثم أخذ به العرب فوضعوا مؤلفاتهم في تاريخ الادب العربي . وقد انجز عن حادثة تاريخ الادب وعن أجنبيته وعن سبب المستشرقين العرب الى الوضع فيه عن الادب العربية ، أن اهتم المؤرخون العرب في الآن نفسه باستعراض طرق الوضع في تاريخ الادب لعناية التمييز بها ، ويتميز أعمالهم عن أعمال العربيين حتى لا ترمى التاليف الى الرتبة في هذا "العلم" الحديث بالنقل من المستشرقين نفلا أمينا . ويبدو أن زيدان هو الذي اعتنى بهذه المسألة أكثر من غيره من المؤلفين العرب ، فقد قال بتساويه آداب اللغات القديمة والحديثة ، وأكد على أن اليونانية منها أفضل نموذج لآداب العالم تقاس على تاريخها . نواريز سائر الادب الروبية . وكتب في مجلته "الهلل" بمسألة الرد على رسالة جاءته من مدينته جبر صومط ، بعد أن ذكر مؤلفات المستشرقين في تاريخ الادب العربي : "أما نحن فقد نهجنا في تفسير كتابنا منها حديثا مبنيا على تغلب الاحوال السياسية والاجتماعية (. . .) وفسمنا العصر العباسي أو الدولة العباسية الى أربعة أروار أو أعصر يتباين كل منها بصفات متركة من حيث السياسة والاجتماع

(17) - زيدان : تاريخ . . . ج 1 ص 7 .

(18) - الزيات : تاريخ . . . ص 4 (ورد ذلك في الاضافة أسفل الصفحة) .

(19) - زيدان : تاريخ . . . ج 1 ص 7 .

والعلم والادب كما تراه في مكانه من الكتاب، ولا نعرف
أحد فعل ذلك قبلنا (. . .) فهذا التفسير وإن كان الاستاذ
برولمان انتحجه في كتابه، ولكننا خالفناه في طريقته
بحيث أصبح أكثره خاصا بكتابنا (20). فزيدان أن يؤكد
بشيء من الالتجاء على أن منهجه يختلف من منهج المشرعين
في التاريخ للادب العربي سواء في المقدمات التي مهد بها
لجزء مؤلفه أو في المقالات التي تحدث فيها عن كتابه.
و قد حرج الرافعي، من جهة أخرى، عن منهج التفسير إلى
عصور في تاريخ الادب لأنه، وفي رأيه، من مبتدعات المستشرقين من
علماء أوروبا (1) .

وهكذا فإن القول بأن تاريخ الادب علم جديد و حديث
قد جعل المؤرخين العرب يحاولون تمييزه عن كتب التراجم
والطبقات القديمة، ويهتمون بتخليص مؤلفاتهم مما قد
تضمن به من نقل عن المستشرقين. فكان أن دعاهم
ذلك إلى أن يعوا مسألة المنهج ويشعروا بخطورتها في
تكييف الأعمال و تناول المسألة و صيغ.

على أن للوعي بالمسألة مظهر آخر يبدو و على
صلة متينة بما ذهب اليه المؤلفون العرب من أن تاريخ الادب
علم جديد و حديث، وهو مظهر يتشال في ذلك الجدل
الذي قام بينهم حول أي المناهج أنفع وأجدى في التاريخ
للادب العربي. وقد جاء هذا الجدل متفاوتا شديدا
التفاوت في مؤلفات العرب، فهو يقل و يضعف في علي زيدان
والزيات إلى حد الامحاء، وهو يفسو، و يشتد إلى حد
المنفأحيانا في علي الرافعي و طه حسين .

و يبدو أن الجدل حول المنهج قد انطلق بينهم عندما
نشر الرافعي الجزء الأول من كتابه " تاريخ آداب العرب " سنة

(20) - الهلال : مجلد السنة 20 بتاريخ أفريل 1912 ص 502 . 503 . 504 .

(21) - تاريخ . . . ج II ص 18 .

1911 ، لانه لم يرد شيء منه في المقدمات السديدة التي مهد بها زيدان للجزء الاول من عمله وقد رأينا أنه سبق عمل الرافعي في الظهور ببعضه أشهر على ما ذكره الريان . ومما يؤكد هذا الفهم أن المقدمات الثانية التي مهد بها زيدان للجزء الثاني من كتابه ، وقد ظهر سنة 1912 ، هي التي تضمنت بعضا من ذلك الجدول .

ويبدو أيضا أن هذا الجدول قد انطلق من صلة منهج التفسير إلى علم هو والدرا أخذ به زيدان في عمله ، بمناهج تاريخ الآداب العربية ، إذ الرافعي إنما وقع ضد استعمال هذا المنهج في الآداب العربية لانه ، في نظره ، ليس أكثر من نقل ظاهري عن المستشرقين (22) . لذلك رمى أصحابه " بالجهل " (23) ونعت طريقتهم " بالعنف " (24) وسببه أعمالهم بالثياب المتداخلة " كلما حيكت من ناحية تهافتت من ناحية " (25) . وقد حمل الرافعي على أصحاب هذا المنهج هذه الحملة لانهم في رأيه جعلوا تاريخ الآداب العربية " حملة " (26) على تاريخ " آداب اللغات العجمية " (27) .

ولكن الجدول ، وإن بقي في حدود العناية ، بالمنهج ، فقد شمل مفهوم الكتاب والكاتب وطريقة التأليف واللغة المستعملة فيه والفرع الذي يرمي إليه المؤلف من الكتابة عامة . من ذلك مثلا أن زيدان دعا إلى ضرورة مراعاة المصلحة العامة في الكتابة ، وعدم الكتاب الذين إذا كتبوا

(22) - المصدر السابق . الموطن نفسه .

(23) - المصدر السابق . ص 21 .

(24) - المصدر السابق . الموطن نفسه .

(25) - المصدر السابق . ص 14 .

(26) - المصدر السابق . ص 18 .

(27) - المصدر السابق . الموطن نفسه .

أظهروا بسراعتهم واقتدارهم على استعمال اللفاظ "المويمة" (28)
فحسب شاذين عن عصرهم "يحسبون اللغاة وقفا لا يحل
بيده أو التصرف فيه" (29) .

ولعل الجدال حول المنهج لم يبلغ أقصى الحدة
والعنف ومنتهاى الشمول والتعمق في معالجة السائل
الاصح طه حسين ، ذلك لأنه حمل على المناهج المتعارفة في
تاريخ الادب العربي بمصر ونعت أصحابها بالوان من
التعابير أصبحت تضرب مثالا على سيرة العارضة والعنف (30) ،
وصف في عمله على أغلب السائل المنهجية التي تطرحها
الكتابة في مادة تاريخ الادب ، فبحث في مفهوم الادب ونظر
في المتاييس التي تطرح في درسه ، وعرف بالبحث التاريخي
وعين مراحل له ، فجاء كتابه "في الادب الاحلي" مؤلفا
يعنى بالتفكير في المناهج أكثر مما يعنى بأي شيء آخر .

لم يكن هذا الجدال اذ ان ، في ما يبدو ، مجرد
ممركة كلامية قد تحدد تفسيرها باندرجاهها في مرحلة من
الكتابة لعلها اتست بكثرة المعارك الادبية ، لانه في صلبه
تلك بالمنهج ، يدل على أن للفهوم شعورا حادا أحيانا بخطورة
نصية التأليف في موضوع تاريخ الادب ، واناسا يتشعب
المشاكل فيه .

(28) - تاريخ ... ج II ص 5 .

(29) - المصداق السابق . الموطن نفسه .

(30) - قد لا نحتاج فضلا ، ولما أشرنا سابقا ، الى الاحالة على مواطن
من كتاب طه حسين "في الادب الاحلي" لاثبات ما خالط حيلته
على المناهج القديمة وأصحابها من ضعف شديد . قال على سبيل
المثال : " فقد استطيع أن يجمع أن يعدوا حتى يصلوا
الى السماء السابعة ، وان يهبطوا حتى يصلوا الى الارض السابعة
دون أن يفنوا غير أنفسهم ... " ص 183 . 184 .

و من مظاهر وعي المؤلفين العرب بمسألة السهج ذلك التبرير الذي شفعوا به اختاراتهم المنهجية . فقد كانت سادسة المنهج كثيرا ما تنتهي بهم الى اختيار أحدها واعتباره أجدى من غيره و أوفى بالحاجة منه في التأريخ للادب العربي . من ذلك مثلا أن زيدان ، بعد أن ناقش وحوها من التأليف في تاريخ الادب اكتفى فيها أصحابها " بتراجم العلماء والشعراء وامثلة من أفوالهم يبدون التعرض لكتبهم " (31) أو اقتصروا على " اطراء أصحاب هذه اللغة وما بلغوا اليه من الرقي في معالجة الموضوعات الهامة " (32) أو أخذوا بالتقسيم الى عصور أو عصور ولم يتجسأوزوا في تأريخها " مجرى التاريخ العام عليها " (33) عمد الس تبرير اختياره المنهجي فرأى أن الطريقة التي اتبعها تمكن القارى من الاطلاع على تأثير التقلبات السياسية في الادب والمعلوم ، و من التعرف على تراجم العلماء والادباء وعلى ما خلفوه من كتب ، و من فهم سير حركة الادب العربي عبر العصور التاريخية التي تداولت عليه (34) . و من ذلك ايضا ان الرافعي ختم نقده لمنهج التنسييم الى عصور بأن اقترح طريقة التنسييم الى " أبحاث " (35) لانها عنده أكثر تلاوفا مع طبيمة الادب العربي ، هذا الادب الذى صمى عليه أربعة عشر قـرنا من الزمان ولم يأت فيه أصحابه بشي " يضا هي أدب الجاهلية في بلاغته وفصاحته ، ولانها ، في نظره ، أفيـد في التدرفـة على حركة الادب اذ هي " تخصص الادب بالتاريخ لا التاريخ بالآداب " (36) . و من ذلك أخيرا أن طه حسين اقتـرح

(31) - تاريخ ... ج II ص 6 .

(32) - المصدر السابق . المصـدق نفسه .

(33) - المصدر السابق الموطن نفسه .

(34) - المصدر السابق ص 7 .

(35) - تاريخ ... ج I ص 24 .

(36) - المصدر السابق . الوطن نفسه .

المنهج التاريخي الذي يقوم على الشك في ما حدث به
القدماء عن الادب العربي (37) ويعتمد التقسيم الى مدارس فنية
في تاريخ الادب. فهذا المنهج عند عظماء الفائدة ان
يعلم الطلاب كيف يستكشفون النصوص وكيف يحقّقونها
ويفهمونها فيفهمونها على وجهها ويفطنون الى مظاهرها
الجمالية الفنية فيها، ويؤدي الى نتائج جليّة هي التي
الثورة الادبية أنشأتها الى كل شيء (38).

ويبدو أن هذا التبرير قد حمل المؤرخين العرب على
أن يبحثوا عن النتائج التي من شأنها أن تؤدي الى
فان يذكر زيدان أو الرافعي أو طه حسين العوامل التي
جعلته يختار منهجا مميّزا من بين مناهج أخرى فيتمده في
عمله، يفترض منه أن يكون قد فكر في المناهج جميعها، وفضل
بعضها على بعض حسب ما فيها من تلاؤم مع الموضوع الذي يتناوله
ومع الغايات التي يريد بلوغها. فالتبرير الاختياري ان علامة
دالة على الوعي بالمنهج. لذلك عندنا مظهر من مظاهر
وعي المؤلفين العرب بمسألة المناهج في تاريخ الادب.

ولكنّ لمظاهر الوعي بالمنهج أسبابها، فماذا كانت أسباب
هذا الوعي عندهم ؟

ب- أسباب الوعي بالمنهج : للوعي بالمنهج في أعمال
المؤرخين العرب، فيما يبدو، أسباب عديدة ومتنوعة. يرجع
بعضها الى افتتاعات اصحابها الثقافية والى اوضاعهم
الاجتماعية وتكوينهم الثقافي، ويرجع بعضها الثاني الى الهيمنة
المرحلة التاريخية التي وضعوا فيها تلك الاعمال. أما
بعضها الثالث فيرجع الى صعوبة المنهج في تاريخ الادب.

(37) - في الادب الجاهلي . مرجع : 64 ، 65 ، 243 .

(38) - المصدر السابق . السواطن نفسها -

وبما أن هذه الأسباب كثيرة وذات تشعب، فإنه يصعب أن نأتي عليها جميعها مخافة أن نبتعد كثيرا عن جوهر هذا البحث، لذلك رأينا أن نعرف على بعضها وقولنا لا يغفل عن إيجاز.

فمن الأسباب التي دعت المؤلفين العرب إلى أن يحسوا مسألة المنهج في تاريخ الأدب، سبب يرجع، فيما يبدو، إلى طبيعته المرحلية التاريخية التي ألفوا فيها أعمالهم. فقد ظهرت مؤلفات زيदान والرافعي والزيات وطه حسين في النصف الثاني من الربع الأول من القرن العشرين، وهي فقرة تاريخية اتسمت بوجود الاستعمار وجودا عسكريا وإداريا وثافيا على أرض البلاد العربية. وقد كان ماضي ^{هذا} الوجود أكثر من ثلاثين عاما عندما نشر زيदान والرافعي في وضع مؤلفيها في تاريخ الأدب. وذلك يعني أن المؤلفين العرب قد وضعوا مؤلفاتهم في تاريخ الأدب وفي البلاد العربية حركات مناهضة للاستعمار تستعمل في حربيه وسائل شتى وتفاوت قوة وصفها وتختلف في الأساليب والاتجاهات. ففي هذه الفترة مثلا برز مصطفى كامل وسعد زغلول، وفعلت انتفاضة 1919 بمصر. وقد كان للحركات الإصلاحية أو الوطنية أو الثورية التي نشأت أو ظهرت في هذه المرحلة التاريخية مرافق عديدة ومتصارعة من المدنية العربية تلك التي تبتدو في الآن نفسه أسرة بما فيها من مظاهر الرقي والتقدم، وعدوانية بما أدت إليه من استعمارات انتصبت بعضها على البلاد العربية. أو قد اتفقدوا باحثون كثيرون (33) على أن هذه المواقف، على تعددها، (34) - منهم سمير أمين في معظم مؤلفاته. ولعل أفيد لها في ما نحن بصدده كتابه: الامة العربية نسريات مينسوى. باريس 1976.

Samir Amin : La nation arabe ; Editions Dunuit . Paris 1976.

ومنهم أيضا أنور عبد الملك في جل أعماله. ولعل أجداها بالنسبة لغضية الحال كتابه "التفكير السياسي العربي" نسريات سسوى باريس 1970.

Anwar Abdel Malik : La pensée politique arabe contemporaine . Edition du Seuil. Paris 1976;

ومنهم كذلك : طيب تيزيني في مؤلفه : "حول نظرية مقترحة في التراث العربي" .

دار ابن خلدون للنشر . بيروت 1976.

لا تمد وأن تكون ثلاثة، أحدها يرفض التمدن الغربي رفضاً قاطعاً و يناصبه عداءً مبدئياً لأسباب دينية و حضارية متنوعة، والاخر يفتن على الحضارة الأوروبية انبالاً مسروراً حيناً وغير مشروط أحياناً، والثالث يتردد بين القول والرفض أو هو يرفض من التمدن الاوربي أشياء ويقبل أشياء، ويختلف أصحابه فيما ينبغي لكون سنده و يرفضون و يطول في ذلك بينهم الخلاف. وبما أن تاريخ الادب و مناهجه، قد جاء العرب من الغرب و وفدت عليهم فيما وفدت من مظاهر تمدنه، فإن مواضع المؤلفين العرب منه تأثرت، وفيما يبسود، بمواقفهم من المدنية العربية كلها. فمن بين الأسباب التي حطت الرافضي على رفض منهج التقسيم إلى عصر في تاريخ الادب انه، في نظره، مقتبس من الحرب أخذ به في العربية فـ "لا سليفة لهم في العربية و آدابها" (40)، ولكن موقف الرافضي هذا إنما يعارضه موقف طه حسين، فقد دعا مراراً عديدة إلى الافتداء بالعربيين في درس آدابهم أو التاريخ لها، إلا أنه دعا إلى الأخذ عنهم عن بيئة بسد تثبت و تروء، و حاجته في ذلك ان السلم إنما يلتمس الان عند هؤلاء القوم (41). وكان لزيدان و منى بعده الزيات موقف متردد بين الانبال على المعارف الغربية و اصطناعها و بين ردها و تحنبها، فقد أطرى زيدان العرب مرات كثيرة و في مواطن عديدة من عمله و مجدهم تصديداً طاهراً، وقد أخذ إلى جانب ذلك، عن الغربيين منهج التقسيم إلى عصور في تاريخ الادب و نظرية "النشوء و الارتقاء" (42) و اعتمد في الجزء الثالث من كتابه، على مؤلف بروكلمان في الموضوع نفسه اعتماداً كبيراً.

(40) تاريخ... ج 1 ص 22.

(41) - في الادب الجاهلي ص 16.

(42) - تاريخ... ج 3 ص 61. وقد استعمل زيدان، هذه

العبارات في صيغ تنسب طيلة أجزاء كتابه اللاحقة.

وإذا كان هذا فان الخلفية التاريخية التي استند اليها المؤرخون العرب في اعمالهم فقد كانت من بين الاسباب التي دعمت الى الوعي بمسألة النهج عندما حطتدم على ان يفكروا فيها وفي مصادرهما .

ومن الاسباب التي دعمت المؤرخين العرب الى الاحساس بحطورة الغايات في مسألة النهج ، سبب يبرر وعلى صلة متينة بتكونهم الثقافي من منازلهم الاجتماعية . فمن المؤرخين الذين ننظر في اعمالهم من هو اجنبي عن مصر ، مسيحي ، متنبث بمسيحيته (43) ، و منهم من لم يتم تعليمه ولم يكن لديه الملم بأى لغة من اللغات الاجنبية (44) و منهم من جمع بين السببين لتعليم الازهرى والتعليم النظامي أو الاهلي وكان مع ذلك حطما باللغة العربية واللغة الفرنسية المسمما حسنا (45) و منهم من كانت له الشهادات الجامعية العالية

(43) - كان زيدان لبناني الاصل سحي الدين ، نزح الى مصر مع من ينح اليها من أهل الشام في ستمثل هذا القرن . وكان لمسيحيته اثر ظاهر في كل مؤلفاته . وسما يدل على ذلك في كتابه " تاريخ آداب اللغة العربية " أنه مر على عصر صدر الاسلام ورورا سريعا قياسا على ما خصه السامر العصور الاخرى من عناية ، وأنه توسع فيس ما اسهم به النصارى واليهود في تطوير الفكر العربي طيلة تاريخه .

(44) - قال سعيد العريان متحدثا عن الرافي : " لم يحصل من الشهادات العلمية غير (الامتدائية) ان قطعت بهوار العملة التي وقرت أذنيه عن المدارس ، فليزم دارة يدرس لنفسه ويعلم نفسه . " . تهدير " تاريخ آداب العرب " II ، ص 6 .

(45) - تعلم الزيات في الازهر وفي الجامعة الاهلية المصرية بناء على ما ذكره عدنان الحطيب في فصله المذكور سابقا و حسب ما شهد به حمدي السكوت ومارس دن جونز في كتابهما : طه حسين بليوغرافية نقدية ص 6 . إلا أنه قد أمكن له أن يتعلم الفرنسية حتى حذفها ونقل عنها الى العربية قسما ملحوظا من آدابها .

والاطلاع المعمق على بعض اللغات الأجنبية القديمة والحديثة (46) ثم انهم لم يهتموا بالمؤرخين من باشر التدريس في المدارس الثانوية أو الجامعة، ومنهم من لم يباشروا التدريس ط فسي أي مدرسة كانت. الا أنهم قد كتبوا جميعا في الصحافة أو اشتغلوا بها وخاضوا فيها معارك أدبية وفكرية متعددة وتنوعت جعلت بعضهم يواجه بعضا أحيانا. وفقد كان لهذا كله، في ما يظهر أثر واضح في وعيهم بمسألة النهج في تاريخ الأدب، فبينما اطلع زيدان والزيات وطه حسين على مؤلفات عديدة في تاريخ الأدب الأجنبية وعلى ما صنفته المستشرقون في تاريخ الأدب العربي، لم يطلع الراحلون على شيء من ذلك. وبينما كانت لهم حسية ثقافته الحاصية العنينة التي خبر فيها مناهج البحث التاريخي والاجتماعي ولم يكن زيدان والزيات من ذلك الا ما اطلعوا عليه في الصحف والمؤلفات التي كانت في متناول أيديهم. لهذا كان الراحلون يستنقصون الثقافات العربية وينظرون الى الأدب منها نظرة لا تخلو من احتقار بدئي ايماناً منه أن لا أدب يفاهي الأدب العربي ولا جنس سريحدل جنس الضرب (47) وكان زيدان والزيات يأخذان بالمرحليين هاج والنظريات

(46) - نشير بذلك الى طه حسين، وقصة تعليمه معروفة فقد رواها ملحة في أثره الشهير "الايام" بأجزائه الثلاثة.

(47) - لا تكاد تحلو صفحة من الصفحات التي أرح فيها الراحلون في الأدب العربي من مدح العرب والثناء عليهم. ويبدأون أنه أنصارهم من حيث جنسهم فهو في نظره أرق من الأحناس وأفضلها، ومن حيث لغتهم وهي أنصح اللغات وأحسنها، ومن حيث دينهم از الاسلام عنده أنبل الأديان وأرفعها قيمة. أما الأدب فهو ليس نتاج الحضارة العربية، واللغة العربية، وهو يدور به أحسن الأدب. انظر على سبيل المثال: تاريخ...

الغريبة حينها ويدفعان عن الحضارة العربية حيناً آخر (40) .
ولحل ذلك يرجع إلى أنهما لم يفصلا بعد بين المناهج
العلمية الغربية وبين الحانئ العدوانية الكائن في التمدن
الغربي . فقد أكد زيدان مثلاً أن الاستشراق كان على
صلة بالاستعمار في أوائله ، وأنه أدى ، مع ذلك ، خدمات
جليلة للآداب العربية (49) ، أما طه حسين فقد فصل
في ما يبدو ، بين الوجهين الاستعماري والعلمي للحضارة
العربية ودعماً صراحة إلى أخذ السامع عنهم وإلى الافتداء
بهم في أبحاثهم وأعمالهم ، فكان يكثر من الإحالة عليهم
ويستشهد بهم وبتحاريمهم في البحث العلمي وفي تاريخ الآداب
على أنهم المثل الذي يجب الاقتداء به (50) .

(40) - احتج كسابي زيدان والزيات ، في الآن نفسه ، مدح العرب والثناء
علمهم وعلى آدابهم والأعجاب بالفكر الغربي في نهضة المعاصرة . والاشك
على ذلك كثيرة لا يكاد يحصيها تعداد . على أن زيدان قد مدح
العرب من حيث هم جنساً لا مثبلاً له بين الأجناس
البشرية في الجاهلية خاصة ، ومن حيث أن لفنهم هي أرسى
البلجات وافصحها . ولم يعتز بالدين الإسلامي ولم
يقف على سائر الأديان . أما الزيات فنقد أشاد بالعرب
حنساً ولغة وديناً ، فكان ، من هذه الناحية ، إلى
الرافعي أقرب من زيدان ولعل هذا يفسران السلفية
التي تندرج فيها هذه المواقف هي ، في الحقيقة سلفيتان ،
أحدهما سلفية قومية دينية تعتز بالعنصر العربي كما
كان في الجاهلية وبالدین الاسلامي كما كان في عصره
الأول وقد قال بها الرافعي والزيات ، والثانية سلفية قومية
نقطت تعتز بالعنصر العربي كما كان في الجاهلية مثلاً في آدابه
وهي التي قال بها العرب المسيحيون ومن بينهم زيدان . انظر في ذلك ،

زيدان : تاريخ ... ج I ص 22 . 23 . 24 . وح لاص 144 . والزيات :
تاريخ ... ص 314 . 315 . 420 .

(49) - قال زيدان : ٢٢ اشتعال [المشترعين] بدر آداب اللغة العربية نفسها
فله أسباب دينية أو تجارية أو سياسية أو استعمارية . تاريخ ... ج لاص 145 .

(50) - انظر في ذلك " في الآداب الجاهلي " ص 16 . 17 . 18 .

على ان هذه الاسباب التي تلتبس في الخلفية التاريخية التي استند اليها العرب في اعالمهم ، وافي ثقافات المؤرخين انفسهم او منازلهم الاجتماعية قد لم تكن ، و قد هـ ، فادرك على ان تبرر وعي المؤلفين العرب بمسألة المنهج ذلك الودي الذي وقفنا على بعض مظاهره ، ان السبب الجوهرى الذى يبدوا انه خلق ذلك الوعي وانكس الشعور به ، انما هو تلك المعروية التي اصطدم بها المؤرخون العرب عندما اقبلوا على تأريخ الادب العربي . وقد صرح كل منهم ، على طريقته ، بتلك المعروية ، فذهب زيدان الى ان موضوع تاريخ الادب " متشعب " (51) وان البحث فيه " صعب " (52) واعتبر فـ بانـه تردد " كثير " (53) بين ان يأخذ فيه بمنهج التنسيـم الى عصور او الى علوم . واقـر الـرافـى بالمعروية نفسها عندما قال : " ليس الصبر على نفث تراب المناجم ، حتى يـخـل معدن الذهب ، بأشد من الصبر على فـض الكتب والعاجـم ، حتى يـحـلـص تاريخ الادب " (54) ، ولكنه أرجع ذلك الى ان " تعاقب ثلاثة عشر قرنا من تاريخ الادب الاسلامي لـم ينشئ لفكرة أنصح مما نطقـت به العرب قبل ذلك ، ولا جاء بشعر يبين أعمارهم في الجملة ، ولا جعل لادبائنا مذاهب متميزة في تكوين السياسة والعلم " (55) . وأما طه حسين فقد وقف طويلا على اوجه المعروية والعسر في التأليف في مادة تاريخ الادب وأرجع ذلك الى ان لادب طبيعة خاصة تفتضي منهاج خاصة أيضا (56) .

-
- (51) - تاريخ ... ج III ص 6 .
 (52) - المصدر السابق . ص 5 .
 (53) - المصدر السابق ج I ص 9 .
 (54) - تاريخ ... ج I ص 14 .
 (55) - المصدر السابق ص 21 .
 (56) - ورد ذلك في الصفحات 53 . 54 . 55 . من كتاب " في الادب الجاهلي " فقد تناول فيها طه حسين اوجه المعروية والعسر في الافعال على كتابة تواريخ الادب .

فصعوبة التأليف في موضوع تاريخ الادب ان هــــــــــــــ
التي جعلت زبدان يتوزر في اي المناهج خناروبايمها بأخذ
في سله وهــــــــــــــ التي حطته على ان يصارح العاري بترده ذاك
اد هــــــــــــــ وانـه وجد نفسه ازاء منهجين يتبادلان في الملاحية
فذكرهما معاً واختار احدهما دون ان يبين اسباب الاختيار
أو عوامله.

وصعوبة الكتابة في مادة تاريخ الادب العربي هي التي
دعت الرافعي الى ان ينحى باللائمة على من عولّ من
المؤرخين العرب، وفي تجاوزها على المناهج العربية (57)،
خاصة انها غاصح لا تتلام، في نظره، مع طبيعة الادب
العربي ولا تصلح في التاريخ له.

وصعوبة الافعال على كتابة تاريخ الادب هي التي
دعت طه حسين الى ان يتخذ من المؤرخين الذين
"يتهاكون" (58) على الاستباق اليه ظناً منه انه سهل يسير،
ذلك الموقوف الصارم الحاد، حتى كاد عمله يأتي منحية
على مدى المشقة والعسر في محاولة هذا النمط
من التأليف.

ان صعوبة التأليف في مادة تاريخ الادب ان، وعســــــــــــــ
المناهج فيه، هي التي اذكت وعي المؤلفين العرب بمسألة
المهج واحدّت شعورهم بخطورة النفايا فيها حتى كان
بينهم مثل ذلك الجردل العنيف.

هــــــــــــــ هي أسباب وعي المؤلفين العرب بفضية المنهج
في تاريخ الادب، وتلك هي مواقفهم ازاءها، وهــــــــــــــ
مواقف تدل على انه كان لهم احساس عميق احياناً بمسألة هي من

(57) - تاريخ ... ج 1 ص 22.

(58) - في الادب الجاهلي ص 53.

صميم نظا يا تاريخ الادب ان لم تكن ، بهذا المفهوم ، فنيته
الام . فالتاريخ هو علم مظهر نشاط الانسان في
الماضي ، وساضي الادب العربي ينطلق بعميدا في الزمن
ويتواصل في الحاضر بعد ان مر بعصور كثيرة متعددة
احصائى مختلفه الميزات متفارقة أشد ما يكون التفاضل
في التقدم والتخلف والتطور والتعفن والاضطراب .

ثم انه هذا الادب يستند في المساحة على افطار عديدة
لم يكن لها تاريخها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي
والثقافي الموحد . والنهج هو الذي به تفع السيطرة على
ما حدث للادب من تحول في هذا الزمن الطويل وعلى
تلاى الساحة الثقافية المتحركة في الزمن ترسعا وتقلصا .
ومن هذه الناحية فان تنظيم الموضوع وحصر مادته داخل
أسماء يبدو حتميا على مؤرخ الادب . ثم ان التاريخ حركة
في الماضي ، والحركة انتقال من حال الى حال وتحوّل
عن وضع الى وضع ، ولا تدرك الحركة ولا يسوعى التحول
الا اذا تم تبيين الحالات والاضباع في حدها وخشايشها
وفي ما يميز بعضها عن بعض ، والا اذا تم ادراك عوامل
التحول واسباب الحركة في كل قسم من الاقسام وفي الانقسام
جميعا . ومن هذه الوجهة أيضا يسهل التفهيم ضرورة
لا يستغنى عنها مؤرخ الادب .

والى جانب التقسيم وما يطرحه من قضايا ، تقسم الشؤون في
تاريخ الادب في التعرف على مواطن حركة الادب التاريخية وعلى
سماها وأسبابها . ومداها . فهل حركة الادب حركة
داخلية مضمرة به ام هي حركة طارئة تاتي من الخارج وتدخل
عليه من المجتمع حيناً ومن أعلامه حيناً آخر ؟ وهل هي النصوص
ونشأتها صلة بعضها ببعض ام هي علاقة الناس بالنصوص وفي تعاملهم
معها ؟ وهل يؤرخ المؤرخون للادب من حيث هو وحدة مستقلة بذاتها
لها في النماء قوانين وفي التطور والتعفن علل وأسباب ، أم يؤرخون
لها في علاقتها بالمجتمعات ؟ واين يلتبس المؤرخ حركة الادب ؟ هل

يلتمسها في النصوص الأدبية نفسها أم في الاعلام
الدين انتجوها ، في نفسياتهم وأوضاعهم الاجتماعية ،
أم يلتمسها في المحفوظ الذي انتجت له
ان قائمة الاسئلة طويلة ، وان العضو الباقي
في نهج تاريخ الادب حملة رمتسعبة . فكيف يعمل
المؤرخون العرب على تخطيطها ، وأي الطسول وضوا
لها ، وما كان أثر ذلك في أعمالهم ؟

2 - الاطروحات:

انتفى البحث في السنين بالمتألفين العرب
الذين مواجهة معربيه التأليف في مادة تاريخ الادب
بالاختيار . فعمد كل منهم الى اصطناع المنهج
الذي بدا له أنفع من غيره وأجدر في
حصص الموضوع والسياسة . وهكذا اختار زييدان
والزيادات منهج التقسيم الذي عمور ، واختار الرافعي منهج
التقسيم الذي "أبحاث" ، واختار طه حسين المنهج
التاريخي الذي يعتمد تفسير الادب الذي مدارس فنية .
وباختيار هذه السباهج الثلاثة يكون المتألفون العرب
قد جربوا معظم الطسرف المتعارفة في تاريخ
الادب . لذلك فان النظر في هذه الاختيارات يمكن من الوقوف على
مختلف الباطيا المنهجية التي يطردم بها مؤرخ الاداب .

وبعد ان الادب يتبع الاجتماع في كل ما يمر به من اطوار الرقي والانتظام، فان الحدود السياسي ايضا هو الذي ينزل الادب من حال الى حال. لذلك فان عصور التاريخ السياسي الراقية هي ايضا عصور تاريخ الادب الراقية، وعصور التاريخ السياسي المنحطة هي كذلك عصور تاريخ الادب المنحطة. ولذلك ايضا فان حدود عصور التاريخ السياسي هي حدود عصور التاريخ الادبي.

الا ان العمل بمنهج التنسييم الى عصور قد جعل اصحابه يصدمون بعضا بما عديرة. فما أن شرع المؤلفون العرب في وضع اعطالهم حقه حتى انتصبت امامهم الصعوبات تدعوهم، أحيانا، الى ضرورة مراجعة المستندات النظرية التي ينطلقون منها، وتبهمهم الى استمصاص الواقع عليها.

1 - **عدد العصور** : لمن اول فنية تسترعي الانتباه من مضاي العمل بهذا المنهج في تاريخ الادب العربي تلك التي تمثل في عدم اتفاق المؤرخين على عدد العصور الادبية. فقد أخذ زيدان والزيات بمنهجية التعسيم الى عصور مثلما أخذ بها مستشرقون كثيرون، ولكن عدد عصور تاريخ الادب العربي لم يرد واحدا عندهم. فهذه العصور ثمانية عند زيدان وهي خمسة عند الزيات. ومن شأن الباحث ان يستغرب هذا الاختلاف لان المؤرخين الغربيين تناولوا الادب العربي في مدة زمنية واحدة تبدأ في الجاهلية وتنتهي عند أوائل القرن العشرين، وأخذوا فيها بمبدأ واحد يربط الادب بالاجتماع وبعد افساء التاريخ السياسي اقساما لتاريخ الادب.

ولم يكن الاختلاف في عدد العصور الادبية خاصا بزييدان والزيات، فالمهتشم قون أنفسهم علما يتفقون على ذلك. وليس هذا الجدول كليل باظهار مواطن الاختلاف في عدد العصور ومداها:

يتضح من هذا الجدول ان الاختلاف في عدد العصور الادبية كبير عند هؤلاء المؤلفين رغم تناولوا العرب العربي في مدة زمنية واحدة وأخذوا فيها بنهج واحد يعتمد مستندات نظرية واحدة. فهم لا يتفنون الا على جعل العصر الجاهلي ينتهي سنة 622 للميلاد ، والعصر الاموي يغف سنة 750 م (152 للهجرة) ، والعصر العباسي ينقضى سنة 1258 م (656 للهجرة) . وذلك لانهم عدوا ظهور الاسلام ينهي الحاهلية ، واستيلاء العباسيين على السلطة يوضح حدا للعصر الاموي ، وسقوط بغداد في يد المغول يختم العصر العباسي . وفيما عدا ذلك لا نجد سوى الاختلاف ، فعصر صدر الاسلام مثلا يعد عصر اديبا على حده عند بروكلمان و نيكلسون و هوار و زيدان ، ولكنه يصم الى العصر الاموي فيكون معه عصر اديبا واحدا يعرف بعصر التوسع عند جيب وبالعصر العربي الاسلامي عند نالينو ، وبالعصر صدر الاسلام والدولة الاموية عند الزيات ، والعصر المسؤولي يعمد عصر اديبا على حده عند بروكلمان و هوار و زيدان ، ويضم الى العصر العثماني فيكون معه عصر اديبا واحدا عند جيب و نالينو و نيكلسون و الزيات و يطلق عليه اسم عصر الماليك حينا والعصر التركي حينا وعصر الانحطاط حينا آخر . بل ان نيكلسون قد قسم الفقرة الزمنية المتعددة من الفتح الاسلامي الى نهاية الدولة الاموية الى ثلاثة عصور ادبية هي : عصر محمد والقرآن ، وعصر الخلفاء ، والعصر الاموي ، وفي حينئذ يضم العصر المسؤولي والعثماني والحديثي بعضها الى بعض وجعل منها عصر اديبا واحدا يبدأ بسقوط بغداد سنة 1258 م - 656 هـ . ولا يزال .

وبتضح من هذا الجدول ايضا ان الخلاف في عدد العصور الادبية انما يشتد بين هؤلاء المؤرخين في مرحلتين

زمنيتين من التاريخ العربي الاسلامي كله. فليس يستند
اولا في المرحلة الفاصلة بين ظهور الاسلام ونهاية السمر الاموي
اد جعلها بعضهم عمرا اديبا واحدا، وجعلها بعضهم
الاخر عريق اديبين، وجعلها بعضهم الثالث ثلاثة عصور
أدبية لكل منها كيانها الخاص. ثم هو يستند في المرحلة
الفاصلة بين سقوط بغداد في يد المغول وبين نهام النهضة
الحديثة. وما يلاحظ في هاتين السرحلتين انهما تختصان
بالتحرك السياسي، فالفتح والصراع على السلطة والفتن والاضطراب
الاجتماعي والتأليب الاقتصادي جعلت تاريخ الفترة الاولى حافلا
بالوضائع السياسية، وانهيار النفوذ العربي باستيلاء الجانب
على دولاب الحكم وما اعقبه ذلك من فتن واضطرابات أشرف في
الاجتماع وشغل حركة الاقتصاد وجمع تاريخ الفترة
الثانية حافلا بالوضائع السياسية أيضا. ولكن ذلك التحرك انما
كان يسكن في المرحلة الاولى الى تأسيس نظام اقتصادي
 واجتماعي وسياسي تواصل في العصر العباسي، وفي حين
أنه كان ينزع في السرحلة الثانية الى ابطال التوازن الذي
سبق وانعائه. فالمرحلة الاولى كانت اذن مرحلة نشوء في
الاقتصاد والاجتماع والسياسة والعلم. واما السرحلة الثانية
فكانت مرحلة انهيار اقتصادي واجتماعي وسياسي وفكري. واذ
كان ذلك فتمل يمكن ان نذهب الى ان منهج التعميم الذي
عمور يجدر من الصعوبة في فترات الانطلاق والصعود ما
يجده في فترات الانحدار والتفكير ؟

ويبدو أن مؤرخي الادب انما احتلوا في عدد السمر
الادبية لانهم تنكروا في اعمالهم للمنطلفات النظرية
التي أقاموا عليها منهجهم عندما وجدوا الواقع لا يتماشى
معها ولا يخصص لها. ولعل فيما يبرر به الزيمات
جمعه بين عصر صدر الاسلام والعصر الاموي مثالا
كاميا في الدلالة على ذلك، فقد قال : " والاشبه بالحق
أن نقرر ما أشرنا اليه من قبل، وهو ان السمر العربي

طبل في الجاهلية والاسلام واحسدا في مظهره وجوهه
ونوعه حتى أواخر بنسي أمية (. . .) فليس من سبيلنا
ان نتكلف البحث العقيم في المصنفين الأول عن مذهب شعري
جديد يصح ان يكون اساسا لادب عربي جديد (60) . ومما
اجبرهم على التكرار لتلك المنطلقات ان من العصور
السياسية عصورا لا يختلف الادب فيها عنه في العصور
السابقة أو اللاحقة . فالفارق السياسي واضح كل الوضوح بين
الجاهلية و صدر الاسلام . ولكن الفارق بين الادب في هذين
العصرين السياسي لم يكن كذلك . ولم يكن هذا التكرار
عرضا لجأ اليه مؤرخو الادب لاختصاص بعض الطواهي
المتعمية على المنهج الذي أخذوا به ، لانه احدى النتائج
الحتمية التي يؤدي اليها القول بمبدأ التوافق بين العصور
الادبية والسياسية . ففرد رأي مؤرخو الادب لكل امه
تاريخا عاما يتفرع الى تاريخ سياسي وآخر اقتصادي
وأخر علمي (61) ، ونهضوا الى جعل كل فرع من فروع
التاريخ الحام علقا على حدة يتناول موضوعا على حدة . ومصح
ذلك فهم يفتشون تاريخ الادب بمنايسرو غناه حتى تبلورت وتهدبت
في التاريخ السياسي . ولسنا هنا ننفي ان تستعين
العلوم بمصفا المناهج من بعض ، فذلك أمر سفروغ منه
لا يكاد يتجادل العلماء الا في مداه ، ولكننا لا نرى كيف
يمكن ان تطبق مناهج علم أو قوانينه على علم آخر
تطبيعا حرميا . ولعل ما لعيه مؤرخو الادب من مساكن
في جعل العصور الادبية تطابق العصور السياسية ،
يعدم أحدا الأدلة على بطلان غزو موضوع مناهج استمدت
كيانها وخصائصها من اعتماد موضوع آخر . ~~فليس من سبيلنا~~
~~الغالب بين العصور الادبية عصورا~~ ~~تختلف فيها~~ ~~السياسية~~ ~~فقط~~ ~~لهم~~

(60) - تاريخ . . . ص 104 و 105 .

(61) - زيدان تاريخ . . . ج I ص 9 .

~~لقد دخلت هذه المادة على من بعثني في زوموت مع بعضنا نحن الاستاذ~~
~~فانهم لا يوجد احد من اهل العلم على معرفة التاريخ.~~ فان عدم التطابق
بين العصور الادبية والعصور السياسية قد اضطر المؤرخين
الى جعل عشرين سياسيين او اكثر، عصرًا ادبيًا واحدًا تارة
والى جعل العصر السياسي الواحد عدة عصور ادبية عدة
تارة اخرى . من ذلك مثلاً ان الزينات جمع بين عصر صدر
الاسلام والعصر الاموي فلي عصر ادبي واحد ، وضم العصر
المقبولي الى العصر الشامي وعدهما عصرًا ادبيًا واحدًا ،
وان زيدان قسم العصر القبلي الى ثلاثة ادوار ، والعصر
الشامي الى اربعة عصور ادبية لكل منها ميزته الخاصة .
ولست هذه الاقسام الثانوية داخل العصر الواحد ، وذلك الجمع
بين العشرين السياسيين المستقلين فلي عصر ادبي واحد ،
سوى تحليلات حاول بها مؤرخو الادب حسب منهج السمة
الى عصور ، اخضاع الطواهر المستحصية لليس منعجهم كلما بان
لهم نصيره عن استيعابها . ذلك ان العصور السياسية
بالمفهوم الذي حددها به لا تصلح ، ففي ما يبدو انفساً
لتاريخ الادب .

2 - الحدود بين العصور : من النضاي الشائكة التي اصطدم بها مؤرخو الادب حسب منهجية التفسير الى عصور ، فسياسة الحدود الفاصلة بين العصور والعصر . ففرد راج هؤلاء المؤرخون على عدد الاحداث السياسية وتواريخها مجالهم تفصل بين العصور الادبية والسياسية على حد السواء . ذلك ان الحدث السياسي ، عندهم ، يوضع حدا لعصر سياسي وأدبي سابق ويفتح عمرا سياسيا وأدبيا جديدا . فاستيلاء مغولية ابن امير ابي سفيان على الحكم وضع حدا لعصر صدد الاسلام وافتتح العصر الاموي عند زيدان . والطاحنة العباسيين بآخر الامويين حدث سياسي انهى العصر الاموي وافتتح العصر العباسي في نظم الزيات . ويستند هذا المفهوم الى ما اعتقده المؤرخون من أن الحدث السياسي امر فسي حد

داته جلد يؤثر في الحياة الاجتماعية والادبية فيميزها
عما سبقها تمييزا يبرز وكافيا لا فائده معلما يفصل
بين العصور.

الا ان اصطلاح هذا الفهم سرعان ما اصطدم باستقصاء
الواضع عليه. فبعد اغتر الزيات، كما رأينا، بان الشعر العربي
ظل واحدا عن الجاهلية حتى أواخر العصر الاموي، لم
يتغير لا في طريقتيه ولا في مسانيد. ولكن هذه الفترة الزمنية
قد شهدت أحداثا سياسية جساما، ازدهر فيها
الاسلام فانتقلت بطهوره السيادة السياسية من القبائل
المبائل التي التجردت في شاكل دوله، وانزل معه المجتمع
العربي من مفهوم القبيلة الضيق الى مفهوم الامية الموسع،
واقفك في هذه الفترة معارضة السلطة السياسية وحولها
التي ملك يتوارثه ابناؤه من بعده. لهذا كان معرف الزيات
مباريا ازا، مذين الحديثين السياسيين البارزين، فاعتبر الاول
سما معلما يفصل بين الجاهلية وبين عصر صدر الاسلام،
والثاني يعتبر الثاني كذلك فجمع بين عصر صدر الاسلام والعصر
الاموي في عصر ابي واحد. ولهم يسلم عميل
الزيات هذا من التناقض في كلتا حالتها الانبيذ أو الاهمال،
فقد وعندما اعتبر ظهور الاسلام تحديا فاصلا بين الجاهلية
وعصر صدر الاسلام قد ناقض ما ذهب اليه من ان الشعر
العربي ظل هو هو وفي الجاهلية وفي العصر الاسلامي.
وهو عندما لم يعتبر افتتاح معاوية السلطة حدا يفصل
بين عصر صدر الاسلام وبين العصر الاموي، قد ناقض
ما ذهب اليه من ان الاحداث السيلسية الكبرى انما تؤثر
في المجتمع وفي الادب وتعلمها من حال الى حال. ولكننا
نجد الريات يأخذ باطاحه بنبي العباس بأحر بنبي أمية
فيجعله معلما يفصل بين العصر الاموي والعصر العباسي،
ونحوه ايضا يجعل من سقوط بغداد في يد الممـول
فاصلا بين العصر العباسي والعصر التركي. ولنا هنا

ندرى لم جمال هذين الحديثين السياسيين مسلمين
يفصلان بين العصور الأدبية ، ولم يجعل استنباط معلومة على
الخدم سنة 41 للهجرة كذلك ، خاصة ان هذا الحدث لا يقل
خطورة عن الحديثين الآخرين . وفرد ضمن الزيات التمس
المفولي والعصر العثماني فاعتبرهما عصرًا أدبيًا واحدًا
يحدثه في أوله سقوط بغداد في يد المغول وفي
آخيره حملة بونابارت على مصر . فحملة المغول على العالم
الاسلامي وحملة بونابارت على مصر في نظير الزيات
الحدثان سياسيتان اثرت في الادب ونقلت من وضع الس
وضع آخر . ولكي بين هاتين الحملتين حملة ثالثة
على العالم الاسلامي قام بها الاتراك العثمانيون فلماذا
لم يعتبرها الزيات مسلمًا يفصل بين عصرين أدبيين
احدهما يسبقها والآخر يتبعها ؟ ثل هي أقل قيمة
من الحملتين السابقتين ؟ ام هي لم تؤثر في الادب
تأثيرًا يسمح باعتبارها فاصلًا بين العصور الأدبية . ان الزيات
ان يعتمد احداثًا سياسية ويجعلها مجالًا بين العصور
الأدبية دون احداث أخرى . ولنا ندري علم من أي المقاييس
اعتمد الاحداث السياسية التي اعتمدها ، واهمل الاحداث
التي اهلها .

وإذا كان زيدان قد حاول ان يأخذ بالاحداث السياسية
الكبرى كلها فماله تفصل بين العصور الأدبية ملما
تفصل بين العصور السياسية ، فبمعدل عصر صدر الاسلام
عصرًا سياسيًا وأدبيًا على حدة ، والعصر الأموي
والعباسي والمفولي والعثماني عصورًا أدبية وسياسية
مستقلة بعضها عن بعض ، فانه لم يكن افضل تناقضًا
مع غلطاته النظرية من الزيات . فقد جعل الاحداث السياسية
الكبرى معالم تفصل بين العصور السياسية والأدبية لان
الانقلاب السياسي والاجتماعي يحدث انقلابًا في المفهوم والافكار

فيظهر ذلك في آداب اللغة (62) . ولكنه يجب يقول معه - إذا
للعصر العباسي الرابع : "الانقلاب السياسي الشار إليها
اثيرت في الاحوا الاجتماعية لاشتغال الناس بالفتح والحروب
وفساد الحكم ، ولذلك تأخر فيها في آداب اللغة لم تظهر
ثمارة الا في العصر المملوكي وصار بعد (63) . ومثل
هذا القول كقول بان يميل الناصري لا يطمئن الى اعتبار
الادب السياسي الكبارى معالم زمنية تقوم حدودا بين
العصور الادبية في تاريخ الادب قيامها بين العصور السياسية
في التاريخ السياسي . فاذا كان اثر الحداث السياسي في
الادب لا يظهر الا بعد مئات الاعوام من حصوله ، فان نفع
للمؤرخ الادب في استعمال المعالم بين العصور السياسية
معالم بين عصور الادب ؟

ولقد كان بعض هؤلاء المؤرخين يشعرون بما افسى اعتماد
المعالم بين العصور السياسية معالم بين العصور الادبية
من بند عن راقب الاشياء ومن قصير عن اخضاع الطواهر اخضاعا
تنظمهم . وحددت مسؤولية في البناء العام لمنطق التاريخ (64) ،
فحاولوا تلافى ذلك بأن نبهوا الى ان التطابق بين عصور الادب

(62) - تاريخ ... ج III ص 21 .

(63) - المصدر السابق ج III ص 10 .

(64) . وردت هذه الفقرة التي حظ كبير من الوضوح في قول نالينو :
" ان هذه الحدود التي ذكرتها لكل عصر من الاعصر الستة ليست الا حدودا
تسامية اصطلاحية اثبتتها على التريب ، فان عصرنا من التاريخ
السياسي او من تاريخ الادب لا يحصر في مواضع معينة بدفة
(...) وقصدي القول ان تسقة تاريخ الادب اساسا مدورة حدودا
انما هي وسيلة لتسهيل بيان سير الادب في مدارج الرفي
اورجوعها الشفهي . فالحدود المينة لكن عصرني كالاعلام التي كانت
اهل البدوينصونها في البراري والغار ، ليستدى بها ابن السبيل . تاريخ
الادب العربية من الجاهلية حتى بني امية ص 48 ، 49 .

و... صور السياسة انما هو وسيط العمل " تهون تفهم ما
حدث من التغيير في الآداب والعلوم" (55) . ولكن قضية
الحدود بين العصور تصبح أكثر تشعبا وتعقدا ان نحن
تساءلنا عن مدى الاستقامة في وتوف مؤرخي الآداب
عند سنة عن السنوات يعدونها سالما يفصل بين
عمرين أدبيين . فقد يصح على سبيل المثال ، بعد
تصحيح مفاهيم كثيرة ، ان نعتبر سنة 132 هـ / 750 م
فاصلا سياسيا بين العصر الأموي والعصر العباسي ،
ففيها انتقلت السلطة انتقالا عنيفا من أسرة حاكمة إلى
أسرة أخرى ، وفيها تسامت فئة حاكمة على فئة
حاكمة أخرى وانتشبت مكانها تتصرف في شؤون المسلمين ،
ولكننا لا نجد شيئا من ذلك أو ما يشبهه في الأدب في
تلك السنة . فسنة 132 للهجرة ، لم تشهد حراة
داميا أو سلميا بين أدبين ، ولم ينهزم فيها أدب و ينتصر
أدب ، ولم تقض فيها طائفة من الأدباء على طائفة
أخرى منهم . وإذا كان عبد الحميد الكاتب (66) قد
قتل في تلك السنة بالذات بسبب ولائه للامويين وقربه
من آخر خلفائهم فان الكتابة ظلت في أوائل العصر
العباسي على أسلوب عبد الحميد (67) على حد عبارة
أحمد بن الزيات . وإذا عدّ بشّار بن برد زعيم
الشعراء المولدين وانما هم في العصر العباسي ، فانه
قد عاش نمو فعمره أو أكثر في العصر الأموي .

وهكذا فان أقسام التاريخ السياسي بالمفهوم الذي
حدّده مؤرخوا الأدب للسياسة لا تصلح أصلا لتاريخ الأدب ،
والأدب لا يعرف في تاريخه تلك الانقلابات الفجائية التي

(65) - زيدان : تاريخ ... ج III ص 18 .

(66) - الزيات : تاريخ ... ص 197 .

(67) - السمر السابغ . ص 216 .

تحدث أحيانا في التاريخ السياسي ، وحركة الأرباب كانت
له حركته في ذاته ، حركته بطيئة يسبقها تمهيد
يطول أحيانا . وآية ذلك ان الباحث لا يقى يضع أيدينا
طويلة العنصر الاموي ، وخاصة في آخرة على شيء من ذلك
الشعر المحدث الذي انتشر في العصر العباسي ونساع حتى
عدّ من خصائص الأرباب فيه . وآية ذلك أيضا اننا نجد
في العصر العباسي شيئا من هذا الشعر الذي
انتشر في العصر الاموي ونساع حتى هو هذه المؤرخون
من خصائص الأرباب فيه (68) . ثم ان حركته الأرباب تدور
أحيانا اسرع من حركته السياسية ، فيحدث التبدل في الأدب من
غير أن يظهر تبدل واضح في التاريخ السياسي . وليس
هذه الحركة هي التي فرضت على مؤرخي الآداب أن
يدخلوا تقسيمات تاريخية على العصور السياسية الطويلة
في الزمن أو الحافلة بالتنوير الاقتصادي والاجتماعي والفكري .
وقد رأينا أن زيدان جعل العصور الاموية ثلاثة أدوار هو العصر
العباسي أربعة عصور .

وهكذا نصل إلى أن المسالمة الزمنية بين المصور
الادبية تمثل إحدى مميزات التأليف في مادة تاريخ الأدب
حسب منهجية التفسير إلى حدٍّ ما. وقد حاول معظم المؤرخين
تجاوزها بالاعتماد على حدود التفسير في التاريخ السياسي،
(68) - يطلن الباحثون على الطواهر الادبية التي تسبق عصرها عبارة "الطابع"
وعلى الطواهر التي تتواصل بعد عصرها عبارة "الرواسب". انظر رفس
لك الكلمة التي خصصها الاديب ايريهوك كيتلير من "الشيخة"
الادبية "عند اسهامه في الندوة التي التأم حول "الادب والمجتمع؛
قمايا السمجية في علم الاجتماع العربي الادبي" وانظر أيضا النفاس
الذي ردّ به المشاركون عليه. الكتاب المذكور ص 49 وما يتبعها.

Littérature et Société : problèmes de méthodologie en sociologie de la littérature. Communication d'Erich Koettler : " la vie littéraire"

ولكن أقسام التاريخ السياسي لم تكن مطابقة لأقسام التاريخ الأدبي ، ولذلك لا تطابقها بالمفهوم الذي حددوه للسياسة والأدب ، فيرآن مسألة الحدود بين العصور هذه تطرح قضية أخرى من قضايا التأليف في مادة تاريخ الأدب وهي قضية الصراع بين العصور .

3 - الصراع بين العصور : روح مؤرخو الآداب حسب هذا السهج على ابغناء فترات الانتقال من عصر إلى عصر غامضة شديدة الغموض . فهم كثيرا ما يتحدثون عن الانتقال من عصر سياسي إلى عصر سياسي آخر على سبيل التمهيد لتاريخ الأدب فيها ، ولكنهم لا يذكرون شيئا لا عن انتقال الآداب من عصر إلى عصر ولا عن عوامل ذلك وأسبابه . فالزيات مثلا ينتقل من العصر الأموي إلى العصر العباسي دون أي تمهيد أو تهديد أو إعلان ، فنقطه انتهاء الكلام عن العصر الأول هي واو ابتدائه في العصر الثاني . والعصور الأدبية عنده يضم بعضها إلى بعض في خط التسلسل الزمني لا أكثر . أمنا زيدان فقد كان كثيرا ما ينسج خائسات للعصور التي ينتهي منها ، فيعدد فيها حظوظها من الرفي وخصاصات الأدب فيها ونزاي العرب عيما بأوروه من معارف أو اكتشافه من علوم . ثم أنه كثيرا ما كان يبدأ العصور التي يدورح للأدب فيها بمعدات تمهيدية يسووج فيها الكلام عن أحوالها السياسية والاجتماعية . فإذا فرغ من ذلك ذكر ما لحق الأدب واللعبة والفكر من رقي أو انحطاط تسببت فيه العوامل السياسية . ولكنه لا يذكر شيئا لا عن التحول من عصر أدبي إلى عصر أدبي آخر ولا عن عوامل ذلك التحول أو أسبابه ما خفي منها وما ظهر . فنقطه انتهاء الكلام عن العصر الأدبي عنده هي واو ابتداء في العصر الذي يليه . والعصور الأدبية في عمله ، يضم بعضها إلى بعض حسب التسلسل الزمني ، فيأخذ كل عهدا مكانه إلى جنب الآخر وإنما تعليل .

وبدليجي أن الواقع سياسيا كان أم أدبيا لا يعبر بل مشـ
هذا المنطق . فـ المصـور السياسية ولا المصـور الأدبية مما
يجوز مـها بعضها التي بعض هذا الضم ، لأن فـ
التاريخ فترات يمر فيها الصراع بين المتنافسات ويستند
حتى يغلب بعضها على بعض ، فيسـط المنتصر منها
سلطانه ويسود . وهذه الفترات هي ما يظـلح عليها
بفترات الانتقال من حال إلى حال ومن وضع إلى وضع .
ومن هنا هذه الفترات أن تتداخل فيها الطواهيـر
المتنافسة وتتشابك وأن يحتد فيها الصراع بينهما ويعـوى
حتى يحالها الناظر لا تغفل الدرس انفلـا على الفـهم
لما تبـدو عليه من استعصاء على الفكر . انـها فترات
انـرام نظام وانـيار توازن ، وانـها في الآن نفسه فترات
هداية نظام جديد وأساسـي توازن . حادث يسـمى إلى
الظهور سـان التوازن القديم . لذلك فهي تدو أحـوج من
غيرها مـر فترات التاريخ التي الدرس المنطـق ، إذ الأمر
يـد لا يـد أن يـكون اضطراب تنافسـات تعايشـت عليها
في التوازن السابق . وعلى مقدار حمـور النـيضي في الصراع ،
وعلى مقدار قوة ذلك الحـرر يـكون التوازن الجديد حامـلا
لـطابعه ملونا بلونه . ومن هنا يـد أن اهمـان فترات
الانتـال في التاريخ واهـان عوامل الانتقال وأسبابـه
والقوى المسـمة في بلوغه مداه ، يلحـى صرا كـيرا بفهم
التوازن الذي يسـبق الانتقال والذي يلحـق به على حـد
السـوله . وحـد أضر سـكـوت مؤرخـي الآداب عن فترات
الانتـال من عصر أدبي إلى عصر آخر بأعمالهم أيـما
ضـرر ، فجاءت الافـام فيها تنلـو الاسـام دونما تعليل ،
وجاءت تواريخهم عـورا تنلـو عـورا دونما عناية بمنظـور
توالـد المصـور ومجـي بعضها أشهر بعض . فالمصـور الأدبية
تتوالـس عندهم ولا تتـوالـد .

وقد يذهب الطعن بالباحث الى أن مسـؤـر خـي الآداب انما سكتـوا عـن فنـراب الانتفاـل عـن عـنـر أدرى الـى آخـر لـنـهـم يـهـدون التحول السياسى مـعـاسـا للـتـحول فى الـادب فـيكون فى حدـثـهـم عـن التحـولات السياسية غـنـاء عـن ذلـك . فتـحول الـادب عـنـدهـم يـتـبع تحـول السياسة ويـجـد فـيـه الدافـع والعامـل والمعنى . ولـكـهـم لـم يـمـتـنـوا فى التاريخ السياسى أـيـضـا بـتـوالـد العـصـر بـعـضـهـا مـن بـعـض . فالعصر العباسى مثـلـا يأخـذ مـكانـه فى الخـطـ الزمـنـى اثر انقـصـاء العـنـر الـامـوى . أمـا أسـباب سـنـوـط الـامـويين وعوامـل انتـصـار العباسيين فلا هـذا ذكـر مـنـها شـئ . ولـسـنا نجـد فى مـقـدـمـهـم التمهيدية أكـثـر مـن أن سياـسـة الـامـويين كانت تقوم على العصبية العربية وأن سياـسـة العباسيين كانت فارسـية أكـثـر مـنـها عربـية . واذا نحـلـن نظـرنـا فى جـمـلـة مـا يـقـدم به مؤرخ الآداب للـمـنـصـور الـادبـية ، اتـضـح أن أصـحاب هـذا المنـهـج ينظـرون الى التاريخ السياسى والادبى نظـرة حدـثـية تسـوق الوقائـع ولا تتسـاءل عـلى أسـبابـهـا . فـقـد مـتـتـ الزبـدات للـمـنـصـور انتركـبى بـتـعـداد المصائب التى ألمت بالـمـلـك الـاسـلامى فى هـهـنا : " انتكـث قـتل العباسيين كما علمت فى بـغـدـاد بـمـد عـنـد التـوـكـل (. . .) وتضعـف أـمـر الـامـويين فى الـانـدلس بـتـغـلب البربر والمـوالى عـلى مـلـكـهـم (. . .) ودالت دولة القاطـسـيين فى مـصـر والشـام فـوقـتـها فى أيدى الـايـوبـيين ، شـيـم صارتـها للـمـلـك . . . " (69) ، وهـهـذا زبـدان لـجـل عـنـصـور الآداب العربى بـذـكـر الحـواثـ السياسية التى وقعت فيها ذكـرا لا يكـفـى بـجـاوز الاشارة العابرة . لذـلـك جـاءت نـقـطة الوصل بـيـن العـنـصـور فـراغـا تـوضـح فـيـه بـعض الاحداث السياسية ولا يكاد يـوضـح فـيـه مـن الاحداث الادبية شـئ . وهـذا الفـراغ بـيـن العـنـصـور الادبية هـذا حـدى النـتـائـج الحتمية التى تنـجـر عـن القـول بالتطابق بـيـن فـواصـل التاريخ السياسى والتاريخ الادبى ، خاصة اذا فـهـم التاريخ فهـما حدـثـية لا يتسـاءل لا عـن المـلـك ولا عـن الـسـبـاب فـيـه .

4 - خصائص العصر الأدبي : ليس من شك في أن تحديد
العصر في تاريخ الأدب وضبط المعالم الزمنية التي
تفصل بينها إنما يفرضي بجملة المؤرخين التي البحث
عن الخصائص التي يتميز بها أدب العصر عن أدب العصر
الآخر. ويشترط في هذه الخصائص أن تكون مما تترك فيه
آداب العصر الواحد حتى يتسنى للمؤرخ حده وحدته ذات
كيان مستقل. ومتى لم تلتزم لكل عصر خصائصه
الأدبية لم يكن للاختلاف بينهم التفسير إلى عصر أي
معنى. لهذا كانت قضية خصائص العصر إحدى
القضايا الجوهرية في هذا المنهج.

ولقد حاول كل من زيدان والزيات أن يجد لعصر
تاريخ الأدب العربي خصائصها التي تتميز بعضها عن بعض
وتبرر عد كل منها عصرًا على حدة. ولكنهم
استعملوا في ذلك معايير متبددة شديدة التنوع والتباين.
فذهب زيدان ينسب هذه الخصائص في الآداب والعلوم
ورجالها. وحاول أن يتبين لكل عصر أدبي ميزة يختص
بها وينفرد عن سائر العصور، فرأى أن العصر الأموي
إنما يختص بنضج الآداب الجاهلية (70)، وأن العباسيين
يتميز ببداية النقل عن العلوم الأجنبية وبنضج الآداب والعلوم
السريعة (71)، وأن العصر المملوكي ينفرد بتطور علوم
التاريخ وكثرة المؤرخين (72)، وأن العصر العثماني يختص
بكثرة ما طهر فيه من موسوعات (73). وهو في
الآداب يلتمس هذه الخصائص في النصوص الأدبية من حيث
الشكل والبنية والمعنى، وفي الآداب من حيث ثقافتهم

(70) - تاريخ... ج 1 ص 209.

(71) - المصدر السابق. ج 1 ص 155.

(72) - المصدر السابق. ج 3 ص 123 و 160 وما يليهما.

(73) - المصدر السابق ج 3 ص 201.

واللغات التي كانوا يحذقون، ووزنهم الاجتماعي وأحسانهم
العربية، واهتمامهم بالخلفاء أو عدم اهتمامهم بهم (74). وقد
يلتسدا في ظهور أنواع أدبية وفي بطلان أنواع أخرى. وأما
في العلوم فهو يرى هذه الخصائص في ما كان له من
حركة على حسب فنانين النشوء والارتقاء والتفرع. فخصائص
المصر العباسي الأول (132 - 232 هـ) مثلا إنما تتمثل في
أن العرب اشتغلوا فيه بـ... عن علوم السمر وبالفدومة
التي لسانهم، قد حلت في اللغة العربية، بفضل ذلك، الفاظ
أجنبية وتراكيب أعجمية، وظهرت فيها المصطلحات العلمية.
وتتمثل أيضا في ما لحق الشعر، أثناءه، من تغير في
طريقته وأغراضه ومقانيه، وفيما نبغ في الشعر من
مواال أكثروا من الاستجداء وتفرغوا إلى مدح الخلفاء والأمراء
وسكنوا الحصن، وغيروا بذلك وظيفة الشاعر، فبعد أن كان
لسان قبيلة وفارس ميدان أصبح نديم خليفة وريب حبان (75)،
ورهب الزيات التي مثل هذا الذي ذهب إليه زيدان من
التماس الخصائص الأدبية للمصر الواحد في مظاهر شتى
تتصل بالنصر الأدبي معناه ومعناه حينها، وبالاديب حنسه
وثافته حينها، وبالحياة الاجتماعية تطورها أو تقهورها حينها آخر.
ولكنه ألح على مفهومي الأسلوب وحاول أن يتبين به
خصائص المصنوع. فكتاب المدرس العباسي عنده على سبيل
المثال "استنبطوا عيون المعاني، وتخيروا شريف الالفاظ مما لم
يكن حوشيا ولا سوقيا، وفتحوا أبواب البديع، وعنوا بالتنميق
والتنسيق" (76).

وليس يخفى أن هذه الخصائص لا تقتضي لتمييز المصور
الأدبي، بعضها عن بعض، فهي عامة يجزأها لقسما على

(74) - المصدر السابق . ج II م 55 و ج I م 14 و 141 .

(75) - زيدان : تاريخ ... ج II م 18 . 19 . 20 .

(76) - الزيات : تاريخ ... م 215 .

كن العمود والسي كنيرة وستة لا نعرف أيها المفيد
وأيهما الذي يمكن أن يعبر ميزة ينفرد بها أرباب عصر فلا
يشار إليه فيها أرباب سائر العصور. ويكفي أن نأخذ خاصية
واحدة من هذه التي تميز خصائص بينى عليها الفرق بين
العصر والعصر فنمى فيها النظر ليظهر جليا انها
لا تقتصر على عمودون عصره. فالشاعر الجاهلي مثلا كان
يمدح أسى القائل بغير الحرب والسيادة والجود، لأن
المدح يجمع بين الافراد في العصر الجاهلي انما هو
ذو العيشوم القبلي الذي يعمل من حياة المجموعة شيئا
أسمى من حياة الافراد. فكانت القيم الاخلاقية التي
أشاد بها الشعراء هي تلك القيم الفاعلة في الكيان
القبلي، وان أن قيم الحرب تضمن للجماعة المزة والساعة، وفيه
الهدل والجود تمتص الملائق بين الافراد وتقوى شعورهم بالالتحام
وتندفع انفسهم جارا الفيلة. ولكن المتنبي مدح سيف الدولة
بما كان يمدح به أسى القائل في الجاهلية، فأشاد
بصفاته الحربية وبجوده وأشاد بـسيادته. وقد يدل
ذلك على أن القيم الفاعلة في الكيان الاجتماعي في عصر
سيف الدولة انما هي قيم الحرب والسيادة والجود. وقد يدل
ذلك أيضا على أن الرابط بين الافراد في امارة سيف الدولة انما
هو شيء شبيه بالحمية القبلية. ولكن الاساسي أن لا فرق
كبير بين مدح الجاهليين أسى القائل وبين مدح المتنبي
سيف الدولة، وقد أكد النقاد ذلك بأن ذهبوا الى أن
شاعر البلاط الحمداني يمدح مواصلة لسنة عرب الجاهلية في
المدح (77). والمهم من هذه المناقشة بين شعراء
يفصل بينهم ما لا يعمل عن أرمية فـسرون أن وظيفة الشاعر
لم تتغير ان طلت هي هي تمجيدا لقيم كانت فاعلة في الحياة الاجتماعية منا و هناك.

(77) - بيد أن القدماء انفسهم فطنوا الى ذلك، فقد رد العميد 25 بيتا
من شعر المتنبي الى اصول فديمة جاهلية واسلامية. وكانت ذلك في كتابه: "الابانة
عن سرفات المتنبي لفظا ومعنى". ذكره زيدان: تاريخ... ج II ع 250.

ولنا أخذ مثلا آخر لعمله يكنون أكثر وضوحا وأوسع
بالحاجة منه في ندعهم ما نذهب اليه من أن هذه السمات
التي تلتزم للعصر الأدبي وتبصر قيامه قطعة مستقلة
في سلسلة التاريخ الأدبي، ليست كذلك. وليكن هذا المثل
اتصال الشعراء بالخلفاء ووقف رغبتهم إلى مدحهم في العصر
العباسي. أليس من شعراء الجاهلية من كان يقطع الصحراء ليتسلل
بالعسائنة والساخرة، وأليس منهم من كان يطوف بين البائسين
ما دحا رؤساءها، وأليس من شعراء العصر الأموي من كان
ينفذ إلى الخلفاء بمدحهم، وأليس أيضا وأخيرا من الشعراء
في العصر المملوكي والعثماني والحديث من كان يتصل
بذوي السلطة فيوسعون مدحها ليوسعوا نوالا. واذن فظاهرة
الاتصال بأرباب السلطة والنفوذ ليست وقفها على عصر دون
عصر لانها متوفرة في المصور الأدبي القديمة جميعها،
بل هي متوفرة أيضا في عصر النهضة رغم أن الفارق
كبير بين العصر الحديث والعصور السابقة.

ويمكن أن نأخذ الطواهي التي تعد من خصائص الأدب
في عصر ما ظاهرة ظاهرة لنجد أنها مما تسرك فيه
المصور جميعها. واذن وجدنا تفاوتها في إحدى الطواهي
من عصر لآخر من حيث الكم، كأن يكن عدد الشعراء في
العصر الأموي أكثر منه في الجاهلية، فذلك لا يعتمده
به لما لحق الأدب القديم من ضياع في نصه وعلامه،
ودون ضياع اعترف به مؤرخو الأدب وتحسروا عليه
داويلا (78). واذن فهذه الخصائص التي التمسها زيدان
والزيات في مظاهير شتى دون أن يغفل أي منها بعضها
على أحد المصور فيمددها من السيزات المفردة له لهم

(78) - ذكر زيدان أرقاما حمر بها شعراء الجاهلية، وأرقاما أخرى أراد
أن يصطب بها شعراء العصر الأموي، وقارن بينهما رغم أنه رد في مواطن كثيرة
من كتابه أن أغلبية السمر القديم قد صابت وسقطت أسما أصحابها. راجع ذلك
في : تاريخ... ج I ع 89، 89، ثم 240، 241.

تـكـن كـذلك ، ولا يـمـكـن الـارتـيـان اليـحـسـا في ابراز الفـسـواري
بين العـصـور الـادـبـيـة .

وليس الاخذ بتنوع الاساليب من المفاهيم التي
يمكن أن يعتد بها في اظهار الفوارق بين العصور و تمييز
بعضها عن بعض ، ان مفهوم الاسلوب هو فني حـد
ذاته مفهوم غاية في التجرد ، يمكن أن يوضع فيه
كـل شـيـء . ان لـم يستعمل بدقة كبيرة و تحـرر شـديـد .
ثم انه مفهوم يطلق على منحى الافراد في الكناية
ولا يطلق فقط على منحى الجماعات . لذلك فان قولهم
" أسلوب العصر " كلام لا معنى له لأنه يجمع بين عنصرين
لا يجتمعان اطلاقا . ومن أجل هذا كله كان الأخذ
بتنوع الاساليب في اظهار الفوارق بين العصور عملا
لا يجدرى أي نفع ولا يرجع بأية فائدة . وما دام الزيات
قد استعمل هذا المفهوم استعمالا خاطئا ، فأسنده عبارة
"الأسلوب" للجماعة (79) ، فانه يحسن أن ننظر فني ما قدمه
به . ان الناظر فني عمل الزيات يلاحظ أن الكتابة العربية
مرت بثلاثة أساليب . فالأسلوب الاول هو أسلوب الجاهليين
وهو " يمتاز بجريانه مع الطبع ، فليس فيه تكلف ولا زخرف ولا غلو ،
يسير مع أخلاق البدوي وبيئته ، فهو قسوى اللفظ ، مشين
التركيب ، قصير الجمل ، موجز الاسلوب ، قريب الاشارة ،
فليل الاستمارة ، سطحي الفكرة " (80) . والاسلوب الثاني
عباسي يختص " بالتنميق والتسيق " (81) وأما الثالث فهو الذي ظهر
في العصر الحديث " وهو يجمع صفات اللغة الجوهريـة
وخصائص البلاغة الاصلية ، التي تأثره بالمداهب
الاوربية والعروا من الاجتماعية والفنـاحي الثقافية

(79) - تاريخ ... ع 432 .

(80) - المصدر السابق ع 19 .

(31) - المصدر السابق م 215 .

والمحاندسي الحفريّة" (32). وإذا كان هذا فانه يجب أن تكون لنا ثلاثة عصور أدبية في تاريخ الادب العربي لا خمسة، خاصة أنه ليس لنا في الشعر أيضاً بحسب الزيّات، سوى ثلاثة أساليب أحدها جاهلي تراهمل حتى نهاية الدولة الأمويّة، والثاني عباسي تراهمل حتى النصفية الحديثة، والثالث حديث.

وهكذا نصل الى أن ما عُزِّدَّ خصائصه أدبيّة تميز العصر عن العصر في تاريخ الادب لم يكن كذلك، فلا الأخذ بشتى المعايير في شتى مظاهر الحياة الأدبية ممكّن من إقامة الفروق بين آداب العصور، ولا اعتماد مفسوم الأسلوب اعتماداً خاطئاً على ذلك.

5 - وجهه تاريخ الادب : على أن أكبر فمالياً منهج التعسّم الى عصور وأخطرها هي قضية وجهة تاريخ الادب أو اتجاهه وأسباب البركة فيه. ذلك، أن تحديد الأقسام وأن تبين خصائصها، يفرض حتماً على تناول وجهة الحركة في تناول الادب. فمثل كسان للمؤرخين العرب وعلى بهذه الحركة وشل تساؤلنا عن وجهتنا ؟

ان الناظر في مؤلفات تاريخ الادب العربي لا يعدم إشارات هنا وهناك تدل على أنه كان لأصحابها رأي باتجاه التاريخ، فقد وردت على أفلامهم عبارات من قبيل "نشأ" و "ارتقى" و "تطور" و "نفج" و "تراجع" و "انحط" (33). ومثل هذه

(32) - المصدر السابق ص 432.

(33) - وردت هذه المبارات عند زيدان : تاريخ ... ج I ص 209، وعند الزيّات : تاريخ ... ص 254. ووردت في غير هذين الوطنين من عليمما ان كانت شديدة الانتشار في كلامنا.

المباراة تدعو إلى التساؤل عن كيفية فهم المؤلفين العرب
حركة الأدب التاريخية وعن وجهتها عندهم.

لقد ذهب زيدان والزيات إلى أن "للعلوم" أعمارا
تمربها مرور الكائن الحي بأدوار الحياة. وهذه الأعمار
هي: الولادة والنشأة والشباب والاكتمال والهرم. وذهبوا إلى
أن الآداب من "توابع الحياة" (84) تخضع لما تخضع له الكائنات
الحية من نمو وتطور وانحدار. من ذلك مثلا أن زيدان
نظّم إلى فنون الأدب العربي بهذا المنظور فرأى أن الشعر
انما ولد في الجاهلية ونما في العصر الأموي، وبلغ
أوج قوته في العصر العباسي وبدأ ينحدر في العصر
المفولقي حتى كاد يموت في العصر العثماني. ومن
ذلك أيضا أن الزيات نظّم إلى الشعر العربي هذه النظرة
نفسها فقال: "وأنت إذا نظرت إلى الشعر العربي كله
بنصرة واحدة ففرضت تاريخه كما تعرض تاريخ اللآلئ
الحبي وجعلته قد تطوّر في موضوعه تطوّر الأمة
العربية، وقطع منها مراحل الحياة الإنسانية. فهو
في الجاهلية أنغام عبي، وحاسه فتوة، وعواطف أتمرة،
وفي الإسلام أناس يد جهاد وثوران عصبية، وأطامع
حياة، ثم استبحار شبابيه واكتساح في صدر الدولة
العباسية، فظهور في شعريته وأبي نواس وأضرابها
عبيت شباب، وأغانى ظرف، ومطاهر ترف، ثم
عمر على نواجد الحلم واكتساح في أوساطها فهردا
في شعراء الرومي وأبي تمام والستيني وأسألهم
دروس تجربة، ونتائج حكمة، وخواطر فلسفة. ثم أدركه
الهرم في أواخرها فظهر في شعر المتأخرين تمويه
منه، وزخرف شيخوخة، ومعالجة روح. أما ولادته

وطبعته فلم يدركهما التاريخ ولم يدخلا في علمه* (85) .

وتبدو هذه الفكرة متضاربة مع نهج التقسيم الى عصور في تاريخ الادب، ان علي تدعو الي أن يكون لتاريخ الادب أهمية عصور أو مراحل فحسب هي : النشأة فالسبب ب فالأكتفاء فالهرم ، فياسا على مراحل عصور الانسان . ولكن هذا التصارب يظل عند الزيات فحسب تناقضا آخر مع منطلقاته النظرية ، وقد كان ، في الحقيقة ، كئيبرا ما يناقض المبادئ التي يعتزم اعتمادها ثم يتنكر لثباتها أو يتناساها (٥6) . فعد زيدان في آخر حاول أن يتحكم به في حركه الادب ، ذلك أنه تبني قانون "النشوء والارتقاء" واستعمله في تأريخه للادب العربي . وقد كان هذا القانون انتشر وشاع ، في أوائل هذا القرن ، بين المثقفين اللبنانيين أولا ، ثم نقلوه عنهم الي مصر عندما هاجرت طائفة منهم اليها فأدعوه فيها حتى جرى ذكره على السنة أصدر الناس معارضة للاخذ عن الغرب أو التأثر بأفكاره (٥٧) . ولكن حركة "النشوء والارتقاء" ليست عند زيدان حركة ذاتية مضممة بالكائنات الحية وما سابهما من العلوم والمعارف بل هي في الادب والفكر وليدة تلك العناية التي يحيط بها رجال السلطة والجاه الادب وأهله . فمن الأفكار الفارة عند زيدان أن الادب لا يزدهر الا في ظل ملك أو أمير يتعهد به ويأخذ بأيدي أهله (٥٨) . لذلك رأى أن

(٥٥) - تاريخ ... ص 254 .

(٥6) - من تناقض الزيات مع نفسه ما رأيناه من أنه دعا الي التأريخ للنشر قبل التأريخ للنوع في عصور الادب ، وأنه سبق التأريخ للشعر على التأريخ للنثر . انظر غني ذلك ص 39 من هذا العمل .

(٥٧) - أحد الرافعي مثلا بنظرية النشوء والارتقاء ، وأكثر من ترددها في كتابه ، رغم ما كان أظهره ، في أوله ، من حذس في مكافحة الآراء الواردة من الغرب . راجع

في ذلك تاريخ ... ج I ص 135 ، 175 .

(٥٨) - تاريخ ... ج II ص 19 .

الآداب العربية انما طلعت مزدهرة تحت الطولك والامراء العرب
ازدهارا يقابل ويضاهي مقدار اقبالهم على العرب المعاصرين
وأصحابها ، وأنها انما انحدرت عندها تسلسلا جادا
على البلاد العربية ، فلم تجد حينئذ من يأخذ بناظرها
وانصرفت الفرائح التي التصرف والى التفنن في البراعات
اللفظية ، ولكن العهد الذي حكم فيها الا جانب البلاد
العربية لم تكن خلوا من ازدهار مصارف أخرى غير الشعر
والنثر الادبي ، فقد نضج علم التاريخ شلا وبلغ كماله
في العصر المغولي ، وازاء هذه الظاهرة استعمل زبدان
فان دون النشور والارتقاء لسيطرت على تفكيره الواقع
وتشبهه ، فلناريخ انما ازدهر في العصر المغولي لانه
ولد في العصر العباسي ، وكان من القنطقي أن ينضج
في العصر الذي يليه ، وان كان هذا العصر عرضا لحظاظ
وسقوط . وهذا التصور هو الذي سمح لزبدان بأن يكتب
متحدثا عن العصر العباسي الرابع بعد أن عذر النجبات
التي ألفت فيه بالمجتمع الاسلامي ؛ " أمما العصر الذي نحن
بصدده ، فقد ظهرت فيه ثمار آداب اللغة الطبيعية التي
نمت وأورقت وازدهرت في العصر العباسي الثالث (39) .
ويبدو أن الآداب العربية لم تبلغ ادنى درجات الاعطاط ،
في نظر زبدان ، الا في العصر العثماني ، لانه لم
يلبس للأساسة العثمانية أي حظ من العلم مهما كانت
أنواعه وفروعها ، ولان انشغالهم بقهر الرعية ومصادرة الثروات
واذلال الناس قد صرفهم عن ذلك . فعذا العصر اذن هو
عصر هرم الآداب العربية ، وهو هو هم كساد تشرف به
على الهلاك والانقراض .

ان الآداب اذن عند زبدان لم تولد في عصر واحد
ولم تنشأ وتفتت وتكحل وتهرم في عصر واحد أيضا ،

وانما يختص كل عصر من العصور بولادة أدب أو علم أو فن أو نهضة أو اضمحلاله أو هجرته . حتى اذا كان العصر العثماني توفقت هذه الحركة الدافعة للأدب فلم ينشأ فيه أي جديد . وقد وصل زبدان الذي هذه الفكرة بالجمع بين الأخذ بنظرية النشوء والارتقاء وبين اعتبار الأدب كائناتاً مما تتحول به الحياة من طور إلى طور . أما عند الزيات فالدورة تنتهي في آخر العصر المماليكي لا في العصر العثماني مثلما عند زبدان . واثراً لثمة الدورة يبدأ الانهياك الجديد في العصر الحديث ولكن بدوافع من الخارج .

لا يجد الباحث عند مؤرخي الأدب بمنهج التفسير الذي عصور فهمها وأصبحها أو منسجماً متماكباً لاتجاه حركة التاريخ الأدبي . فهم يقسمون التاريخ الأدبي إلى عصور تطابق عصور التاريخ السياسي ، ويجعلون حركة السياسة تتقدم في حركة الأدب ، وهم يفسسون حركة الأدب كحركة الحياة الإنسان في أدوارها الأربعة ، ويأخذون بنظرية النشوء والارتقاء ويجعلون تاريخ الأدب تاريخاً دائرياً ينطلق بالولادة ويفقد عند الموت . وهذه الآراء المتشابهة أحياناً ، لا تدون نظرية ولا تدل على فهم واضح للامور .

يبدو ومنهج التفسير الذي هو صور في تاريخ الأدب وان انتشار انتشاراً واسماً بين المؤلفين ، كثير المشاكل والقضايا ، فلا اتفاق أصحابه على عدد العصور الأدبية في تاريخ الأدب الواحد ولا اخلصوا الوفاء لمنطلقاتهم النظرية فيه . ولا هم يبينوا طرق الانتقال من عصر إلى عصر في تاريخ الأدب ولا وقفوا على عوامل ذلك الانتقال وأسبابه ، ولا هم أفلحوا في تمييز العصور بعضها عن بعضها تمييزاً يجمع كل عصر منها قسماً قائمة الذات بئنة الملامح والحدود . ولا هم فهموا حركة الأدب

التاريخية فهمها صائبا فأدركوا أسرار الرقي والتقدم فيه
وتجنبوا تلك العناوين الممثلة التي أطفوها على العصور
فجعلوا بعضها عصورا نبها وبعضها عصورا زمنية وبعضها
الأخر عصورا ناطقة. لذلك فإنه يبدو أن هذا المنهج
لم يكن يمكن أصحابه من التوفيق في وضع تاريخ للآداب.

ب - مذاهب التفسير التي أغراض (90) : لم يلق منهم التفسير
الذي أغراض أدبية الانتشار الذي لقيه منهج التفسير الذي
عصور عند مؤرخي الآداب، ذلك أنه لم يأخذ به، منهم
الاعتماد قليل، رغم أن مستنداته النظرية لا تعدم أنصارا.
فقد رجع أصحاب هذا المنهج على عهد الآداب مستقلة
بمبادئها استقلالا لا مجال معه للتأريخ لها بغير

(90) - لم يستعمل الرافعي كلمة "أغراض" في الدلالة على تلك المعاني الكبيرة
التي استقرت فنونا يتكون منها الشعر العربي، وإنما استعمل ثلاث
كلمات هي : "البحاث" تاريخ ... ج I ص 24 و "الابواب" تاريخ ... ج III
ص 79 و "الأنواع" تاريخ ... ج III ص 79 أيضا، سأل أن يعبر بها عن
أقسام الآداب العربي التي تطورت الكتابة فيهما. وقد يدل هذا
على أن الرافعي لم يستقر بعد على مصطلح يفي بالدلالة على مقصوده،
و قد يدل أيضا على أن مقصود الرافعي من هذه الكلمات الثلاث لم يكن واحدا،
فهو قد أرح لأغراض الشعر العربي المعروفة مثل المديح والفخر والغزل،
وأرح لمواضيع وظواهر أخرى لا تشملها كلمة "الأغراض" مثل : التأليف
وتاريخه عند العرب، والمؤلفون، والرواة. من أن الرافعي قد
أرخ الذي جانب ذلك، والآداب الاندلسية حسب منهج الفلسفة
التي قرون زمنية. ومهما يكن من أمر فقد استعملنا كلمة
"أغراض" لأن عمل الرافعي يندرج، رغم ما فيه من تردد
وتناقض وخطأ، في ذلك التصور الذي اعتمده المؤرخون
في التأريخ للآداب حسب منهج القسمة إلى معان
أساسية تتطور فيها وتحولها.

الاعتماد على حركتها الذاتية، ومظاهرها استقلال الآداب بذاتها عند فهم عديدة، يمثلها اتجاهاً شديداً بنفس الكاتب يصدر عنها ووجدان القارئ تتجه إليه بالخطاب، ويمثلها استمساك الروائع الأدبية على الساسة تفرض ذاتها عليهم وان خاطبتهم بهتملاً لا يحسون، ويمثلها أخيراً جانب الجمال في الآداب، والجمال، في نظر أصحاب هذا المنهج، مطلق لا يقدر بالتاريخ السياسي أو الاجتماعي ولا يقاس به. على أن كثيراً من الباحثين يقيمون في ظهور هذا المنهج رد فعل قام به بعض المؤرخين على ما كان من انتشار منهج التقسيم الذي عصور وسيطرت عليه على تواريخ الآداب، ولكنه، على أية حال، رد فعل يهودي ومجسوداً لانسه أعطى أعمالاً أسهمت في إثراء فهم الأدب والفهم التاريخي.

ويبدو أن الرافعي، ولعله أول من استعمل هذا المنهج من المؤرخين العرب، قد اتخذ لنفسه موقفاً شبيهاً بمواقف مؤرخي الآداب حسب قسمته إلى أغراض، إذ اعتبر الأدب مستقلاً عن السياسة، ووضع عمله رداً على المؤلفات العربية التي انتهت فيها أصحابها طريقة التقسيم التي عصور. ولكن الحجج التي اعتمدها في البرهنة على استقلال الأدب، وفي التدليل على فساد التأريخ لـه بمنهج التقسيم الذي عصور، وكانت عنده من نوع خاص.

1 - المستندات الباطنية :

الأدب العربي مستقل عن السياسة، وفي نظر الرافعي، لأن الدعامة التي قام عليها التاريخ العربي كانت "أدبية محضة" (91) ، وذلك يعني أن الأدب ناب مناب السياسة والدين في تنظيم المجتمع الإسلامي طيلة العصور التي سبقت ظهور الإسلام، والدليل الذي يندم عليه على ذلك يتمثل في أن عرب الجاهلية اعتقدوا "شعر" سياسة

حتى " صار البيت الواحد يهبطه الشاعر في قوم لهم
النهاية والسرد والغسل ، فيدور بهم في النسيج ووان
الرجس " (92) . والادب العربي مستقل عن السياسة لانه ازدهر
أيما ازدهار قبل أن تظهر السياسة مجسمة في شكل
دولة ، وقبل أن يظهر الدين مجسمة من التكاليف تحكم
تنظيم حياة الفرد في علاقاته بتوحيده وبفكره . وإذا كان
الادب قد ظل مستقلا عن السياسة وازدهر ، فإن ذلك
يدل على أنه مستقل عنها (93) . فم ان الادب مستقل عن
السياسة لانه ، في نظر الرافعي دائما ، لا يرتبط في مسيرته
التاريخية بقيام الملوك وسقوطهم ، فلا هو يقوم معهم
ولا يسقط بسقوطهم ، وإذا هو احتاج اليهم ، فليس ذلك
بجواز ظهور نشأته وابتدائه أمره .

وإذا كان الادب مستقلا عن السياسة دذا الاستقلال ،
فإن تاريخه لا يمكن أن يقياس بالتاريخ السياسي . على أن منهج التقييم إلى عصور
لا يصلح أن يؤخذ به في العربية ، لانه آخري وتاريخ
الادب ليس من المعارف التي تعتبر أساسا منها ههنا بدخها عن
بعض ، ولأنه لا يتلاءم مع طبيعة الادب العربي .

فمنهج التقييم إلى عصور ، في نظر الرافعي ، هو
منهج ابتدعه المستشرقون فيما أرخوا به للادب العربي
من مؤلفات . ولكم انما ابتدعوه " قياسا على أوضاع
آدابهم فيما سمونه " *Littérature* " (94) . ولما كانت

(92) - المصدر السابق ج III ص 58 .

(93) - قال الرافعي في ذلك : " فقد كانت دعاية التاريخ العربي في
قيامهم أدبية مجسمة ، شبيهة بقاء الدين فاستبح السياسة والعلم . لا جرم
كان للادب عندهم تاريخ خاص لا يمتزج بالدين ولا بالسياسة ولا بالعلوم . تاريخ ...
ج I ص 20 .

(94) - المصدر السابق ج I ص 18 . وقد وردت اللفظة الغربية على تلك الصورة ،
والخطأ في رسمها ظاهر سواء أخذها الرافعي عن الفرنسية أو الانجليزية .

(95)

الآداب "مواصفات يتواطأ" عليها الناس، ويختلف بعضها عن بعض باختلاف الشعوب التي ابدعتها، ولم يحز التأريخ لأي منها مناصح تستنبط من مادة غيرها. لذلك فإن المؤلفات التي وممها أصحابها حسب منهج التقسيم التي عصور لانت "هجينة في نسبتها إلى أدب العرب" (96).

ومما يجعلنا لا نأخذ بهذا المنهج أكثر فساداً، أن تاريخ الأدب ليس فناً علمياً يحذف فيه الناس بمصنوع حذوهم (٠٠٠) وتتساوق فيه الامم على وضوح واحد (٩٧) وإنما هو من قبيل "الحوادث الزمنية" (٩٨) التي تختلف من شعب إلى شعب ومن أدب إلى أدب. ففقد تكون هذه الحوادث سرية التابع لدى بعض الشعوب في عصورها الرافية، وقد "تعمم بها الزمنية المتطاوله" (٩٩) في تاريخ بعض الشعوب الأخرى، وقد تكون "مقطعة كما هي في تاريخ الأدب السري" (١٠٠). وبناءً على هذا الاختلاف لا يمكن لمؤرخ الآداب أن يتصور حدوداً في الزمن ويعتمد على أسماء لتاريخ الأدب، إذ أن من الأقسام الزمنية ما لا حوادث أدبية فيها ولا تاريخ أدبي لها.

وإذا كان لا نأخذ بمنهج التقسيم إلى عصور لا يستقيم من أجل هذين الاعتبارين، فإن طبيعة الأدب العربي نفسها

(٩٥) - ذهب الرافعي إلى أن اللغة اصطلاح والسبب أن الأدب تواطؤ. المصدر السابق ج ١ المودان نفسه.

(٩٦) - المصدر السابق ج ١ ع ١٢.

(٩٧) - المصدر السابق ص ١٨.

(٩٨) - المصدر السابق الموطن نفسه.

(٩٩) - المصدر السابق ص ١٩.

(١٠٠) - المصدر السابق الموطن نفسه. ولم يمن الرافعي بتبيين وجهه التقطع في تاريخ الأدب العربي، ولعله كان يرى الأدب العربي انطلق راقياً ثم تناوى حتى انقطع، ثم بدأ ينحدر في النهضة الأخيرة.



لا تسمح بأن يكون للأدب العربي بمثل هذا المنهج . فطبيعة
الأدب العربي تختلف ، ففي نظر الرافضي ، من طابع سائر
الأدب . ولا يتمثل هذا الاختلاف في أن الأدب العربي إنما يفضل
آداب جميع الشعوب فحسب ، وهو رأي أكثر الرافضي من تكراره ،
بل هو يتمثل أيضا في أن الرجال فيه يختلفون عما هم
عليه في سائر الآداب . فالرجال في الأدب الأخرى يتصرفون
في اللغات ، ويحدثون فيها ، حتى أن الواحد منهم يناد
بكون مذهبا في الكتابة هو فيه "علم" (101) ، أما
في الأدب العربي فانهم ليسوا كذلك ، لأن سائر اللغة العربية
إنما هو ذلك "المعنى الديني" (102) الذي جعل الرجال
يبدؤون الكتابة أول ما يبدؤونها خدمة للدين . وليس
منهم من تصرف في اللغة العربية أو أحدث فيها حتى
قامت فصاحتها فصاحة الجاهليين أو ضارعت بلاغة القرآن .
وعلى هذا الأساس ذهب الرافضي إلى أنه لا يجوز أن
"تحشى" (103) التصانيف في تاريخ الأدب العربي "بالتراجم
الكثيرة التي تخرج بها" (104) إلى أن تكون "سجلا
ومباها" (105) ، ولا يصح أن تمرر فيها المؤلفات حتى
تلحق "بكتب الفهرست" (106) .

هكذا اذن ، وصل الرافضي إلى أنه لا الأخذ بالأقسام

الزمنية ولا التعريف بالرجال أو تكسر مؤلفاتهم مما يصلح

(101) - المصدر السابق ج ١ ص 21 .

(102) - تبادر هذه الفكرة متضاربة ، إلى حد ما ، مع ما ذهب إليه الرافضي من أن
تاريخ الأدب العربي لا يمتزج بتاريخ الدين وهو ما رأيناه سابقا . المصدر السابق ص 22 .

(103) - المصدر السابق ص 21 .

(104) - المصدر السابق الموطن نفسه .

(105) - المصدر السابق ، الموطن نفسه .

(106) - المصدر السابق الموطن نفسه .

انتهى حاجته في تاريخ الادب . وبما أن المؤلف من العرب قد
أدوا في أعمالهم بهذه العناصر جميعاً ، فإن تاريخ الادب
المصري بقي ، في رأيه ، " محتاجاً الى طريقة أخرى " (107) لا
تكون فيها " آداب لغتنا " حيلة على آداب اللغات الاعجمية " (108) ،
ولا يقاس فيها تاريخها بمقاييس أجنبية عن الخصائص
المميزة لها .

وفد رأى الرافعي أن الطريقة " المثلى " (109) في التأريخ
للادب العربي إنما هي تلك التي تقوم على الأبحاث لا على
الصور ، فهي " تخلص الادب بالتاريخ لا التاريخ بالادب " (110) ،
وهي تسمح بأن يؤرخ " كل بحث من مبادئه الى منتهاه
متعلها على كل العصور سواء اتسقت أم اختلفت " (111) . وبما
أن التأريخ للادب العربي حسب هذا المنهج يكون " أوفى
بالحاجة منه وأرد بالفاءة على طالبه " (112) من منهج
التقسيم الى عصور ، فإن الرافعي حاول أن يستعمله في
وضع كتابه . فماذا كانت قيمة ذلك في عمله ؟

2 - الممارسة :

أرج الرافعي في الجزء الثالث من عمله لأغراض عديدة
من تلك التي عرفت في الشعر العربي طيلة العصور التي
مر بها ، وكان التأريخ عنده يقوم على العناية بنسأه الغرض
وبما طرأ عليه من تحولات . ولم يتناول في عمله ، لا المباني
التي تعلق بالآغراض ولا طرق المتعة فيها لأن ذلك " من موضوع البلاغة

(107) - المصدر السابق ص 23 .

(108) - المصدر السابق الموطن نفسه .

(109) - المصدر السابق الموطن نفسه .

(110) - المصدر السابق ج I ص 24 .

(111) - المصدر السابق الموطن نفسه .

(112) - المصدر السابق ص 25 .

ونقد السحر" (113) في نظره.

والمتمأم في عمل الرافعي يلاحظ أنه إنما اعتنى في تاريخه للآداب العربي، بصلة نشأة الأغراض الأدبية، وتحديد عدد مختلف التغيرات التي أدخلها عليها الأدباء في معظم العصور. فالفخر والهجاء والمديح والرشا والتشبيب والوصف كلها أغراض اقتنتها طبعة العرب قبل الإسلام فنشأت في أيامهم ونمت. ثم دخلت عليها تغييرات جاءتها، في الغالب، مما حدث في المجتمع الإسلامي من تطور طيلة القرون الأولى. إلا أن هذه الأغراض لم تكن هي وحدها التي عرفها الشعر العربي، فقد ظهرت فيه أغراض أخرى جعلت الناس في حاجة إليها عوامل اجتماعية شتى أغلبها دخیل على الطبع العربي القديم. من ذلك مثلاً أن العصر العباسي شهد ظهور "الشعر الهزلي والقصص والعلمي"، وأن العهود المتأخرة التي جاءت إثر انقضاء العصر العباسي ظهرت فيها أغراض من قبيل "الموشح والدوبيت والشعر السامي أو المواليا". إن الحركة التي يفرض عليها المؤرخ في الآداب العربي هي ابن، هذه التي تنمشل في ظهور أعراضه بعضها اثر بمحض حسب حاجته المجتمع ودرجة الرقي فيه.

ولكن للآداب حركة ثانية عرفتها أغراضه غرضاً، ذلك أن لكل غرض من أغراض الشعر العربي تاريخاً خاصاً ابتداءً من نشأته وانتهى مع اندثاره أو توقف حركة التغير فيه. فالمدائح مثلاً كيان في الجاهلية "فخر كله لان أسس الباطنية البهوية فضيلة الاعتماد على النفس" (114) والناظر

(113) - المصدر السابق ج 11 ص 79.

(114) - المصدر السابق ص 94.

فيه لا يكاد "يجرد في شعر المهلهل أو امرئ العيس
 و طبعتهما ملحا مبني على الملق والمداهنه وتصنع الا خلاقي" (115).
 ثم تدرج نحو التكلف حتى جاوز معداره وصار كذبا
 خالصا، بتدرج العصبية البدوية الى الانحلال عند
 نزاع المجتمع الاسلامي الى التري والنسيم. ولندرت ابتداء
 هذا التدرج عند آخر العصر الجاهلي مع النابغة
 والأعشى (116)، ان اضطر الاول فيه الى الملق عند هربه الى
 النعمان، وامتدنته الثاني حرفة مبتدلة للتكسب. ولما
 جاء بنو أمية صار المديح صناعة يتقرب بها الشعراء
 اليهم. ولكن المحدثين هم الذين أكثروا من اصطاعه حتى
 أصبح الحلفاء يشترطون عليهم فيه، وصار البعز منهم
 ينفذ النصيحة الواحدة من ممدوح الى آخر (117). وقد
 كان من أمر تطور شعر المديح أن تولد عنده سحر
 اللديعة، وكيان ذلك "لما اشتغل التمدد الاسلامي
 وامتزج العرب بالفرس" (118). وهكذا يكون المديح قد
 مرّ بأربعة أطوار منذ نشأته في الجاهلية حتى
 توقفه في آخر العصر العباسي. الا أن هذا المرور من

(115) - المصدر السابق. الموطن نفسه.

(116) - المصدر السابق. م 9. قال الراجزي: والنابغة
 كان يتكسب من الساذرة والعساسة، وهم ملوك، فكان يرى () أن مديحهم
 لا بد أن يكون طبقة في السمر تساوى طبعتهم في الناس. ولما هرب من النعمان
 وجعل يمتدريه باعتذاراته المشهورة، عمد الى تجويد المديح وزخرفته ينفخ به
 كبرياءه فيصغر في جنبها ما أتاه ويتجاوز عنه () وجاء () الاعشى فلم تكن
 له همّة الا في المدح والهجاء.

(117) - المصدر السابق. م 9. قال الراجزي أيضا: "ويحسب
 الناس أن من نقائص شعراء المتأخرين أنهم ينفلون
 المديح من رجل الى رجل".

(118) - المصدر السابق. الموطن نفسه.

من دأور السى شورف... د كان فى الآن نفسه نزولا فى
القيمة من حالة السى حالة أخرى أقل منها بودة حتى
سقط فى الراداة والابتذان . ذلك أن المديح كان فى نسوره
الأول بدوينا محسنا فوامه المرقق وتعبيد مكارم الاخلاق ومحامد
الافعال وكان فى طوره الثانى على شىء من التمتع والوخفة ،
لان بسخر الشعراء هاجب بربه السى تخوم الخارة واستملبه
فى تعريض الفاسقة و المناذرة فاضطرب فيه السى التزويج ،
ولان يمسهم الآخرة رآشاعهم بين عامة الناس لا يرجو
منه الا النوال . وأما فى طوره الرابع فقد استغل بطريقته
واحترفه الشعراء فى مصانعة بني أمية وكان فى الظهور
الرايخ كذبا خالصا و ملقا ظاهرا .

ان حركة الاغراض الادبية عند الرافى اذن هي
حركة تنازلية تنطلق من أقصى الجودة وتسمى الرالى
أسوء الاوصاف وأفسدها . بل ان الحركة فى نشأة
الاغراض ايضا ، عنده شىء أيضا حركة تنازلية ، لان الاغراض
التي نشأت فى الباهلية أرفع وأرفى من تلك التي ظهرت
فى العصر العباسى ، ولان التي ظهرت فى العصور
المتأخرة أكثر رداءة وفسادا من التي ظهرت فى
العصر العباسى (119) -

هكذا أن الرافى لاغراض الشعر السرى ، فقد
كان يصرف عنايته السى نشأتها فيحاول تحديدها ثم

(119) - فان الرافى فى الشعر العزلى وقد ظهر وحسه ،
فى العصر العباسى ، " يتخصص به أناس لا يبالون أن يمسهم سواد الحمقى
وأهل المجون ، وهم يعلمون أنهم شعراء العامة ، وانهم لا يلحون السى
الخاصة الا من باب الطبع المنسجم ، ومن جهة
الدهن المتفكره . المصنوع السابق ع 138 .

يتبع النصف في سيرته التاريخية فيذكر ما أدخله عليه الشرح فيها من تغييرات. ولكنه ينظر إلى هذه التغييرات من الخارج فيبحث عن الأعلام الذين تناولوه فأحدثوا فيه أو طوره من غير أن يفهم على كيفية ذلك أو مصادره، وليس من الأمانة عليه إحراز ذكر الأعلام الذين طورو النصف والاشارة إلى ما جدد فيه من طرق. لهذا كان عقول الرافعي لا يمثل منهج التقسيم إلى أغراض تمثيلا حسنا وان ظهرت فيه مزاياه ونقائصه ظاهرا متفاوت الوضوح (120) .

3 - مزايا هذا المنهج ونقصاته :

لذا المنهج مزايا لا تنكر في إثراء النظرة إلى الأدب بنظرة تاريخية، إذ هو يبدو، للوهلة الأولى، أوفى الظاهر وأكثرها تلاؤما مع ذلك المسعى الذي يروم الباحث منه الوفاء على حركة الأدب وتطوره. وذلك لأن منهج التقسيم إلى أغراض يممكّن من إظهار التواصل

(120) - لسنا لا نخرج عن الموضوع أن نحن ذكرنا أن منهج التقسيم إلى أغراض في تأريخ الأدب قد مر بمرحلتين اثنتين : أحدهما كان يقتصر الختم فيها على سرد أسماء المؤلفات والمؤلفين ضمن الأغراض الأدبية غرضا غرضا، فانصرف عنه النقاد والدارسون ودعوا إلى تركه إذ لا غناء فيه ولا نفع به. والثانية حاول فيها الباحثون والمؤرخون أن يتألفوا نائثر المرحله الأولى فشففوا تسمية المؤلفات والمؤلفين بتأليل كثيرة تتناول الآثار الأدبية من حيث فنياتها وعلاقتها بأصحابها وعصورها، وبما سبقتها أو لحق بها من أعمال. انظر ذلك في : فضايا تأريخ الأدب ومناهجه . ندوة 18 نوفمبر التي عمدتها جمعية تاريخ الأدب الفرنسي . باريس 1974 .

Problèmes et méthodes de l'histoire littéraire. Colloque du 18 novembre.

Société d'histoire littéraire française. Paris 1974.

والانفـطـاع في تاريخ الادب ، كما يمتـد من التعرف على ما
يحققه الفـرض في تاريخه من انتشار أو تـفـلـص . من ذلك
مثـل أن هـذا المنهج فـرد مـن الرافعي من ادراك أن
العـزـل لـم يـكـن شـديـد الانتشار في أشـعـل الجاهليين ،
وأنه انما كثر في العصر الاموي لما فشا أمر
التـنـاء وكثر المغنـون ، وبلغ أوجـه في الانتشار على
أيـام الساسيين . ثم ان منهج التقسيم السـاغـر
يـسـمـح بالتمـر فـي أسباب الانتشار والاندسار
فـي تاريخ الغرض ، فالـز لـم يـكـن عـلى ألسنة
البانليين ، الويـسـح الاجتماعـي أثـر ذاك لا يـسـمـح بذلك ،
ولـم يـبـرز فيـه السـراة الاسلاميون لان الخلفاء
وعفـوا ضدهم في استعماله . ولـكـن هـذا العمل
لا يـتـم الا اذا اطلع المؤرخ على الادب العربي الطرعا
شاملا لا رقيفا ، وألـم بالمجتمع العربي والاسلامي الطام
يـكـفـي في التـمـر فـي الأسباب والعوامل التي تطـور
الـمـرض أو تـجـمـده . ان لـكـل عـصـر طرعه الخاص
في الفهم والتعبير ، والاغراض الادبية تعد من أشد
الظواهر تـلـاؤـمـا مع مقتضيات الحياة الاجتماعية .
وليـس من شـك في أن التـبـاير في الأغراض لا يـتـم بمـجـرد
النـسـر فـي نشأة النـرض أو تـسـيـة الاعلام الذيـن
ألـفـوا به بسـفـر التحولات ، بل يـجـب أن يـكـون ذلك مشفوعا
بأبحاث رقيقة تتناول أزمان الحـول وكيفيته وأسبابه
وأثـره .

ولـقـبـل الدراسات التي تقتصر على عـر واحد
من عـصـر الادب ، أو أثـر واحد من الآثار التـلي برزت
فـيـه ، لا تـفـرد على أن تقدم شيئا مما يقدمه منهـج
التقسيم السـاغـر من مـعارف تتـسـل إـتـاريخ الادب . فـيـه
الدراسات لا تـفـرد مـثـلا على أن تـظـمـر منطق الغرض الادبي
ولا تستطيع أن تـلـم بمـراحـل نموه أو تعطـله . فنـسـا رـيـخ

الادب ، بسبب منهج التفسير السفسطائي أغراض ، يبدو به ذا الاعتبار ، على غاية الأهمية والأفادة .

على أن لمنهج التفسير السفسطائي أغراض مزبلة أخرى لا تفرد فيه ، عن هذه التي كنا بسرد ذكرها ففسدوا بهـ المؤلف لأن يقف على تأثير الادب بهـ بهـ . فأصبحت هذه المنهج يحتقدون أن الادب لا يخلقون شيئاً من عدم ، وإن الابتكار أو الابداع لا يكونون يكونون تصرفاً في ما هو موجود بسرد . وعلى مدار الزمن في هذا التصرف تكون منزلة الادب راقية أو منخفضة سياسياً على السلف . ولكن قسم المصطلحات التاريخية هذا الفهم لا يكون نافعا إذا استعمل فيه المؤرخ هذه الطريقة التي اتبها الرافسي والتي لم تتجاوز سط من تناول النص الشعبي الواحد من الشعراء العرب في غالب حكايتي يكاد يكون سرياً كما في قوله : " ومما حدث بهمد الاسلام في طرث الرثاء الجفجف بين التزيين والتمنيّة (. . .) والذي ابتدأ بالاجادة في هذه الطريقة أهونواس (. . .) وأبو تمام من المدودين في اجادة الرثاء خاصة (. . .) وكان للرثاء شأن فسي أو الدولة الاموية " (121) ، وإنما يكون ذلك مجدياً إذا تناول المؤرخ آثار الادب بالبحث الدقيق ، ووقارب بين معانيها وبين الطرق التي تستعمل في تأدية تلك المعاني . ان النصوص الادبية في حاجة إلى تدريسها فنياً يبرز خصائصها الفنية حتى لا تعد مجرد وثائق ليس لها ما يميزها عن غيرها من النصوص ، وإن الاعلام في حاجة ألا يعدوا مجرد أسس يقرأ فيهم تواصل الاعلام اغراض الادبية فحسب .

ولكن الممل بهذا المنهج يجعل مؤرخ الارباب يضطرم
بعضها عند ريدة لا تقبل خطورة عن تلك التي اضطرم بها
أصحابها منهج التفسير الى عمور.

ومن هذه الفصايل أن الممل بمنهج التفسير الى
أغراض كثيرة ما أصبح عند المؤرخين ، تعدادا بسيطا
لأسماء أدباء لا يجمع بينهم سوى أنهم تناولوا في بعض
أعمالهم غرضا واحدا من أغراض الارب . وبما أن هذه
الاسماء ترتب في الغالب ترتيبا زمنيا ، فإن التأليف في
تاريخ الارب تصبح من جراء ذلك مجرد فائضات في أسماء
الاعلام . ثم إن هذه الاسماء لا تكاد تسفح الا بتلك
التعليقات البسيطة التي لا تفيد عن الأديب وأدبه شيئا
كثيرا . ولعل عمل الرافعي يفسر أحد الأمثلة التي
تجسم فيها هذا العيب ، فقد أكثر من تعداد أسماء
المعراء كما في هذا الشاهد : " من الوصافين المتفنين
في الاوصاف علي بن اسحاق المعروف بالراجحي المتوفى
سنة 352 ، وأبو طالب المأموني المتوفى سنة 333 ، وله
أشياء كثيرة فيما يجري مجرى العويس ، واشتهر كشاحم
بالآلات المنادمة والصنوبر بالروضيات ، وابن خفاجة الاندلسي
بأوصاف الطبيعة الحضرية وابن حمديس الصقلي بأوصاف البرك
والمياه والانهار " (122) . وهذا التعليق يذكر الاسماء
فرد جعل المؤرخين لا يعتبرون في أعمالهم المحيطة
الاجتماعي ولا يراعون العوامل المؤثرة في الارب ، ولا يقيمون
للقيم الحالية في النص و ما ي وزن . وليس من شك في
أن تعداد الاسماء لا يمكن أن يعد من تاريخ الارب .

على أن منهج التفسير الى أغراض يضطرم بضميمة
أغراض شديدة الخطورة في تاريخ الارب ، فكثيرا ما يكونون

الفرض الادبي من ابتداع المؤرخين ، وكثيرا ما يكسرون
تواصله من افتعالهم ، وأما في حقيقتهم الامـ ر فلا وجب للفرض
نفسه ولا وجود لتواصله . من ذلك علة أن الرافعي رأى
للمعرب أغراضا علمية وحكيمة وقصصية في أشعارهم الجاهلية
في حين أن هذه البانسي لم تتكون بعد أغراضا فائضة
بذاتها مثلما الفزل فائضا بذاته في المصنوع الجاهلي .
وليـ سر أدل على ذلك من أن الرافعي بعد أن قلب النظر على
وجوهه في شعر العرب الفصحي انتهى الى قوله :
" ان الشعر الفصحي - بالمعنى المصطلح عليه - لم يكن
في طبيعة العرب ولا هو من مقتضيات اجتماعهم ، فتم لهم
ينظموه في جاهليتهم قطعاً ، ولم ينظمه من بعدهم
لوفوفهم عند حـد التليد " (123) . ومن ذلك أيضا
أن الرافعي أراد أن يجسد في الشعر الجاهلي شعرا حكيميا
يمدح بشؤون الدين فعـال : " لم نعتبر بعد جهـد
التقيـس وطـور التنقيب الا على [اثنين] من الشعراء اشتهرا
بهذا النوع الديني من الشعر . . . وهما عدي بن زيد العبادي
وأمية بن أبي الصلت " (124) . فهذا المنهج اذن يصرف
عناية المؤرخ الى الأغراض يحاول تبينها في كل شيء ،
فيفتعل أغراضا لم تكن ، ويتصور توطأ للأغراض لا حقيقة
له في الواقع .

ومن قضايا هذا المنهج أنه ينطـر المؤرخين
الى اجمال المؤلفين ، فهو ان سمح بتعداد اسائهم
ذلك التعداد البسيط ، فانه لا يسقـح بالوقوف على تلك
العلاقة التي تصل ما بين الاديب وأدبه . ذلك أن منهج
التسيـم الى أغراض جعل المؤرخ منشغلا بالفرض الادبي

(123) - المصدر السابق ع 147 .

(124) - المصدر السابق ع 127 .

يحدث عن تطوره أو تجمده ، فلا يقف على الأديب
ولا يعنى بهم . بل هو يعمد في معظم الأحيان إلى
تفتيت الأديب الذين تناولوا في أعمالهم أغراضاً عديدة ،
وجعل الأديب العرب كذلك تعريفاً ، فيذكرهم في الفزل
حيناً ، وفي المدح حيناً ، وفي الفخر حيناً ، وهكذا
التي نهاية الأغراض . وما يدل على ذلك أن الرافعي ذكر
بشاراً في المنجاء فقال : " وأشهر المحدثين بالإنجاء
على هذا الوصف بشار بن برد " (125) ، وذكره في
الفزل فقال : " . . . حتى ظهر أبو المحدثين بشار
ابن برد ، فأفرط في الصنعة لأنه أعمى وبالغ في تصوير
الاحساس " (6 - 1) . وليس من شك في أن تفتيت الأديب
وتوزيعه على أغراض عديدة ، يفضي على ما في عمل
من وحدة ويجزئه أجزاء لا غناء فيها .

ثم إن هذا المنهج يتمل ما بين الأثر الأدبي
ووسطه الاجتماعي من علاقات أهملها ما بين الأديب وأدبه
من طلات ، فقد رجع المؤرخون به على عدم راحة
الوسط الاجتماعي الذي تظهر فيه النصوص فلا يفتقرون
على العوامل الحقيقية التي حملت الأديب على
إحداث التحول فسي الاعراض . وذلك لأن المؤرخ بهذا المنهج
انما يهتم أولاً وبالذات بنشأة الغرض وتطوره فلا يكتفى
ما عدا ذلك من أشياء . وهذا الأسلوب هو الذي جعل عمل
الرافعي لا يكاد يخرج عن تنبج ما حدث للأغراض من جديد ، وثيرة
هي التباير الدالة على ذلك في كتابه ، إذ استعمل منها :
" وقد مر عصر . . . ومما حدث . . . وجاء به هؤلاً . . . ثم نبغ " (127) .

(125) - المصدر السابق ص 91 .

(126) - المصدر السابق ص 116 .

(127) - لم نعرف أية في الحالة على مواطن معينة وردت فيها
هذه المبارات ، فدني منشورة في عمل الرافعي لا تكاد تخلو
منها صفحة من صفحاته . انظر على سبيل المثال تاريخ . . . III ص 139 . 141 .

على أن اهتمال هذا المنهج تلك المصلحة التي تربط
بين الاديب وأدبه، وبين الادب ووسطه، وقد جعل المؤرخين
يهملون النصوص الادبية نفسها، فلا يقفون عليها الا بذل
المقدار الذي يسمح لهم بالتأكد من تواصل الفرض أو انقطاعه.
وأما خصائص النصوص الادبية الفنية، وأما المعيار الجمالية
التي يجسدها وأما شكلها الفني، فلا يكتفي المؤرخون
بأنهم من خلالها بشيء، ولا يخافون أن اهتمال هذا الجانب
إنما هو اهتمال للكيفية التي تتحول بها الاغراض من
حال إلى حال، فلا يكفي أن يقال لنا ان الهجاء
كان موجودا في العصر العباسي مثلما كان موجودا
في الجاهلية والعصر الاموي، بل يجب أن نعرف خصائص
الهجاء في هذه العصور الثلاثة، وان نفهم على ما
أدركه عليه شعراء العصر الاموي والعباسي من تغييرات.

ومن قضايا هذا المنهج^{أيه} كثير ما يفرد الس
تدريس السلف والس في فهم حقوى الخلف في الفهم الواحد.
عمو يوهم بأن الابداع أو الابتكار أو الخلق إنما كان
للسلف الذين ابتدعوا الفرض، وأن اللاحق بهم ممن
الاباء اكتفى بالمواظفة وبالاخذ عن الذين سبقوه.
بين ان الادباء اللاحقين كثيرا ما يظهرون مثقلين بنموذج
التراث، لا قدرة لهم على التصرف الا في بعض جوانبه
تصرفا يراخيه الدور العام الذي تلائم مع القديم وتأثر به.

ولعل الرافضي إنما اختار هذا المنهج لانه يسمح
لده بخدمة فرضه في نفسه طبعه مؤلفه فسي
تاريخ الادب العربي بظواهره العنصرية، وقد رن في
مجلداته الثلاثة على الانتصار للعرب القداماء
على المحدثين القدامى والمحدثين المعاصرين
على حد السواء، وكثيرت في كلامه تعابير من
هبل والاختراع في شعر العرب مما يظلمون

به عنده المحدثين والمولدين" (128) أو "وفد جلاء المحضرون ولا مزيدة لهم على شمر الجاهلية في في الاختراع" (129) أو "ولسوا بقي الأمر بسد الدولة الأموية عربيا كما كان فيها لظهور طبقات أخشى تستحق التاريخ" (130). وليتفهم شك في أن الانطلاق في تاريخ الأدب من المعتقدات السابقة يلحق بالأعمال ضررا كبيرا.

وهنا أيضا يبدو منهج التفسير إلى أغراض في تاريخ الأدب كشير القضايا جسم المشاكل، فقد حاول أصحابه أن يخرجوا على تلك الآلية التي تجعل الأدب يتبع في تاريخه التاريخ السياسي، ولكنهم وقعوا في مخاطرة أخرى لمثل أبرزها ما ذكرناه من أنهم يتعلمون بالأسما يذكرون بعضها اثر بصير دلالة على تواجد الأغراض وبغائنا فيهم لون الآثار أو يحزؤونها تجزئة تلحق بها أضرارا جسيمة أو يهملون غلاتها بعضها ببعض وبالوسط الاجتماعي السدي تطمر فيه. ومن هذه الناحية يبدو منهج التفسير إلى أغراض فاصرا عن تقديم تاريخ للأدب بالمعنى المنتظر منه.

خ - منهج التفسير إلى مدارس : ألم يقدم طه حسين في كتابه في الأدب الجاهلي عملا في تاريخ الأدب بالمفهوم الشائع لهذا العلم الحديث في تلك المؤلفات التي كثر الإقبال على تصنيفها منذ ابتداء القرن العشرين وطيلة النصف الأول منه. ذلك أن الناقد المصري أعلن في أكثر من مناسبة، أنه لا يصدق عليه إلا إلى "عرض النهج" (131) السدي آمن بصلاحيته في تاريخ الأدب و "امتحانته".

(128) - الرافعي : تاريخ ... ج III ع 54.

(129) - المصدر السابق ص 55.

(130) - المصدر السابق ص 91.

(131) - في الأدب الجاهلي ... ع 307.

فالمناينة بالمناهج كانت ، على ما يظهر ، شغل طره حسين
الشغل أثناء تأليفه كتاب " فني الادب الجاهلي " .

ولعل هذه المناينة هي التي جعلت طره حسين
يخصص صفحات عديدة من عمله لتفرد المؤلفات التي
صنعها معاصروه في تاريخ الادب العربي ، والرد على ما
اصطنعوه فيها من مناهج . فتورد نبذة النثر ، ومسيرات
عديدة ، التي ان المؤلفات التي قدمها أصحابها على
أنها من تاريخ الادب ، ليست كذلك ، وقال : " لا ينبغي
أن تدعى هذه الالفاظ المسحذة في الادب ، ولا هذا النحو
من التأليف الذي يفهم التاريخ الادبي الذي عرّفه
وبارل أن يدخل فيه شيئاً من الترتيب والتنظيم ،
فذلك كله عناية بالقصور والاشكال لا يمس الباب ولا
الموضوع " (132) .

ولعل هذه المناينة أيضاً هي التي جعلت طره
س حسين على أن يدعو إلى اصطناع منهج ديكارت في
البحث والتحقيق ، عن الحقائق الماضية ، وأن يسيّر السبيل
منحسرين سينيلوبوس في التاريخ ، هو يفتتح منهج التفسير
الذي مدارس فنية ، وأدوات عمل في وضع تاريخ الادب العربي .
وإذا كانت " القاعدة الأساسية في منهج ديكارت هي
أن يتحدد الباحث من كل شيء " كان يعلمه من قبل ،
وأن يستبعد موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل خلوا
تماماً " (133) ، وإذا كان منحسرين سينيلوبوس في البحث هو
ذلك المنحسرين التاريخي الذي يفهم على التجرد من الالهوا
والسوايف وعلى تدعيم العقل في مختلف الظواهر
واستخلاص الحقيقة منها استخلاصاً منطقياً ، فإن منهج التفسير
الذي مدارس في تاريخ الادب يعتمد ، أول ما يعتمد ، على

(132) - المطر السابق ص 63 .

(133) - المصدر السابق ص 68 .

البحث العقلي في التعرف على نشأة مدارس الادب وعلى
طريق تطورها في التاريخ .

ولكن لهذا المنهج مستندات نظرية يحسن
الوقوف عليها أولا قبل التعرف على طرق العمل به وعلى ما في
ذلك من مزايا .

1 - المستندات النظرية :

يـرجـع ظـهـور منهج التفسير الذي مدارس فـي
تاريخ الادب، من بين ما يرجع اليه، الى ما شهدته الترقى
التاسع عشر بأوروبا من انفصال المعارف بعضها عن بعض
بالموضوع والمنهج والمصطلح، والى ما أخذ به التعليم
في المدارس الحكومية من اعتماد شرح النصوص في دروس
الادب، والى تلك الحركات الادبية التي تتالت سريضة منذ
طـهـرت الرومنطيقية تـضـع حـدا لمصر " الكلاسيكية " وتـبـشـر
بانعشاق الادب من قيودها . لذلك كان أصحاب هذا
المنهج كـيـمـرا ما يعتمدون على تعريف الادب تعريفا
يراعي خصائصه من حيث هو فن في الكتابة خاص،
والى الوقوف طويلا على الطرق التي يأخذون بها في
درسه أو نقده أو التأريخ له .

والادب في عرف أصحاب هذا المنهج، هو طـهـ
حسب أحد هم، وهو تلك النصوص الباثورة التي تأخذ
س الحمال الفني بنصيب فرد يكون كبيرا وقد يكون صغيرا
على مقدار حظها من الجودة، ولكنه لا سبيل الى خلوصها
منه خلوا تماما . فتشعر عريت النصوص تماما من
الحمال الفني لم تتصف بصفة الادب . وهكذا فان
الجمال الفني هو الذي يعتزده أصحاب هذا المنهج
في تخلص النصوص الأدبية مما ليس منها .

ويعتقد أصحاب هذا المنهج أن الناس جميعا - اذا

سلمت أذواقهم - يحسبون بجمال النصوص الأدبية ويشعرون به ، فالنفاد مثلا ، ان اختلفوا في رد الجمال الفني الى اللفظ حيننا والس المعنى حيننا ، والس اجتماع اللفظ والمعنى حيننا آخر ، وان اختلفوا كذلك في عده في الصدق حيننا وفي المبالغة والكذب حيننا آخر ، لهم يختلفوا في الاقرار بأنه يتوفر في النصوص الأدبية جميعا . و اذا كان الناس يشعرون بجمال النصوص ، و اذا كان النفاد يتفنون على توفيره في الآثار الأدبية كلها ، فذلك يعني أن الادب مظهر من مظاهر الجمال الفني الحالي يتجه الى كسب الناس ويؤثر في كل الناس .

ولكن الادب ، وان كان مظهرا من مظاهر الجمال المطلق ، يمتد عن شخصية صاحبه وعن عصره ، لان الاديب يقتطع من ذاته في أدبه ويصدد عن نفسه ، ولا نبيه لا يمددو أن يكون كائنا اجتماعيا يتأثر بما يتأثر به مجتمعه من فضايا ويخرج لما يخص له وسطه من عوامل .

ونجد أثر تعريف الادب بهذا التمريف في المنهج الذي يصطنع في درسه ونقدته والتأريخ له . فيما أن الادب انتاج كلامي محصور بالجمال الذي يتوفر فيه ، استرط هؤلاء المؤرخون أن يكون المنهج المستعمل في تلامه غير متيسرا من العلم والفن . فالعلم والموضوعية انما تستعمل في استكشاف النصوص وفي تحقيقها وفهمها ، وأما الفن فيستعمل في الوفاء على مظاهر الجمال في النصوص ، وفي تقديرها . وهكذا لا نهمل الحقائق التاريخية ولا نهمل جانب الجمال في الادب .

ولكن ما هي طرق العمل بهذا المنهج وما هي الضايا التي يصطدم بها ؟

2 - العمل بهذا المنهج :

يشتمل العمل بهذا المنهج ، أول ما يتمثل ، في التساؤل عن التراث الأدبي وعن مدى الصحة في نسبة نصه الى

أصحابها أو إلى عصـورها ، وقد عبـر طه حسين عن ذلك بعـولـه : " بين أيدينا سؤاله الشعـر الجاهـلـي نريد أن ندرسها وننتهي فيهما إلى الحق " (134) فنتساءل : " أهناك شعـر جاهـلـي ؟ فان كان هنا كـ شعـر جاهـلـي فما السبيل إلى معرفته ؟ وما هو ؟ وما مداره ؟ وبم يمتاز عن غيره ؟ " (135) . وهذا التساؤل عن التراث يؤدي إلى الخلل بأبحاث كثيرة تصبط النصوص و مرجح نسبها إلى أصحابها وإلى عصـورها ، وتبين مدارها ومقدار ما لحقها من تحريف أو أهـمال أو ضياع . وهنا يقـوم مؤرخ الأدب بذلك البحث التاريخي الذي يتمثل في التأكـد من المصادر والوثائق وفي التثبت منها ومن فهمها . وهو في هذا العمل لا يكتفي بنصوص دون نصوص ولا بمختلفي أعلام دون أعلام " وذلك لأن تاريخ الأدب مضطرب إلى أن يتناول بحثه الشعراء مهما يختلف خطهم من الإحادة ، ومهما تتفاوت طباعتهم ، فهو يعرض للشعراء النابضين ، كما يقف عند الشعراء الخاملين ، وكما يعنى بأوساط الشعراء " (136) . فإذا لم لـه

(134) - المصدر السابق ص 62 .

(135) - المصدر السابق ص 64 .

(136) - المصدر السابق ص 13 . لقد وردت هذه الفكرة عند لـانـصـون في البرنامج الذي اقترحه لوضع تاريخ معنى بتاريخ فرنسا الأدبي ، وهي فكرة ستناولها في مكان لاحق . ولـسـنا نعرف أن كان طه حسين قد استلما من المؤرخ الفرنسي الشهير أو أن كان التفكير في تاريخ العرب هو الذي أوصله اليها . فطه حسين لم يُـحل على لـانـصـون ونـد عـودنا بالاحـالة على الديـن تأثـر بهـم ، وعلافة تفكيره بأعمال لـانـصـون بينة جدا . أنظر في ذلك : مفتاح طاهر : طه حسين نفـدـه الأديبي ، ومصادره الفرنسيـة . الدار العربية للكتاب . تونس 1976 .

تـهـنـا تـهـنـا : Taha Houssein ; sa critique littéraire et ses sources

françaises . Editions Maison arabe du livre . Tunis 1976 .

كمب والاعشى والناخلة والحديثة. فالذي يجمع بين من هؤلاء الشعراء انما هو اعتبارهم "الشعر فنا" (138) أخذوا له الجهد ، واعتنوا فيه " بجمال الصورة والشكل عناية لا تفد عن عنايتهم بجمال الموضوع والعننى " (139) وأكثروا منه من التشابيه والمجازات والاستعارات. والنظير في شعر هؤلاء الشعراء هو الذي مكن طه حسين من أن يكتشف أن صورهم وتشابيههم ومجازاتهم تعتمد على المحسوس واللمس. ولما كانت نظرية هؤلاء الشعراء التي العمدة الشعرية نظرية واحدة ، وكان موقفهم منه واحدا ، وطريقتهم في الآراء والتأثير به واحدة ، فانهم يمثلون مدرسة شعرية من تلك المدارس التي يتكون منها الشعر الجاهلي والتي تنتظر من يكتشفها الواحدة بعد الاخرى .

ولا يفد عمل مؤرخ الاداب بهذا المنهج عند اكتشاف المدارس الادبية والتصرف على الذي وصلوها ، بل هو يفتنى أيضا بقضايا بين المدارس العديدة من علاقات في العصر الواحد . ذلك أنه من شأن المصير الواحد أن تتأثر فيه المدارس العديدة وأن يكون فيه بين أصحابها ضروب من التنافس وألوان من الصراع . لقد ذهب طه حسين مثلا إلى أن التنافس كان قائما بين أصحاب المدرسة الضعيفة التي يتزعمها أوس بن حجر وبين أصحاب أحزاب مدرسة أخرى من أعلامها الشماخ وحسان ابن ثابت والمنخل (140) ، وأنه كان للشعراء ، منذ الجاهلية ، احساس بالانتماء إلى مدرسة من المدارس يحاولون نصرتها .

(138) - المصدر السابق ص 273 .

(139) - المصدر السابق . الموضع نفسه .

(140) - المصدر السابق . ص 201 .

ويجلب الآ يكتفسي مؤرخ الاداب ، ففي نظر أصحاب هذا
النمـج ، بالتعرف على المدارس الادبية وعلى ما كان بينهما
من علاقات ، فعمله لا يتم الا بالوقوف على حركة الادب
داخل كل مدرسة . فالشعراء لا يكتفون بالانتماء الى
مدرسته من المدارس الادبية ، بل هم يطورون خصائصها
ريفيرون اليها ويحدثون فيها . من ذلك مثلا أن نمو الحياة
الاجتماعية قد يلزمهم بتناول مواضيع لم يتناولوها أسلافهم
في أشعارهم من قبل ، وأن تطوّر الذوق العام قد يجبرهم
على التجديد في طرق الاداء وخصائص التعبير . فحركة
الادب اذن ، عند أصحاب هذا المنهج ليست وليده نساء المدارس
وبافسها بحسب ، بل هي أيضا وليدة تطوّر المدارس
نفسها ، وهو تطوّر تسهم فيه شخصية الاديب وحالته
النفسية على حدّ السواء . ومن هنا اضطر مؤرخو
الادب الى الوقوف على شخصيات الادباء كما تتجلى في اشعارهم
وفي ما فاعلوا به من أعمال وما كانت لهم من منازل
اجتماعية ، والتي العناية بالعصور التي نشؤوا فيها وتأثروا
بها و أنثروا فيها . من ذلك مثلا أن طه حسين ذهب الى
أن "الدرس الفاصل لديوان النابغة يستطيع ان يظهرنا على
طائفة من الحوا دث الدفينة التي تبين لنا بمحض الشيء
حياة النابغة و كانته الاجتماعية في عشيرته " (141) . بل
هو ذهب الى أن الدرس الفاصل لديوان النابغة " يوضح
ناحية لا نقول من حياة النابغة وحده بل نقول من الحياة
السياسية الداخلية والخارجية لعرب نجد آخر المصـرر
الجاهلي " (142) .

ولعل هذه العناية بشخصيات الادباء ، بعد توزيعهم
على المدارس التي يندرج فيها إنتاجهم ، وبالاوساط الاجتماعية

(141) - المصدر السابق ، ص 301 .

(142) - المصدر السابق ، ص 302 .

التي عاشوا فيها ، هي التي جعلت مؤرخي الأدب حسب هذا المنهج لا يقطعون منع منهج التقسيم إلى عصور قطعاً تاماً ، ذلك أن ألفاظاً من قبيل "العصر الجاهلي" ، وعصر الدولة الأموية والعصر العباسي " تتردد كثيراً على لسان طه حسين . ولعل مفهوم العصر السياسي يطول عند هم الطارء عاماً لحركة الأدب حركة نشأة وحركة تنافس بين المدارس وحركة تطوّر ملائم للحياة الاجتماعية العامة والخاصة (143) . أولئك أصحاب هذا المنهج لا ينكروا من منهج التقسيم إلى عصور سوى غير التاريخ الأدبي بالتاريخ السياسي والاقتصادي في تاريخ الأدب على تسجيل ظهور الأعلام والفنون و دون تعمق في النظر في النصوص ودون التوقف طويلاً على خصائصها الفنية .

على أن منهج التقسيم إلى مدارس ، وإن جعل حركة الأدب تتمثل أساساً في نشأة المدارس الأدبية وفي تفاعلها في الزمن وتنافس بعضها مع بعض في العصر الواحد ، وتطورها من عصر إلى عصر بتطور الحياة الاجتماعية ، لم يقطع منع منهج التقسيم إلى أغراض مطعماً باتاً ، ذلك أن أصحابه يحتنون أيضاً بنشأة الأغراض الأدبية . لقد كتب طه حسين متحدثاً عن فنون الشعر العربي : " وقد يكون من الخيّر أن نعرف تاريخ هذه الفنون وكيف نشأت عند العرب . (. . .) وليس من شك الآن في أن الجاهليين قد وصفوا ومدحوا وهجوا ورثوا . وليس من شك أيهما في أنفسهم قد ألبسوا بركب النساء . ولكننا نرجح أن فنونهم المزل لم يتم عندهم ، وإنما تم وقوى في الإسلام أيام

(143) - المصدر السابق ، ص 20 . استعمل طه حسين العبارة التالية " وقد تطورت هذه الفنون الأدبية " كلها تطوراً ملائماً للحياة العربية العامة والخاصة .

هنسي أمية ، كما أنه في هذا العصر ظل معصورا على النساء ، فاما كان العصر البعادي تناول العلم ان فاسرف (144) . فطور الاغراض الجديدة وطورها ان من مشمولات نظم مرزخ الاداب حسب هذا المنهج . وفي الحقيقة فان ذلك يتدرج في ما يأخذ به اعلام العلم والادب من منعان يفرضها عليهم تطور الحياة الاجتماعية .

ان منهج التقسيم الى مدارس لا يفرض منهجي التقسيم الى عصور والى أغراض ، وانما يركز البحث على نشأة المدارس وعلى تطورها ويعتبر أكثر سمما على درر النصوص وفهمها في تاريخ الادب . ولعل ديدا ما جعل فيه حسن يقول عن عمله : " وادن فتاريخ الادب الذي نريد أن نستحدثه الان ليس اشياء ولا اختراعا وانما هو تجديد واصلاح لما ترك القدماء لا أكثر ولا أقل " (145) . ولكن منهج التقسيم الى مدارس ليس جمعا أو توفيفا بين منهجي التقسيم الى عصور والى أغراض ، ان هو يتجاوزهما معا الى تصور دقيق لتاريخ الادب يطوره وينزع به الى درجة رفيعة في فهم الظاهرة الادبية ودرسها درسا تاريخيا .

3 - مزايا هذا المنهج وفوائده :

لعل أجمل مزايا هذا المنهج وأطهرها أنه حاول للمرة الاولى أن يلائم بين تاريخ الادب وبين الموضوع الذي يمالجسه . فلان الادب نموص ظهرته في الماضي استعمل أصحاب هذا المنهج طرق البحث العلمي في استنباطها واثبات صحتها وتحقيقها وفهمها . ولان هذه النصوص تختص بالجمال الفني استعمل المؤرخون

(144) - المصدر السابق . الوطن نفسه .

(145) - المصدر السابق ص 36 .

المهـج الفني في التعرف على مواطن الجمال فيها . وهذا الجمع بين العلم والفن هو الذي جعل من المؤرخي الادب حـسبه يتحلون " برن العلم " من غـير أن يتشبهوا بالموضـوعية التامة فيه . ويتصفون بذاتية الفن من غير أن يقتصروا على انطباعيته . وتبدو هذه المحاولة على غاية من الاهمية لانها تتضمن شعـور أصحابها بأن الادب ليس من الطواهيـر العلايـة التي يمكن اعتمـالها بمنهج واحد . لذلك اهتدى أصحاب هذا المنهج الى أن الادب كائن خاص فحاولوا أن يجدوا له نهجاً خاصاً يؤرخونه به .

ويبدو أن الاهتمام الذي خصوا به الادب هو الذي جعل المؤرخين يجدون في تاريخ الادب تجديداً يكسار يكون ثورة على المألوف من المفاهيم والمناهج المعمودة . ذلك أنهم استبدلوا الوحدة الزمنية في نهج التفسير الى عنصر والوحدة النثرية في نهج التفسير الى أغراض ، بالوحدة الفنية عندما بحثوا عن خصائص التعبير وطرق الاداء التي تتمع بين أدباء كـثيرين في عصر واحد أو في عصور متعددة وتجعل لآثارهم مميزات واحدة مهما تنوعت مواضيعها وتباعد أغراضها . من ذلك مثلاً أن طـبـقه حـسبه رأى أنه يمكن أن يجمع في المدرسة البيانئية الضرورية شعراء جاهليون من قبيل أوس وزبيـر والحدائـة ، وندراء عباسيون من قبيل سلم بن الوليد وأبي نـعام وابن المعتز والمتنبي (146) . إذ أن هؤلاء الشعراء اعتمدوا على التشبيه والاستعارة والسجع في شعرهم وأكثروا منها واقتنوا في التصرف فيها (147) . وليس من شك في أن هذا المنهج عندما يأخذ بالوحدات الفنية في تاريخ الادب العربي ، يحتاج مع مفهوم العصر في التفسير الزمني ، ومفهوم العرض في التفسير الى أغراض ، الى مفهوم آخر أشمل وأكثر اتساعاً بخصائص

(146) - المصدر السابق ص 272 .

(147) - المصدر السابق الموطن نفسه .

الادب منهما ، فمشـو يتناول النصـوع الادبيـة من ذلك الجانب
التحليلي الذي تتميز به عن غيرها من النصـوع ، و تتسبب
صفة الادب .

ومن زلما هذا المنهج ، وأنه في اعتماده البحث
العلمي والفني ، يضطر مؤرخ الادب الى التثبت من
التراث ، وورد نصـوصه الى عـصـورها أو أصحابها أو المدارس التي
تدرج فيها . و تبرز هذه الميزة على عاية من الاهمية
لما في الادب العتيق من نـحل كثير و خـ كبير في نصـوصه
وفني نسبتها الى غير أصحابها وغير العصور التي ظهرت
فيها . وبما أن تاريخ الادب لا يمكن أن يتم ما لم تعرف
معظم نصـوصه و تتسبب الى أصحابها وعـصـورها ، فان
أصحاب هذا المنهج حاولوا أن يحددوا التراث الادبي
السري ، وكان معولهم في ذلك على البحث العلمي
التاريخي في استكشاف نصـوصه ، وعلى الاتجاهات الفنية
في رد الاثار الى أصحابها والى العصور التي ظهرت
فيها . و لـفـد كانت لطفه حـسين في هذا المجال وقفة
مشهورة على الشعر الجاهلي وعلى قصيدة النـحل فيه .

على ان الاهتـداء الى المدارس الادبيـة والى النـصائـف الفنية
التي تميز بعضها عن بعض ، والتثبت من التراث لا يتم الا بادامة
النظـر في النصـوع الادبيـة واطالة تدبرها . ومن هنا
كانت لهذا المنهج مزية التعمق في فهم النصـوع . ان لا يمكن
لمؤرخ الادب أن يعـول على كتب التراجم والطبائ أو على كتب الادب
القديمـة بأنواعها في الظفر بالمدارس الادبيـة أو في التعرف على
طرق نموها وتطورها ، وانما هو يلتمس ذلك كله في النصـوع
الادبيـة نفسها عندما تطول مـناـسـرته لها . و اذا اطلع
مؤرخ الادب على النصـوع اطلعا دقيقا ومعـفا ، وتمكـن
من ادراك نوعيـة العـركـة فيها و عـداها

وبما أن مؤرخ الآداب يجب أن يدرس هذا المنهج ، يوصل
بين الأدب وأدبه ، وبين الأعمال الأدبية وعسوريتها ،
ويدرس ، علاوة على النصوص الأدبية ، العوامل الاقتصادية
والاجتماعية والسياسية والفكرية التي أثرت في الأدب أو تأثرت
به ، فإنه يستطيع أن يتمعرف على أسباب حركة الأدب ،
وأن يتردها إلى براعشها الحقيقية . ومن مرامي
هذا السنج أيضا أنه لا يقتصر على الاعلام المشهورين
بمؤرخهم للأدب ، ولا يفقد عند النصوص البارزة
محبب يكتفي بالنظرة فيها ، بل هو يتناول كل الأدباء ،
من كان مشهورا زائعا الصيت ، ومن كان خاملا الذكر
مهلا ، ويعنى بكل النصوص ، ما كان شديدا الرواج والانتشار
وما كان شروكا منسيا . ذلك أن أصحابه يعتقدون ان النصوص
المشورة ليست وحدها هي التي تتجسم فيها أبرز خصائص
المدارس واضحة جلية ، فقد تكون تلك الخصائص في النصوص
المتوسطة أو الرديئة أوضح وأطهر منها في النصوص
الرائعة الشائعة . ثم ان انتشار نصوص أدبية ما وانتشارها
قد يدل على أن خصائصها الفنية هي التي كانت
تسيطر على خصائص مدارس أخرى لم ينفى لها الظهور .
وذلك يعني أن تناول كل الأدباء وكل النصوص الأدبية بالدرس
يعرف مؤرخ الآداب بما ساد من المدارس وما لم يسد ،
وبما ساد منها زمنيا ثم انقطعت سيالاته وما لم
يسد زمنيا ثم ساد . وهكذا يتم التعرف على حركة
الأدب التاريخيه .

ولكن منهم التقسيم إلى مدارس ، وان كان كثير المزايا
جسم الفوائد ، يتصمن من وجوه النقص والضعف ما يكاد
يلحقه بالمنهجين ^{السابقين} أو يجعل استعماله في تاريخ الأدب أمرا
تصعب استقامته .

ولعل أول ما فني هذا المصالح من ضعف أن أصحابه
يبدلون جذرا كبيرا في تمييز النصوص الأدبية عن غيرها

من النص وهو ثم يتناسون ذلك كله ويتعاملون معه كما تعاملهم مع تلك التي ميزوها عنها . فالنصوص الأدبية عندهم هي تلك التي تكون على حظ من الجمال الفني لا بد لها منه كي تعد أدبا ، والنصوص الأخرى هي التي لا جمال فني فيها . ولكنهم يتعاملون مع النصوص الأدبية ومع غيرها من النصوص تعامل واحد ، فيعدونها مرآة للعصر ووثيقة له تشهد بما كانت عليه الحياة فيه من رقي أو انحطاط . فهم يميزون النصوص الأدبية عن النصوص الأخرى من حيثة ، وهم ينظرون فيها نظرتهم إلى النصوص العادية من جهة ثانية . بل هم يميزون من النصوص الأدبية مرورا يدل على أنها جميعا عندهم في مستوى واحد من الأهمية . ومصدق ذلك أن طه حسين كان ، في بحثه عن "خصائص الشعر" ، ينظر إلى ما ذكره الرواة من أخبارهم انظره نفسها التي ينظر بها إلى أشعارهم . فقد كتب عن الحطيئة :
 نائل : " كان يمثل الجاهلية في حريته وابتاعته وانصرافه عن الدين إذا خلا إلى نفسه ، وتكلفه هذا الدين اتقاء للسلطان لا غير . الرواة مختلفون في أنه أسلم أيام النبي أو بعد وفاته ، ولكنهم متفقون على أنه كان رفيق الإسلام ، صديق الإيمان قليل الحظ من الدين " (148) . وهذا الرأي إنما استخلصه استخلاصا مما تحددت به الرواة عن الحطيئة . ثم كتب قائلا : " وليس من شك في أن الحطيئة كان ذا شخصيتين متنافستين أحد التنافض : أحدهما شخصيته العلمية التي استعصت على الإسلام واحتفظت بجاهليته الكاملة ، والأخرى شخصيته الفنية التي احتفظت بجاهليتهما بهاتين الخصلتين اللتين أسرنا اليهما عند زهير وأوس وكمب ، ولكنهما لم تستطعا أن تقاوم القرآن ، فتأثرت به في اللفظ ونأثرت به في المعنى ، تلمس ذلك لمسما حين تدرا ما صحت من شعر الحطيئة " (149) . وإذا كان مؤرخو

(148) - المصدر السابق . ص 233 . (الأبرار بالسائر من عندنا) .
 (149) - المصدر السابق ص 295 . 236 . (الأبرار بالسائر من عندنا) .

الادب ، حسب هذا المنهج ، يخلطون بين النصوص الادبية والنصوص العادية ويستعملونها استعمالا يكاد يكون واحدا ، فان ذلك الجشع الذي بذلوه في التمييز بين الادب وبين ما هو ليس بأدب من الكلام ، يصبح تعبلا لا فائدة منه .

ومن مظاهر الضعف في هذا المنهج أنه قد يذهب بمؤرخ الادب الى تصور المذاهب والاتجاهات الفنية حيث لا توجد حقيقة أو حيث لا توجد بالفهم اليوم الحالي الذي تكون لها حديثا . من ذلك مثلا أن طه حسين رأى أن المدرسة الشعرية المصرية التي امتدت من أوس بن حجر وتواصلت مع زهير والحطيئة كانت تعنى بالفن للفن " (150) . ولا يمين أن يكون ذلك لان مفهوم " الفن للفن " تكون حديثا بأوروبا من جراء عوامل تاريخية معينة ، ونسبته الى الجاهليين أو المباسيين في أي صيغة كانت لا تعدو أن تكون مفارقة تاريخية تخلع مفاهيم الحاضر على ماض لم يعرفها .

على أن أكبر القضاها وأشدّها خطورة في هذا المنهج أنه يظل يبحث عن نشأة المدارس الادبية ونشأة الادباء ونشأة الخصائص الفنية . فهو ان استعمل منهج البحث التاريخي و المنهج الفني وان ألح على تحييق النصوص والتثبت منها ، وعلى تدقيق فهمها وتعميقه ، فليس يصل في سير الى التعرف على نشأة الادب ونشأة أناسها ورجالها . فالنأية التي يرمي اليها هذا المنهج لا تكاد تختلف في شيء عن تلك التي يرمي اليها بلوغها منهجا التفسير الى عصر والى أغراض . وهذا ناتج عن أن أصحابه يفهمون الادب ذلك الفهم الذي يقتصر على نصوصه وعلى الرجال الذين أهدعوه ، ويفهمون التاريخ ذلك الفهم الذي لا يكاد يجاوز البحث عن نشأة الظواهر

واستمر رارها أو انقطاعها . أما ظروف انتاج النص وهو وديف
استعمالها واداعتها في الناس، وما إلى ذلك من قضاياها ،
فلم يمس أصحاب هذا المنهج بتناولها . ومن شأن ذلك
أن يجعل تاريخ الادب حسب هذا المنهج تاريخا لا يقل
نقما عنه في المنهجين السابقين .

ومن قضاياها منهج التفسير الذي مدارس ومراياه
في آن واحد ، أنه بما يستلزمه من نظر في كل الاعمال
وكل النصوص، ومن بحث عن كل العوامل والمؤثرات
التي أثرت فيها وتأثرت بها ، ومن المأم بطريق البحث التاريخي
وبمنهج النتائج الفنية ، يظل عملا عسيراً لا يفدر المؤرخ الفرد على
القيام به مهما أوتي من قدرة ومن صبر على الدرس . لذلك
فإن العمل به لم يتجاوز الاقتصار على المصير الواحد أو المدرسة
الفنية الواحدة . وهذا يعني أنه غير قابل لأن يؤرجح به
لأرباب الادب العربي مدرستين على وجوده القرون والفصول .
ولكن هذه القضية هي أيضا في عداد مبرزايا
منهج التفسير الذي مدارس لانها تجبر المؤرخين على
العمل الجماعي في وضع تواريخ الادب . ويبدو أن هذا
الاتجاه هو الذي بدأ يعيل عليه الناس الآن فبدأت
تظهر التواريخ الجماعية مكان التواريخ الفردية لهذه
الظاهرة اللامتناهية التي يمسر التاريخ لها أي عصر .

لقد أدرك المؤرخون العرب ، بمجرد أن شرعوا في
وصف مؤلفاتهم في تاريخ الأدب العربي ، أن للمناهج
خضرة كبيرة سواء في تكييف الأعمال أو في السيطر
على مادة الموضوع ، واخضاعها ، واشترن ذلك الإدراك عند
باحثين واضحين بصيرة المنهج في تاريخ الأدب فاختاروا
لتجاوز تلك الصعوبة منهج التفسير إلى عمود زمنية وأخذ
بهم منهم زيـدان والزيـات ، ومنهج التفسير إلى أغراض
وأخذ به الرافعي ، ومنهج التفسير إلى مدارس وأخذ
بهم طه حسين . وكان من ذلك أن توفرت في أعمالهم
مخطط المناهج المتعارفة في تاريخ الأدب .

والظاهر في هذه المناهج لثلاثة يلاحظ
أنها ، رغم تعددها ، تتفق في العايضة التي ترمى إليها
وفي بعض الوسائل التي تمتد أنها موفية بها عليها .
فهي كلها تروم السيطرة على الحركة والتحول في تاريخ
الأدب ، وهي تعتقد أن حصر تلك الحركة وذلك التحول إنما
يتم بآراء حفيظة نمو الأدب ونواحيه عن طريق الموضوع على
نشأة نصوصه ونشأة أعماله ونشأة أغراضه وفنونه
ومدارسه .

ولكن هذا الاتفاق هو الذي ولد بينهم مناسير
العروة والتباعد في تصور الأشياء ، فمن ذهب زيـدان
والزيـات إلى أن حركة الأدب التاريخي إنما هي حركة
عنصر يختلف بعضها عن بعض في السياسة والادتماع
فتختلف آدابها بعضها عن بعض وتكون فيها الحركة
ويكون التحول ، وأما منهجهم على ذلك . وذهب الرافعي
إلى أن حركة الأدب التاريخي إنما هي حركة
أغراض نشأت في الجاهلية رافضة لان الذين أشؤوا
رافعون رفيعون ثم تدرجت شيئا فشيئا نحو الفساد تدن السبعم
العربي نفسه شيئا فشيئا نحو الفساد كما ابتعد عن أصوله

الزائفة واختلط أكثر فأكثر بالاجناس التي جاورته ولم
تكن مثله في القيمة. و اذا كانت قد نشأت بمقدار ايجابية
اغراض أدبية أخرى فانها لم تأت لا في عظمة الاعراض الاولى ولا
في رقيها ثم انه كان لها مصير الاولى حينما تدرجت
بدرورها نحو الفسناد. وذهب طه حسين الى أن حركة
الادب انما هي حركة مدارس متعددة تتوحد في عصر
الواحد وتتنافس وتتحول من عصر الى عصر فيد حل
على فنياتها التجرد والتطور وتظل على خصائصها العامة
الاولى ، وبالتالي فان اداسة النظم في النصوص هي التي
تسكن المؤرخ من الوفور على حركة الادب وتحوله مما
يحدث في فنيات التعبير والاداء من تجدد.

وفد كان لكل نهج من هذه المناهج الثلاثة
مزاياه وحدوده ، وهي مزايا تفل في هذا وتكثر في ذاك ،
ولكها تظل فيها حسيما فائضة الى جانب حدود شيرة
وتفنا على بعضها أثناء التعرض لكل نهج .

والناظر في هذه المناهج الثلاثة يلاحظ أيضا
أن أصحابها تدرجوا فيها من الاقتناع بإمكان التاريخ للادب العربي
الى الشك في ذلك . فقد كان الامر عند زيدان والزيات
على شيء كثير من الوضوح والبساطة ، إذ ذهب
الاول الى أن الادب العربي قابل لان يؤرخ له مثلما أرخ غير
الغرب لآدابهم فأثبت في عمله نموذجنا لتاريخ الادب اليونانية
و سار عليه تواريخ سائر الادباء حاول أن يقدم شيئا شبيها
بذلك للادب العربي . واكتفى الزيات بأن جارى ، كما رأينا ،
تسوره المؤرخين العرب الذين عاينوه في وضع ، تأريخ للادب
العربي يعتمد القسمة الى عصور . أما الرافعي فانه لم
يشك في امكان التاريخ للادب العربي ، ولكنه شك في
امكان التاريخ له بمناهج تستمد من الغرب ، فعمل على
الذي من اصطنعوا منهج التقسيم الى عصور في تاريخ
الادب العربي ، و حاول أن يقدم منهجا بديلا الا انه

كاد لا يسبب الموضوع فجيءا عمله كثير العيب وبشديد الاضطراب
والخلل فاعلمنا على التمسك بالهوى. وبعنا طه سين
فانعام عمله على التمكن في تاريخ الادب وحا باللائمة
على الذين استسلموا أمـره من العرب فأقبلوا على التأليف
فيه دون دراية بمقدن القسوة والعسر فيه، وطفق يمد
عصا ايا التأليف في مادته حتى يمكنكم على جيله بالمعجز
عن وضع تاريخ للادب العربي بالمعنى الصحيح له، ويبدو
أنه كان يدعوا إلى تأجيل الاقبال على هذا النمط
من التأليف لان الوقت لم يحسن بعد لذلك. ان عمل طه
حين اذن يكاد يكون بحثا في السباح تلتسا للطرق التي
يمكن أن يسلكها الباحثون اذا ما آن وقت التأريخ للادب العربي،
لذلك فانه لم يقدم ممبلا في تاريخ الادب وانما قد افتراما
ومشاريع أبحاث لا أكثر.

الفصل الثالث

الاعتماد على النفس

لدليل دراسة المفاهيم والمناهج التي انطلقت منها المؤلفون العرب أو اصطنعوها في تأريخهم للادب العربي لا تتم بها لم نجف على الاعمال التي قد سوت بها. فمن هذه الاعمال هي التي تخاضت تلك المفاهيم والمناهج على جلها ترد على الصيغة التي وردت عليها. ثم ان هذه الاعمال هي التي انتشرت لدى القارئ وراجت فاشترت في نظرتهم للادب والادباء، وكيف تعاملهم مع التيارات ومن هذه الناحية فان المؤلف عليها يمد، فسي نظريتها على الاسل، جزاء لازما لهذا العمل. ثم ان هذه الاعمال ليست، في آخر الامر، سوى تجسيم عملي، وعلموس للمفاهيم والمناهج التي أخذ بها أصحابها فيها. ومن هذه الناحية فان المؤلف عليها يبدو نسما لا غناء عليه في ادراك قضايا التأريخ للادب ومائله.

لهذا كله، يسد لنا ضرورة منهجية أن نتساءل عن طبيعة النتائج التي أوصل اليها كل من منهج التعسب الى عصور وأراض وعرف في تاريخ الادب.

وسد رأينا، في التماس الجواب على ذلك التساؤل، أن نجف على الكيفية التي تتم بها العمل بكل من تلك المناهج الثلاثة في مؤلفي زيدان والزيات، وفي كتاب الرافعي وكتابه. من أوليين اذهار القضايا التي في كل منهما لان هذه القضايا، هي في حقيقه، الامور وقضايا، تلك المفاهيم والمناهج التي أخذ بها في تاريخ الادب.

وفد أرجأنا النتائج العامة المشتركة بين العمل بهذه المناهج الثلاثة التي جرت وما زالت تحرب في التأريخ للادب العربي، الى الخاتمة، لان العلاقة وطيدة جدا بين كل من المفاهيم والمناهج والاعمال في تاريخ الادب، حتى أن خصائصها في القوة والضعف تكسار تكون واحدة.

1 - الذين يدرسون اللغة العربية في كتبهم :

يبدأ التأمل في كتابي زيدان والزيات في تاريخ
الأدب العربي تنابها كبريا بينهما . ويبدأ وأن هذا التشابه
لا يعد عند انطلاق صاحبهما فيهما من مفاهيم واحدة ، ولا عند
أدبها بمنهجية واحدة هي منهجية التفسير التي تصور
فسي تاريخ الأدب ، لأنه يتجاوز ذلك كله إلى حد التأمل
في العبارة أحيانا ، ولعل هذا الجدول قيل بتوضيح ذلك :

الصفحة	تاريخ الأدب العربي أحمد حسن الزيات	تاريخ أدب اللغة العربية جرجي زيدان	الصفحة
ص 4	والأدب العربية أغنى الأدب جمعا ، لأنها أدب الخليفة منذ طفولة الإنسان إلى اضمحلال الحضارة العربية .	وآداب اللغة العربية (. . .) أغنى الأدب السامية بل هي على الأجمال أغنى أدب سائر لسانات العالم . لأن الذين وصفوا آدابها في أثناء التمدن الإسلامي أمرط من أمر شتى جمعهم إلا سدم أراد لغة الإسلامية .	ص 2
ص 207	وجملة القول في هذا العصر [الأي] أن كان فيه نضج الأدب الجاهلية ونشوء العلوم الإسلامية وبداية النقل عن العلوم الأجنبية	ويقال بالأجمال أنه في العصر الأموي نضجت الأدب الجاهلية وولدت الأدب الإسلامية وبدأ النقل عن الأدب الأجنبية	ص 2
ص 253	والشعر والعلوم ، كما رأيت ، لا يزدهوان إلا في ظل ملك أو أمير .	والأدب لا ينمو ويورق ويثمر إلا في ظل محبيه من السلوك والأمراء	ص 2

وقد رأينا اعتمادا على هذا النسب ، وأن نجم بين
كتابي زيدان والزيات ونعم هما عملا واحدا يمثل سائر
المؤلفات العربية التي انتمج فيها أصحابها خطة التفسير
التي تصور . ومما شجعتنا على ذلك أن كتاب زيدان طهر
والتأليف في تاريخ الأدب العربي في مبتدئه ، فحين
أن كتاب الزيات انما ظهر عند ما تكاثرت المؤلفات

في هذا "العلم" الجديد الوافد من أوربا وتنوعت مناهجها ونماذجها (1). فحتى الآن هندسنا تجمع بين كتابي زيدان والزيات انمسا نجتمع بين اثنين في تاريخ الادب متشابهين يمثل احدهما صيغة الابتداء للعمل بمنهج التقسيم الذي عصوره ويمثل الثاني صيغة اخرى ستطورة بسبب التطور، نزعنا بالكتابة في مادة تاريخ الادب العربي الذي يزيد من التلازم مع مقتضيات التعليم في نهاية الربع الاول من القرن العشرين. ثم ان هذا الجمع بين هذين الاثنين يجنبنا التكرار، ويمكننا من الوقوف على معظم ما تنطوي عليه توارخ الادب حسب منهج السطحة الذي عصور من مميزات.

أ - **المقدمات العامة** : أن زيدان والزيات للادب العربي منذ أقدم أزمانه في الجاهلية التي العصر الحديث فيها يمسرف بالنهضة الاخيرة. وفرد نام عملها على تتبع حركة الادب طيلة العصور التاريخية التي عرفت بها عصر عصره. فجاءت المادة في كتابيهما غزيرة يصعب تناولها كلها بالدرس. ولكن هذه الخزانة ما كانت لتقف حائلا عنينا، دون الا حاطة بعظم ما لعمليهما من خصائص لانهما درجا على اتباع طريقة واحدة حاولا المحافظة عليها حرفيا في معالجة عصور الادب العربي كلها. فقد كان د كرسنهما يضع، أولا معدمات نطو و تتمسك بهما للمنهج العربي، ويبحث فيهما شؤن السياسة والاجتماع والحصانة في العصر المؤرخ له، وسا كان فيه من رقي القس كرأ انحطاطه. ثم يتناول آداب العصر فيقسمها الى ادب والى علومهم، وينسب الادب الى شعور ونشر، والعلوم الى شرعية ودخيلة أو الى طب وجغرافية وتاريخ، فيؤرخ لكل قسم منها على حدة عن طريق التبريف بالحالسة التي كان عليها وبأبرز أعلاعه.

(1) - قال شكسبي فيقول : "يشمل تاريخ الادب العربي للاستاد الزيات ذروة النظرية المدرسية". مناهج الدراسة الادبية في الادب العربي . ص 21.

وبما أن هذه الطريقة تكاد تكون هي هي في علمي زيدان
والزيادات ، وفي تأريخهما لكل عصر من عصور الأدب العربي ،
فانه يمكن أن نفع على عصر واحد من هذه العصور الكثيرة التي
تربها الأدب العربي منذ ابتداء تاريخه الى الآن ، فندرسه
عينة دالة على العمل كله . ولقد رأينا أن نختار العصر
الأموي ، لأنه لم يكن غريبا في النشوء مثل العصر الجاهلي ،
ولم يكن طويلا طويلا ول العصر العباسي . ولم يكن عصر
انحطاط في السياسة والأدب والاحتطاع مثل العصرين المملوكي
والعثماني ، ولم يكن عصر على حدة بينه وبين الماضي
القديم كله ما يذهب الطبيعة مثلما هو العصر الحديث لهدا
فالوقوف على العصر الأموي قد يكون أهون على الباحث
واحدي للتاريخ من الوقوف على أي عصر آخر . على أن اختيارنا
العصر الأموي نموذجيا للعمل بمنهج التفسير الذي عصور
في تاريخ الأدب لا يمنع الرجوع إلى العصر والآخرى تدعيمها
لكثرة أو توضيحها لا تحتاج .

ب - تاريخ الأدب في العصر الأموي :

1 - عن زيدان :

أرج زيدان لأدب العصر الأموي في السجل الأول من
تأريخ آداب اللغة العربية ، وهو خصم لذلك 103 مائة
المفصلات وزعمها على حسبه أفساد كبيرى تنفرع إلى أقسام
مفردى حاول أن يلب فيها بجل المظاهر الفكرية التي تواجدت
في العصر الأموي . ونجد جاء توزيع الصفحات على المواضيع
المدرسة على النحو الذي نراه في هذا الجدول :

الاسماء الكبرى	الاسماء الصفراء	عدد الصفحات	مجموع الصفحات
منذ مات شهيدية	1- مميزات العصر الاموي 2- حال الشرق عند الفتح الاسلامي 3- اقسام الادب العربي	3 صفحات 3 صفحات صفحة واحدة	7 صفحات
العلوم الشرعية	1- البصرة والكوفة 2- قراءة القرآن الكريم 3- التفسير 4- الحديث 5- الفقه	3 صفحات 3 صفحات 3 صفحات 3 صفحات 3 صفحات	15 صفحات
العلوم اللسانية	1- النحو 2- الصرف 3- الاعراب 4- التاريخ والسجع 5- علوم الخيل	3 صفحات 3 صفحات 3 صفحات 3 صفحات 3 صفحات	15 صفحات
الادب الجاهلية	1- اللسان 2- الشعر في العصر الاموي 3- شعراء العصر الاموي	3 صفحات 10 صفحات 65 صفحات	76 صفحات
الخاتمة	1- كيف كان الشعراء يستمعون قرائعهم 2- شياطين الشعراء 3- النحراء والقصائد 4- الخطابة والخطباء في العصر الاموي 5- الادباء في العصر الاموي 6- الفلاسفة	3 صفحات 3 صفحات 3 صفحات 3 صفحات 3 صفحات 3 صفحات	18 صفحات

يتضح من هذا الجدول أن زيدان وضع في شيء من الخلط عند تحديد الاسماء وربط الصفين منها بالكبرى، فقد جعل الخطابة والخطباء والانصاء والمنسئين قسمين من اقسام الخاتمة والحال أنهم اسمان على حدة أو اسمان من اقسام الادب الجاهلية على أقصى تقديره. ثم جعل التاريخ

والجغرافية" والعلوم الدخيلة قسمين من أقسام العلوم اللسانية
بأنهما في ذلك شأن النسب والحركات والأعجاس، وهذا بعيد
عن المعقول، لأنه لا التاريخ والجنراوية ولا العلوم الدخيلة
ما يهتم بقضايا اللسان العربي، وأدرك زيدان حديثه عن استحداث
الشعراء تراجمهم وعن شياطينهم في الخاتمة في حين أنه
كان عليه أن يصحح ذلك في أول كلامه عن الشعراء والشعراء أو اثر
الانتها منه.

الأ أن هذا الحلقط سر على ما يقل الس حرد الانعدام من
تاريخ زيدان للادب العربي في عصوره اللاحقة، فقد جاءت الأقسام
فيها بينة الاستقلال وجاءت العلانات بينها وبين الصفري
منها منطوية واضحة. ولعل مرر ذلك الحلقط الس عدم استقلال
العلوم والمعارف بعضها عن بعض استلالا ظاهرا في العصر الاموي،
حتى يبدو كل منهم ا قسما غائما الذات، ولعله يرجع
أيضا الس ما اتسم به عقل زيدان من تسرع فطن اليه
ما صوره وأجذوه عليه (2).

ويتضح من هذا الجدول أيضا أن عناية زيدان بأقسام الادب
جاءت متفاوتة في الحجم تناوتا كبيرا. فعدد خصاص للعلوم النرجية
عشر صفحات وللعلوم اللسانية تسع صفحات. أما الادب الجاهلية
فعدد خصاص لها ستا وسبعين صفحة رغم أنه حصرها في
الشعراء والشعراء تحت سب. وهذا التفاوت ل على أن زيدان لم
يرأسام الادب العربية في العصر الاموي فيمة واحدة ولم
يعطها حظا واحدا من العنايه، فقد أطال في بعضها على
حساب بعض. ولا تفنصر ظاهرة التفاوت هذه على العصر الاموي
لأنها تتراكم واضحة في عمل زيدان كله من أوله الس
آخيره وفي كل العصور التي مر بها الادب العربي. من ذلكم
مثلا أنه أرخ للشعراء والشعراء في سبعة وخمسين صفحة من
مجموع 155 صفحة تناول فيها آداب العصر العباسي الاول كلها،

و تضمن أكثر من مائة وعشرين صفحة للشعر والنثر من حملة 15 صفحة أخر فيها للآداب الجاهلي كـهـ. وإذا كان الشعر قد استأثر بالخط الوفير من عناينة زيدان دون سائر أقسام الآداب العربية في معظم العصور، فإنه لم يكن كذلك في كل العصور، ذلك أن التاريخ مثلا هو الذي استغرق معظم الصفحات التي أخر بها صاحب تاريخ آداب اللغة العربية للعصر المغولي، فقد خصص للتاريخ والسيرة 74 صفحة على 167 صفحة، تناول فيها سائر الأقسام.

2 - عند الزيات :

جسج الزيات بين عصر صدر الإسلام والعصر الأيوبي في علم كبير واحد من كتابه "تاريخ الآداب العربية"، ولكن هذا الجمع لم يحدث في علمه الأثر الذي يجعله يختلف عن عمل زيدان. فقد تعرض الزيات إلى العناصر نفسها التي تعرض لها زيدان في تاريخه لآداب العصر الأموي، ولم يزد عليه إلا بالوقوف على الخطابة والخطباء في العصر الإسلامي، وهو أمر بسيط لا يخلق اعتلافا جوهريا بين العملين ينفع عواصلتنا النظر فيهما وكأنهما عمل واحد، خاصة أنه سبق لزيدان أن وقف على الخطابة والخطباء في عصر صدر الإسلام في قسم سابق.

وقد تناول الزيات العصر الإسلامي الأموي في 12 صفحة

من كتابه وزعمها على أقسام الآداب فيه على الشكل التالي :

الاسماء النبوية	الاسماء الصفاتية	عدد الصفحات	الصفحات
صفات تكميلية	الأرباب الاسلامي : عوامله بمادته ، أنواعه ، طبائعه .	6 صفحات	6 صفحات
ادار الأرباب الاسدي	1- القرآن الكريم 2- الحديث 3- السير الجاهلية 4- الأرباب الاجل	9 صفحات 4 صفحات ونصف جزء من صفحة 3 صفحات	17 صفحات
أنواع الأرباب الاسدي	1- الشعر والشعراء 2- الخطابة والخطباء 3- الكتابة والكتّاب 4- المحسن ونشوء النامية 5- النمنمة 6- العلم في السير الاموي 7- الخطب بحدود الاسلام	15 صفحة 20 صفحة 3 صفحات ونصف صفحة واحدة صفحة واحدة صفحة واحدة صفحتان ونصف	107 صفحات

يتضح من هذا الجدول ان الزيادات قسّم تاريخه للارب

الحربي في العصر الاسلامي الامون الى ثلاثة اقسام مقسمة
في الاول منها للعصر الادبي، ومقسمة في الثاني على مصادر
الارب العربي فيه، وأرج في الثالث لأنواعه نوعا. الا ان هذه
الاسماء الثلاثة جاءت متفاوتة في الحجم تفاوتاً كبيراً. فيقسم
جاء القسم الكبير الثاني في سبعة عشر صفحة فقط، جاء
القسم الثالث في مائة وسبع صفحات، ولا يعرف هذا التفاوت
عند الاقسام الكبرى فحسب، بل هو يتجاوز ذلك الى الاسماء
الصغيرة، فنجد تناول الزيادات في القسم الثالث سبعة أنواع
أربعة في 107 صفحات كان للشعر والسعراء منها 75 صفحة
كاملة، ولم يكن للعلم بأنواعه منها سوى صفحة واحدة.
ولم يكن هذا التفاوت شاملاً بالعصر الاسلامي الامون
وغيره، فلو كان في سائر اقسام الكتاب، فائق في تأريخ

الزيات لـ... تاريخ الادب العربي كلها . من ذلك مثلاً أنه
 خصم لشعر العصر العباسي ، و... 107 من الصفحات
 في حين أنه لـ... لـ... لـ... لـ... لـ... لـ...
 في ذلك الفقه والحديث والفرائد الا سبع صفحات . وهذا
 التفاوت يدل على ان الزيات لم يول أقسام الادب التي أن
 لها عناية شتيرة فقد أصاب في بعضها على حساب
 بعض . و... ان الطائفة هذا عديم الفائدة في بنى
 ان هو ترجم للاختل والفرزق و... مثل مرتين في
 مواطن شتيرة جدا من كتابه (3) .

و اذا نحن نرينا بين تأريخ زيادان للادب في العصر
 الاموي وبين تأريخ الزيات لـ... بان لنا أنهما يتساخمان
 في مواطن عديدة . فقد تناول الزيات " النحو " و " الادب الاخيه "
 في العصر الاموي مثلما تناولهما زيادان من قبل ، وجاء
 التسميات عندهما واحدة . و... زيادان " للخطابة "
 و " الانشاء " في العصر الاموي مثلما أخ لهما الزيات من
 بعد . وان استعمل كلفه " الكتابة " مكان كلمة " الانشاء "
 عند زيادان . ولكن هذه المقاربة تطهر رأس الزيات اسفل
 مما صمى را هو " التاريخ والجغرافية " فقد تناول زيادان
 ولم يتناول الزيات . ثم هي تظهر أن عدد أقسام الادب في
 العصر الاموي لم يكن متماثلا في علي زيادان والزيات ،
 فقد جاءت الاقسام خمسة عند زيادان وجاءت ثلاثة
 عند الزيات .

ومهما يكن من أمر النساب والاختلاف بين علي
 زيادان والزيات ، فان الناظر فيهما يحرص بمجموعة من التائيد
 تمدى هنا وهناك لانها من خصائص المفاهيم التي انطلفت

- (٥) - ترجم الزيات لـ... السعراء الثلاثة مرة أولى أثناء حديثه
 عن خصائص الشعر في العصر الاموي (ص 110 . 111 .
 (112) . ثم ترجم لهم أثناء التعريف بأعلام الشعر العربي في عصر بني أمية
 (ص 110 . 111 . 112) .

منها والقناه حج التي استعملها في التأريخ للادب العربي .

3 - النتائج :

لعل أول هذه النتائج أن زيدان والزيات وانطلقا من تدبير موسع للادب يشمل كل الاثار التي صاغها الاساس صياغته لغوية للتعبير ولم يخلصا الوفاء لمنطلعتهم النظرية ان فنون الادب وأنواعه لم تكن منهما عناية واحدة أو سفارية ونقد ذكرنا فيونا منه وأهمها لا نمونا ، و... أطلا في تاريخ فنون من التي ذكرناها على حساب فنون أخرى . وكان للشعر والشعر النصيب الاوفر من تاريخها للادب العربي .

أما النتيجة الثانية فتتمثل في استئثار تراجم الاعلام بأوفر نصيب من الملاحظات التي أرح فيها زيدان والزيات لادب العصر الاموي . فالتراجم تشغل اثنتين وستين عصفرة على خمسة وسبعين خصصها زيدان لتاريخ الشعر في العصر الاموي ، وتشغل اثنتين وخمسين صفحة من مجموع مائة وثلاث صفحات أرح فيها الزيات للشعر والشعر والخطابة والخطباء والكتابه والكتاب في العصر الاسلامي الاموي . ولا تعتمر سيطرته التراجم على ما أرح به زيدان والزيات للعصر الاموي بل هي تتجاوز ذلك المن ما أرحها به للادب العربي في سائر عصوره . فالجزء الثالث من كتاب زيدان يكاد يكون مجموع اعلام . وتستغرق التراجم عن الزيات عشر صفحات من اربع عشرة صفحة أرح بها للادب العربي من سوط بن زرار في يد المصنوع سنة 653 هـ الى بدايه النهضة الحديثة في العصر الحديث . وشمل هذه السيطرة تجعل من مؤلفي زيدان والزيات كتابين في تاريخ الربال أشهر منهما في تاريخ الادب .

وأما النتيجة الثالثة فتتمثل في أن زيدان والزيات لم يؤرخا في عمليهما للمؤلفات العربية .

سدد اكتفى زيدان مثلاً بالاشارة الى ما ينبغي من اعمال
السراة والكتاب والعلماء المطبوعة والمخطوطة وذلك سرأماكد من
طبعها وأحوال علي المكتبات التي توجد فيها مخطوطات
ولم يشفع ذلك بأي تعليق من أي نوع كان ، فهو يشفع دكر
الاممال الادبية بعلام من قبيل "لحميل وراي معركر
كان منهمورا في أيام ابن الجلسان ، ولم نعرف علي خبره
ولكن منه آسعارا مجموعة في كتاب منه نسخة بخطه
في مكتبته برلين" (4) أو "لونسريسي (في فقيهه حنبليو)
المرفعى سنة 914 هـ نوازل المعيار. طبع بفارسى 12 مجلدا
سنة 1315 هـ" (5) . وليس يخفى ان هذا الكلام الذي يدكره
زيدان المؤلفات الادبية لا يكاد يفيد العارء بشيء عنها
أو عن منزلتها في تاريخ العرب. فصاها في الاعراض
والمعانيل التي طرعاها حميل في أنواره ١٩ و
هي حصانها و سا منزلتها في السراة طرعاها
المرصرا الامور في ما هي المائل التي باله
الونسريسي في كتابه نوازل المعيار؟ وماذا كانت قيمته
كتابته بالنسبة الى كتب الفقه الحنبلي ؟ لا نحدد
جوابا لكل هذه الاسئلة في عمل زيدان . واداك
هذا هو منحتى صاحب "تاريخ آداب اللغة العربية"
في تعدى كتب العرب لنا انه لا يكاد يهتم بالاعمال
الادبية في مؤلفه . ولم يعن الزيات أيها السامع
العرباء ان الذين ترجم لهم في كتابه ، فلم يدكر لا المطبوع
منها ولا المخطوطة . واداهو حاول ان يتدارك ذلك في
تريفه بعدم العرب الحديث عاين السراة الصهر من
مؤلفهم ، فان ذكره اياها لا يكاد يفيد شيئا عن موضوعاتها
أو عن قيمتها فضلا عن منزلتها في تاريخ العرب . من ذلك مثلاً

(4) - تاريخ ... ج I ص 203 .

(5) - المطر الدار ... ج III ص 25 .

أنته عن عرف باعمال عبد العزيز جاويش (المتوفى سنة 1910)
على النحو التالي : " من مؤلفاته التي نعرفها كتاب "عنه
المؤدبين" في التربية العلمية والخطبية ، وكتاب "الاسلام
دين الفطرة" في اندفاع عن الدين وبيان بطلان ادعاءه ،
وكتاب " أسرار القرآن " فسر فيه بعض آي الذل والحكم
تفسيراً عادماً لروح العبر (6) . ومعلوم أن مثل هذا
التفسير فلا يكاد يحسن شيئاً في ادراك السارة التي قدمها
عبد العزيز جاويش في أعماله . فما هي الساعات التي ماله
في كتابته " فنية المؤدبين " ؟ وكيف تلقاه الناس لا وما هو
نوع الفكر الذي قدمه فيه لفارئه ؟ لا نجد شيئاً
من ذلك في كتاب الزيات .

ان مثل هذه الظاهرة اذن تجعل من مؤلفي زيدان
والزيات في تاريخ الادب كناية لا يفرحان للادب لان حظ
التاريخ للاموال الادبية فيهما يكاد من المال لا يدكر .

ج - لقد يمد زيدان والزيات للاموال الاموى : تناول زيدان والزيات
في المدمات التي مهيا بها للاموال الاموى والعوام
التي اشرت في الحياه العقلية العربية ووسمتها في
بأبرز سماتها . وقد جاءت هذه الاموال عند هـ
ثلاثة ، أبرزها في نظرها ، العامل السياسي ، وهو الذي
من تقسيم تاريخ الادب الى عمود ، وهو الذي اعطى كل
عنصر خصائصه الاجتماعية والادبية .

وتمثل العامل السياسي ، عندهما ، في ما نام
به الاموى . من نزيك العصية بين النبيل واحيائها في
ذلك الدراع الذي انتقد على السلطة وكناد يسترف التسمين
عما التي دامها النفوذ الاموى . وبيد وان المنافس بين
البائل وان الدراع بين الاحزاب ، يكونان ، في نظر زيدان والزيات ،

وذهبنا واحدا للسرّاع السياسي ، لأن الاحزاب كانت في العصر
الاموي ، تعتمد على الحزبات القديمة والحديثة بين
البائسل وتذكير المنافس بينهما في ما كانت تسمي اليه
من بحث من النفوذ . ونجد اعتنق كهل منهم ما به
الماض لانهم كانوا يديرون التأثير في آداب العصر الاموي ،
ان التنافس بين البائسل ، عندهما ، استعمل الحزب والحرارة
مثلا استعملها الصراع بين الاحزاب السياسية ، حتى كان
من ذلك ظهور الشورى السياسية وافتقاره .

اما العامل الثاني الذي وضع عليه فزبدان الزبدات
واعبدها راه سؤا في ادب العصر الاموي ، ذلك التأثير
الذي تميز به عما سبعه من آداب وفهم والعلم الاجتماعي .
فالفساد والاسلاسي ، كفساد العرب من احتلاط بالشعوب
المتحضرة في فارس والاسام وفساد كان لكل شعب
من هذه الشعوب ثقافته العلمية والفلسفية وخصا به العرب ،
فأفاد العرب من ذلك كله افادة غير عمها الزبدات بنولها :
" وكان من ذلك التفاعيل وهذا الامتزاج الجديد الذي تولد
منه السلوك المرمية والنفوس الانبيية والسمارة الاسلاميه الذي
طبعت الارض ومهدت للحرفي الانسان الحديث " (٦) .

أما العامل الثالث فهو عوامل ثقافي . وهو
يتمثل في ما أحدثه الاسلام من تغيير في العقلية
الربنية . فالاسلام حارب القيم الاخلاقيه الجاهليه وأصل ملاحها
مبادئ أخرى المسلمون البشري ، وبتدعيم على يديه الخيرون
من عظماء النبيلة الميوال في فهم يوم الامه الموسج ، ومن
الجهل الى التسامح . وقد كان أثر ذلك عند الزيدان
في ما عبر عنه بنولها : " وهذا التغيير في العقلية يستلزم
تما تعبير ما يعبر عنها من فكر وتصوير ومول " (٧) .

(٦) - المصدر السابق من ٨ (كذلك وردت في النص الاصل) .

(٧) - المصدر السابق من ٨ (كذلك وردت في النص الاصل) .

هذه هي العوامل الثلاثة التي طبعت الادب في
العصر الاموي بطابعها، وميزته، وفي نظير زيدان
والزيات، من ادب العصر الجاهلي. الا ان تعديدهما لم يكن
واحدرا عندهما. فقد اطلق زيدان الحديث مثلا عما كان
من عمل في أمية على التفريق بين المبادئ واحكام
العصيات الطهلية، وتوسيع بعض التوسيع، فسر النظم
عما أسماه بحال النور عند الفتح الاسلامي، فاستدرك
حالة التفكير آنذاك في الشام ومصر، وفارر ليربط بينهما
وبين بداية أخذ العرب عن الشعوب القديمة آدابها. أما
الزيات فأنه أقال الحديث، بعض الطالعة، عن أنس السلام في
تغيير عقلية العرب واجتماعهم، وعن تأثير صراع الاحزاب السياسية
على الدلطة في توجيه الشعر نحو الاغراض السياسية.

ولكن هذا الاختلاف الطفيف في تناول هذه العوامل
الثلاثة ليس تركت أثرها في الادب، لم يضرع المؤرخون
العرب من الوصف سوا على عامل آخر من مصادر تبحر
تطوّر الشعر ووجهه من استمرارا للسعر الجاهلي
فقد أكد كل منهما على أن الدولة الاموية كانت عربية تعتمد
العنصر العربي وتنزع الى البداوة، وان الخلفاء كانوا يعمسون بانباءهم
الى مواطن الفصاحة في الجزيرة لتعلم العربية. فكان
من ذلك ان ظل الاقبال على الشعر القديم عويضا وان بقي أثر
النجد في ضيلا (9).

هكذا قدم زيدان والزيات لتاريخ الادب في العصر

(9) - لعل هذه الفكرة هي التي جعلت الزيات يقول: "من المبالغة
حسب المذمومين طبعة منازة، فان شعرهم استمر رار للمذهب الجاهلي
لما يأتى بالاسلام الا تأثرا عربيا كضمت الاسلوب في
شعر حسان، وأولادة الانتاج في عريضة لبيد".
المصدر السابق ص 104.

الأشهرى، فقد حاولا أن يبيضا المواقف التي أنشأت
 فيه و طورته، والتي أثرت فيه فكبحت حركته تطوره و ردت به
 إلى الماضي . ولعل يكمن هذا النوع من التذديم خاصا بالمدن
 الاموية، إذ هو متوفر في معظم ما صدرم به من لسان
 عصره تاريخ الادب . وإذا كان هذا التذديم يبرر وللوهلة
 الأولى منطقيًا لما للتعمير على العوامل المؤثرة في
 الادب من عيشة في ادراك أسرار تاريخه، فإنه جاء عند زبدان
 والزيات في صيغة تفتقر إلى كثير من التنظير والتعمير .
 من ذلك مثلا ان الثامن لا يكاد يصر بأن زبدان أو الريات
 تحدد من العوامل التي أثرت في الادب الاموي فحدثت
 أنشأه ما يكمن بالادب الجاهلي، وان زبدان عرض لهذه العوامل
 ضمن حديثه عن " الدولة الاموية والامة العربية " (10) ،
 وعرض لها الزيات أثناء حديثه عن التلويح التي آمنت بالاسلام
 في الظاهر وظلت في حقيقتها جاهلية .

على ان هذا التذديم قد أهمل، بقى الاهمال، مما
 أساسيا من تلك التي أثرت في الادب الاموي وأعطته معظم
 خصائصه وهو التامل الاقتصادي، فبالفتح الاسلامي لم تكن
 حركته توسع مكنت العرب من الاحتلال ^لبالسعود المحدثين
 والاطلاع على آدابها لتقلدها التي لسانها فحسب بل
 هي أمردت عرب الجزيرة بالعبادة والحرارة وبما تحمد
 في بلاد فارس والشام ومصر من ذهب جعل بعض المؤرخين
 يطلقون على دولة بني أمية عبارة " دولة الذهب " (11) . وقد
 كان لذلك أثره في نشأة ذلك النوع من الفول الذي عرف في شعر

(10) - تاريخ ... I ص 208 .

(11) - ذهب إلى ذلك عبد العزيز الدوري في كتابه : مقدمة في التاريخ
الاقتصادي العربي دار الطليعة . بيروت 1969 ص 17 وما يتبعها . وذهب
 إلى ذلك أيضا موريس لومبارد في كتابه : الاسلام في عهود عظمائه الأولى

في رومبارد من باريس 1971 .

ابن أبي ربيعة والعرحي . ثم ان الاسلام لم يكن مجسوداً من التعاليم الروحية تصل ما بين الانسان وخالفه وحسب ، بل هو مجسود من التعاليم والفرائض تنظم المجتمع العربي وبنسب لا تماده . وقد كان لذلك أثره أيضاً في علاقه الشعراء بالسلطة الاموية ، وهو ما فطن اليه زيدان عندما قال : " كان المسلمون في صدر الاسلام جنداً ولكل منهم راتب يتناولونه من بيت المال على شروط مذكورة في الديوان (. . .) [وللشعراء] رواتب في بيت المال مثل سائر المسلمين " (12) ، ولكنه ذكر ذلك عرضاً بمناسبة التأثير الخ للضعف في العصر الاموي ، ولم ينفى عليه عاملاً له ما لسائر العوام من الاخيرى من أثر في الحياة الادبية في العصر الاموي .

ثم ان هذا التدهيم جاء إخبارياً عند زيدان يتمدد الحكاية أكثر مما يعتمد التحليل والنقد . وآنس ذلك أنه أكثر من العبارات الدالة على انه امدا يسرد الاحداث سرداً فقهياً وفكرياً : " فلما نزل من كسرى " ، " واذ استأذنت الروم " ، " فلما فتح المسلمون " ، " فلما جاء الاسلام " (13) . وقد اطفى الاسلوب السردى على من ندد زيدان طابع الحكاية التي تعدد الوقائع من غير أن تتساءل عن اسبابها ، وتندمها أحبابها من غير أن تبين صلتها بالموضوع . من ذلك مثلاً هـذا الخبر " فلما مات يزيد وكان ابن الزبير في مكة يطالب بالحكمة ، واحتلف بنو أمية على اختيار خالد بن يزيد أو مروان بن الحكم (وكلاهما من أمية) وقنع الحصار بين دعاه ابن الزبير وبنو أمية " (14) . ومثل هذه الاخبار تحـمل مؤرخ الادب يهمل العوام لالأساسية المؤثره في المجتمع والادب والدافع له لحركة التاريخ ، بل هو تنويع أحياناً

(12) - تاريخ . . . ج I ص 230 - 231 .

(13) - المصدر السابق ص 206 و 207 .

(14) - المصدر السابق ص 204 .

المن اعتبار الاحاسيس سا يدرك التاريخ . والا مثله على ذلك كثيره في عمل زيدان ، منها " محاضرات عوامل الهدى في نفس القبايل " (15) ، " متعمب العرب كافيه على فريدير حسدا لا سبدا دهم بالسلطان " (16) . ومعلوم ان حركة التاريخ لا تتأثر بالا حاسيس مثلما تتأثر بفكرها من العوامل . ولم يكن هذا الطابع الاخباري خاصا بالمقدسات التي مهد بها زيدان لادب المصطفى ، فهي متوفرة عند غيره في كل الاحزاء وممن تمهيد لكل العصور الادبيه . نجد فتح آل عثمان سمر ، وفي نظيره ، للسبب التالي " كان اسماعيل شاه سدد اغضب السلطان سليمان في انشاء مصيافان احببه احدث ، لانه حياه سده ، فحياها اسماعيل ، فافيه ذلك ، فبعثه الى مصر على طلب محالتهما على العثمانيين ، وهي من سطره المصالحك والترك . فبعثه السلطان سليمان وعزم على فتح البلدين حيمها " (17) . نجد ان هذا الفتح ادى نتيجة ، شعور انفعالهم الاضطرب في نفس السلطان العثماني ؟ !

واذا كانت النزعة الحكائيه هي أبرز ما يختص به تدعيم زيدان للعصر الادبيه ، فان النزعة العنائيه ، في ما يبدو ، هي التي أضرت بتمهيداته الزيات لعصر الادب العربي . ذلك أن صاحب " تاريخ الادب العربي " نجد فيها منه منحى تعبيريا يحتضن بالتمجيد والحماسه . فهو بدأ تعديمه للعصر الاموي على النحو التالي : " تركنا العصر الحاهلي والجريه العربيه يهدر جرفها من ضلالتهم الحياه هديهم الحميم المكسوط " (18) ، وهو يقول :

(15) - المصدر السابق ص 203 .

(16) - المصدر السابق ص 204 .

(17) - المصدر السابق ج III ص 180 .

(18) - تاريخ ... ص 80 .

"فكان من جراء هذه المادية الفبيحة والطبيعية الدخيلة، والنام الفاسد، أن تهيأت الطبائع السلبيّة أدنى حياة أرمي ومثل ألقى مصداقهم فيه" (19)، ويشير : "وأصبح القرآن والحدب... دستور الأمة، يسنان الشرائع ويرسمان الآداب، وبهذا بينان الأحكام، ولاز، ويفران في السلوك المستركة المحرم... كلمة التوحيد وجميع البر" (20). فهذا الأسلوب كثير النعور والصفات، بعيد عن العلمية. وبما أنه يوفر في كمال الاسماء التي حردوها الزيادات لتاريخ العرب، فإنه أطلع على عمله طابعاً شاعرياً يتنافى مع مقتضيات الأسلوب العلمي. من ذلك مثلاً أن الزيادات ممددة للنمط الحديثه بعوله : "كان من آثار الاحتلال الفرنسي، و... نزعة الاستقلال عند محمد علي، أن أشرفت من جانب الغرب ومضات من نور المعرفة في آفاق مصر ولبنان وهب البلاد تسير على ضوئها وتعمل على هداها" (21). فهذا الأسلوب أدنى لا يقوم على التعليق والتحليل وعلى ربط الأسباب بالنتائج لا دراك حقيقة الأحداث التاريخية والتعرف على مسارها.

وهكذا فإن النزعة التي الحكاية في سرد الأحداث، والتحليل، بالأنف، حالات النفسية لها شاعرية قد جعلت بعض مؤرخي الآداب العرب لا يعرفون أي العوامل أكثر تأثيراً في الآداب، وأيهما أجدر بالذكر، فضاغ المفيد منها في غير المتين.

(19) - المصدر السابق ص 81.

(20) - المصدر السابق ص 82.

(21) - المصدر السابق ص 420.

د - تأريخ زبدان والزيادات للشعر في العصر الأموي : أخ زبدان والزيادات لفنن الادب العربي فنبأ فنبأ اشرا الفراع من المندمات التي كانها يمهدان بها لعصره . وكان هذا التأريخ عادة يسبق التعريف بأبرز أعمال كل فن وأهمهم . فالقسم الفاصل بين التمهيد للعصر الادبي وبين التراحيم هو الذي عرّف فيه كل من المؤلفين لتأريخ الفنن الادبي فنبأ فنبأ . وبما أن لهذا القسم مكانته في تاريخ الادب هو الذي يتضمن حركة سير الادب ، فاننا رأينا أن نتعرف على الكمية التي أخ بها زبدان والزيادات لفنن الادب العربي من خلال درس تأريخها للشعر في العصر الأموي .

يتكون تاريخ زبدان والزيادات للشعر في العصر الأموي من تسمين كبيرين ، تنالا في الاول منهما مختلف الاسباب التي أدت الى تلك النهضة الادبية التي عرفتھا أيام بني أمية . وأما الثاني فمعرضا فيه لأبرز الخصائص التي يمتاز بها الشعر في عهد بني أمية ، التي أظهر ما جد فيه غياسا على العصر الجاهلي .

لقد رد زبدان نهضة الشعر العربي في العصر الأموي الى أربعة أسباب هي :

- 1- انقسام التباذل و تنافسها
 - 2- سحاء بني أمية بالاموال على الشعراء
 - 3- رغبة بني أمية في الشعر ولعهم به
 - 4 - الحركة الادبية في البصرة والكوفة (22) .
- فهذه الاسباب الاربعة هي التي مركب الشعراء ودعتهم الى الاكثار من الانتاج ، وهي التي حلت الشعر في العصر الأموي يختص بسمات صفات تميز بها عن الشعر الجاهلي . وهذه الصفات هي :

- 1 - الحلون وحسن الكلام

- 2 - كثرة التشبيب.
- 3 - المهاجاة بين الشعراء.
- 4 - نبوغ الموالبي في الشعر.
- 5 - ظهور الشعر السياسي أو المديح للاستجداء.
- 6 - وصف الخمر (23) .

وتناول الزيادات من جهته جل تلك العناصر فاعتبرها لها أوجع اليها نهضة الشعر في العصر الاموي، الا انه عرضه في شكل آخر، فقد تحدث عن حال الشعر العربي في كل من العراق والحجاز والشام، ورأى أنه يتسم بالتطور في المراق فقط، وفوقه على خصائصه هناك ما تمداً أبعاد الخطأ والفرق وجدير لانهم قد طغوا في نظره، على غيرهم من الشعراء، ولكنه لم يهمل شعر المذاهب السياسية فذكر بعض الميزات التي كانت لشعر الشيعة والخوارج .

والمأمل في ما كتبه الزيادات عن الشعر في العصر الاموي يلاحظ أنه يرد نهضته الى ستة أسباب هي :

- 1 - استعارة المصيبة القلبية.
 - 2 - نشوء الروح الدينية.
 - 3 - تميز العقليّة العربية.
 - 4 - تحسن الاحوال الاجتماعية والاقتصادية.
 - 5 - ظهور الاحزاب السياسية.
 - 6 - اتساع الفتوح وتأثير الامم الاجنبية في الادب العربي (24) .
- فهذه الاسباب هي التي حركت الشعراء وزينت لهم سبل القدر . وهي أيضاً التي جعلت الشعر في العصر الاموي يختص بالميزات التالية :

(23) - المصدر السابق ص 233، 234، 235، 236 .

(24) - تاريخ ... ص 55 .

- حزالة اللفظ و رهانة الاسلوب وطول العروض و بداوة الصورة.

- ظهور العزل الحضري الرفيف في الحجاز.

- سيطرة الفجاء السياسي على معاني الشعر (25) .

واذا نحن فاربنا بين تأريخ زيدان للشعر في العصر الاموي و تأريخ الزيات له ، بان لنا انهما يعتدنان في ذلك على تعداد الخصائص التي يتميز بها في هذا العصر عن العصر الذي سبعه . ولكن هذه الخصائص تشمل في ما جد في الشعر أكثر مما تمثل في ما دخل على القديم من تحول ، معننى ذلك انهما اكتفيا في التأريخ للشعر بتسجيل ما يظهر فيه من جديد و لم يتناول أي منهما ما دخل على القديم من تحول أو ما تواصل من قارا لم يطرأ عليه جديد أو تحول ، فلتواصل القديم في تاريخ الادب من المعنى والدلالة ما لظهور الجديد أو حدوث التحول فيه . ثم ان هذه الظواهر الجديدة التي دخلت على الشعر في العصر الاموي انما جاءت عند زيدان والزيات ، من علائقه بالهيئة الاجتماعية ، فالجد يد فيها هو الذي أعطى الجديد في الشعر ، بل ان الجديد في الشعر لا يعدو أن يكون من عطاء البيئة . وقد عبر زيدان عن ذلك بقوله : " الانسان صنيعة الاقليم ، تتغير أطواره و أحواله بتغير البيئة المحيطة به ، و يظهر أثر ذلك في نتاج قريحته و فكره " (26) . و عبر عنه الزيات بقوله : " فهل يمكن أن يظل الشعر بنحوه من هذه الحياة الصاخبة ، و العصبية الغلبة ، و الاحزاب المتحاربة ، و الامواء المتصارعة " (27) . فالشعر ان يتغير بتغير الوسط الاجتماعي . و بما أن الحياة الاجتماعية في العصر الاموي اختلفت عما كانت عليه في العصر الجاهلي فان الشعر اختلف في العصر الاموي عنه في العصر الجاهلي ،

(25) - المص - در السابق ص 109 و 110 .

(26) - تأريخ ... ج I ص 233 .

(27) - تأريخ ... ص 106 .

اختلف في عبارته ومعانيه ورجاله ، واختلف بان ظهرت فيه اغراض لم تكن بارزة الظهور ، وبأن سيطرت عليه معان لم تكن هي السيطرة من قبل . وقد عبر زيدان والزيادات عن ذلك تبسييرا واضحا ، فقال الاول : " وقد رأيت أن العرب اختلفت احوالهم في العصر الاموي عما كانت عليه زمن الجاهلية أو في زمن صدر الاسلام ، فظهر أثر ذلك في ثمار قرائحهم وخصوصا في الشعر " (28) . وقال الثاني : " كان الشعر العراقي صرورة لهذه الحياة النائرة المتنافرة ، فهو مروي عنيف يكثر فيه الهجاء والفخر ، وتتلون فيه المصيبة البليبة ألوانا شتى من التحزب للسكان والعنفرة والجنس " (29) .

ويبدو أن لربط تاريخ الادب بما يحدث في البيئة الاجتماعية من تغيير وتحول قيمة كبيرة في جعل الاعمال على حظ بارز من النطفية والتفكير ، الا أن ذلك يتطلب دراسات معمقة وعلمية تتناول الاجتماع والادب بالتحليل الموضوعي المركز . وهو ما لم يتوفر في عمل زيدان والزيادات . من ذلك مثلا انهما جعلتا الادب من صنع البيئة ولكنهما لم يتسالا عن البيئة ما الذي يغيرها ويجعلها على الصورة التي ترد عليها . فليس من شك في أن الانسان وأدبه من صنع البيئة ، وليس من شك أيضا في أن البيئة نفسها من صنع الانسان . فالعلاقة اذن جدلية بين الانسان والبيئة ، وجدليتهما هي التي يحسن بالابحاث أن تتعمقها حتى يظهر أثرها في الادب . ومن ذلك أيضا أن زيدان اعتمد في تأريخه للشعر في العصر الاموي على مجموعة من الاحبار استقاهها ، في ما يبدو ، من الكتب القديمة ، وساعدها ونمسا تحليل أو تحليل . فحدثنا عن ولع الامويين

(28) - زيدان : تاريخ ... ج 1 ص 233 .

(29) - الزيات : تاريخ ... ص 108 .

بالشعر ولهم يذكران كسان هذا الولع طبعها رغب فيهم دون
سواهم أو تطبع اتصفوا به لغايات معينة. وكانت أحاديثه
تلك تخرج به عن الموضوع أحياناً فيورد أخباراً لا صلة
لها بالموضوع ولا تكرار تفيده شيئاً. وآية ذلك خبر
أحمد الأسرى مع الحجاج بعد حرب ابن الأشعث (30).
ومن ذلك أخيراً أن اعتماد الأخبار ذهب بهم إلى ضرب
من المبالغة لا تتماشى مع البحث العلمي. فقد كتب
الزيات قائلاً: "وليس أدل على اهتمام الناس بامرهم (الفرزدق
وجريير) واختلافهم في الحكم على شعرهما أن يتهادن
الجيشان المتقاتلان ساعة ليحكم أحد الخوارج الأديان بين
رجلين من رجال المهلب تنازلاً في أمر جريير والفرزدق" (31).

هـ - ~~الدرج~~ راجع : رأينا أن تراجم الاعلام شغلت معظم
ما أرخ به زيدان والزيات للادب العربي من صفحات، حتى
كادت تخرج بمسليهما من تاريخ الادب إلى تاريخ الرجال.
وفي الحقيقة فإن الأقسام التي مهد بها كل من هذين
المؤرخين لعصور الادب وأرخا فيها لفنونه، لا تكرر
من حيث الحجم، أمام التي عرفا فيها بالشعراء والادباء
والفلاسفة والعلماء. وما نطنبنا في حاجة إلى احصاء
الصفحات والاعلام لا غمّة البرهان على أن التراجم انما
تسيطر على عمليتي زيدان والزيات في تاريخ الادب، لأن
الناظر في كتابيهما لا يكاد يجد أمامه سوى التمرير
بالرجاء. ولكننا في حاجة، هل يسايدو، إلى
التعريف على الطرق التي استعملت في تصنيفهم وترتيبهم
والتعريف بهم، وإلى الوقوف على ما في ذلك من قصايا

(30) - قال زيدان: "فالحجاج وهو أشدهم وطأة جلي" بالأسرى بين
يديه بعد حرب الأشعث فأخذ في قتلهم بقية ذلك اليوم حتى صاح به
رجل: "والله يا حجاج لان كنا أساناً بالذنب فما أحسنت بالمفوز...".

تاريخ... ج II ص 241.

(31) - تاريخ... ص 112 - 113.

يعنى بها مؤرخ الاداب.

اتبع زيدان والزيات في تصنيف الاعلام مبدأ توزيعهم على ما اشتهموا بتعاطيه من أقسام الادب وفنونه، فجعلوا الشعراء فمما على حدة والادباء والمؤرخين والفلاسفة والنحاة أفسا ما كل منها على حدة. وقد برّر زيدان هذا التصنيف بقوله: "أراد الاطلاع على ترجمته عالم أو ساعر أو أديب أو نحوي أو لغوي أو مؤرخ أو حنرفي أو أي رجل من رجال العلم والادب طلب ترجمته في باب العلم الذي علب عليه حسب العصور" (32). ولم يذكر الزيات المبدأ الذي اتبعه في تصنيف الاعلام ذكرًا نظريًا، ولكن عطله جاء شديد الشبه بعمل زيدان.

ولم يكن تصنيف الاعلام حسب الاقسام أو الفنون التي اشتهموا بها هو وحده الذي أحسد به زيدان والزيات في تجميع الرجال فرقا، إذ استعملوا إلى جانب مبدأ التصنيف التي مناطق جغرافية ومذاهب سياسية وأغراض أدبية، فقسم زيدان مثلاً علماء اللغة في العصر العباسي الرابع إلى ثمانية أقسام حسب المواطن التي ينتمون إليها فذكر علماء اللغة في العراق والجزيرة على حدة، وعلماء اللغة في الشام ومصر وإسبانيا كل منهم على حدة (33)، وقسم شعراء العصر الأموي إلى: أنصار بني أمية، وأنصار آل المهلب، وأنصار العلويين وأنصار الحوارج وآل الزبير (34). وحصل الشعراء الأمراء والعلماء والحكام والمشايخ والعجائين والنساء في العصر الجاهلي كلاً منهم على حدة. ولم تكن هذه التصنيفات الثانوية موجودة في تاريخ زيدان والزيات لكل عصور الادب

(32) - تاريخ ... ج II ص 7.

(33) - المصدر السابق ج III ص 33، 53، 55، 56.

(3) - المصدر السابق ج I ص 232، 268، 274، 276.

العربي وسائر أنواعه . فقد أخذنا بالتقسيم الذي عتاد
سياسة أو منازل اجتماعية أو أغراض أدبية في العصر الجاهلي وفي
العصرين الأموي والعباسي . وأما التقسيم الذي منوط بقجرامنة
فقد أخذنا به زيدان في الجزء الثالث من عمله حاشية وأخذ
به الزيات في الوطن الذي أح فيه للشعر الأبي . وهذا يعني
أن التصنيف حسب أنواع الأدب وفنونه هو الذي كان غارا متواصلا
في علمي زيدان والزيات . وأما التصنيفات الأخرى المذكورة
فهي طرفية يقع استعمالها كلها في تعميم الطوائف أو تأثير
المادة .

ولم يكن هذا التصنيف بالامر اليسير عند مؤرخي
الأدب ، فهو يصطدم بأولئك الأدباء الذين تركوا تصنيفات كثيرة
في فنون من الأدب والعلم عديدة ، شحار اسوخ ابن يصفهم ؟ ولد
كان زيدان يشجع به هذه النظم ، فأكد ، في مناسبات عديدة ،
أنه إنما يصف الأعمال في المواضيع التي علم عليها انتاجهم
أو التي اشتهروا فيها أكثر من شهرتهم في غيرها . من ذلك
مثلا أنه استهل تعريفه بلغويي العصر العباسي الثاني
بـ " فـد يعد لعويو هذا العصر أيضا من النماء
أو الأدباء ، ولكننا أفردناهم لاستغالهم على الأكتـر باللمة (35) .
ولكن الاعتماد على الشهرة في تصنيف الأعمال لم يكن ليجل
النقد دائما ، من ذلك مثلا أن زيدان اعتبر قدامة بن جعفر
من أدباء العصر العباسي الثاني وعرف به على ذلك . إلا
أنه كتب متحذرا عن مؤلفه " كتاب الحراج " ، " سيأتي
ذكره في الكلام على الجغرافية " (36) . وهذا يدل على
أن هذه الطريقة في التصنيف تصطر بمؤرخ الأدب إلى التعرّض
بالأدب الواحد أكثر من مرة (37) أو إلى إهمال مؤلفات

(35) - المصدر السابق ج 3 ص 189 .

(36) - المصدر السابق ص 176 .

(37) - عرفت زيدان هذا على يد جعفر في الجزء الثاني من عمله باعتباره أدبيا

في 170 ثم يراه في تاريخه في 207 .

لـه لا تندرج عـي الفـ الذي دكر فيه ، وأوالـ ذكرها في غير
مؤلفها الحفـيفة من تاريخ الادب . ولـلـ الوقف الذي وفـه
زيدان من لـسان الدين بن الخطيب (توفي 776هـ) يوقـ مشـد
من بين أخرى كثيرة ، عدل على انتصاب هذه الفـيفة
في تصنيف أعـلام الادب ، فـد جعله من مؤرخي العصر المنـولي ،
وذكر عن مؤلفاته " ربحانة الكناي ونجعة المنتاب : مجموع
رسائل ، وديوان شعر ، وأشعار و مرشحات ، والسحر
والشعر : في الادب " (38) ، وهي كلها مؤلفات أدبية
لا صلة لها بالتاريخ .

ثم ان هذه الطريقة في التصنيف تستدعي معرفة شاملة
ومعمقة بالأدباء وأدبهم وبما كان لهم من شهرة ، وبأي
المؤلفات التي وصـوها تشببت في شهرتهم . ولم يكن
ذلك سـورا في الادب العربي لـا كان من ضياع أعلامه
وأعمالهم ولـما كان فيه من نسبة آثار كثيرة إلى غير
أصحابها . لقد نسب زيدان مؤلا " كتاب نقد الفـر"
الـ فـامة بن حفـر في حين أن الابحاث بينت الان أنه
لا بن وهـب الكاتب ، وأهمـل التوحيدى فلم يذكره لا ملـن
بين الأدباء ولا من بين غيرهم من أعـلام العصر العباسي
رغم أنه كان أحد البارزين فيه .

يتضح من كل ما تقدم أن تصنيف الاعلام في أقسام
الادب وفنونه كان يمثل إحدى النـايا الاسـية في تاريخ
الادب ، وأن زيدان والزيات حاولا حلـها بالاعتـاد على الشهرة
أو على المناطق الحـرافية ، ولكـ ذلك لـم يكـ ليفـد المـلد
السليم اليها .

على أنه لا يكفي مؤرخ الادب أن يصنف الاعلام في
أقسام أدبية معلومة ، بل عليه أيضا أن يتناولهم بالترتيب ،
فما كانت الطريقة التي اتبعها زيدان والزيات في ذلك ؟

لنجد رتب زبدان والزيات أعلام الادب العربي
 في كل عصر من عصوره وكدل فسلم من أقسامه على سنة
 الوفاة، فكان الاديب الذي تسبق وفاته وفيات عاصريه هو
 الذي يسبق التعريف به. وعلى هذا الاساس مثلاً ترجم زبدان
 لابي الاسود الدؤلي (توفي سنة 69 هـ) (39) قبل
 مسكين الدارمي (توفي سنة 90 هـ) (40) في العصر الاموي،
 وعرف الزيات بمسكين الخطاب (توفي سنة 23 هـ) قبل علي
 ابن ابي طالب (توفي سنة 40 هـ) . وأذا كان زبدان والزيات
 قد حاولا أن يلتزما هذا الترتيب في التعريف بأعلام الادب العربي
 منذ نشأته حتى أوائل القرن العشرين، فانهما لم يخلصا
 الوفاء له. فنجد قدم زبدان ترجمة الانططيل (توفي
 سنة 95 هـ) والفرزدق (توفي 110 هـ) وجرير (توفي سنة
 110 هـ) على ترجمة الراعي رغم أنه توفي قبلهم جميعاً
 أي سنة 90 للهجرة، وندم الزيات ترجمة الفرزدق على ترجمته
 الطرمح (توفي سنة 100 هـ) .

على ان هذه الطريقة في ترتيب الاعلام لم تكن
 لتحل محل من قضايا حوسبها تحارز التكرار لها عن سها
 أو عن حظا. ولعل أول نماياها أنها، اذا ملحت في
 العصر الحاضر لان يرتب بها الاعلام لما انتشر وساع من
 تسجيل الوفيات تسجيلا يعرب اسن المحنة، لا تصليح في
 العصور القديمة لما حول تواريح وفيات الادباء عن غموض،
 فالعرب ما كانت تسجل الوفيات، والاشار التي صارت كثيرة،
 والخلط يتناول أسماء الادباء ومواطنهم والمصور التلي
 نسوا فيها، فميا بالنسبة بتواريخ الوفيات. وادا كان ذلك
 يتناول أحيانا اعلاما قريين من العصر الحاضر، فانه
 لا يكن الاثنان الى أن طرفه بن العبد توفي سنة 500 للملاد
 أو أن عبيد بن الابرص الاسدي مات سنة 555 م. وبالتالي فانه

(39) - المصدر السابق ج I ص 244 .

(40) - المصدر السابق ص 245 .

لا يمكن الاعتماد على سنن الوفاة في ترتيب الاعلام، لان وفيات الاعلام مدهسولة تماما أو هي محل أخذ ورد بين الرواة والباحثين، خاصة أنه من الناس اليوم من صار يشك في أن كثيرا من اعلام الماضي البعيد قد وجدوا فعلا أو قالوا في يوم ما أدباء. ثم ان طريقة الترتيب على سنن الوفاة تلحق بالواقع شيئا من الضيق. ولعل أحسن مثال لذلك ما نجده في كتاب زيدان، فقد ترجم في العصر المعولي للساعر عفيف الدين التلمساني (توفي 690 هـ) ولولده المعروف بالشاب الظريف (توفي 638 هـ)، وقدم ترجمته لولد على ترجمته الوالد لان الابن توفي قبل أبيه بسنتين (41). فاعتمد الترتيب على سنن الوفاة يدخل بعض الصيم على الترتيب المنطقي للوقائع. ولا يقتصر ذلك على هذا المثال الذي يبدو من باب الاتفاق والنادرة، لان بعض الادباء الذين يموتون صغارا يرتبون حسب هذا المقياس قبل الادباء المعمرين وان أخذوا عليهم و نأثروا بهم واتبعوه في أدبهم. وهذه الظاهرة تؤدي بنا الى الوقوف على العيب الاخطر في اصلنااع هذه الطريقة في ترتيب الاعلام.

فالمؤرخون عند ما يرتبون الاعلام حسب الوفيات انما يضعون على الحيط الزمني أسماء جاء بعضها اشهر بمردون اهتمام بما بينهما من علاقات، فلا يتعرف النارئ على حركة الادب في الزمن، وانما يتعرف على تصرف الزمن في الادباء. ويقتضى منطق التحول والتواصل والانقطاع محذولا لان الادباء يجعلون في نظام لا يراعى نظام حركة التاريخ. فهذه الطريقة في الترتيب اذن لا تكاد تعيد شيئا في تاريخ الادب من خلال التعريف بالادباء. ولعل زيدان كان يدرك ذلك فحاول أن يأخذ بالترتيب حسب الماطن الجغرافية أو حسب المفائيد السياسية والمذهبية أو حسب المواضيع الى جانب

الترتيب على سنة الرفاه. ولكن هذا الاخذ لم يكن ليجعل
النصيحة ان السكك يبغي هو هو سواء رتب الاعلام حسب الحاطن
أو حسب المواضيع لان العلاقات التي حكمت اتصال الاعلام بعضهم
ببعض في أدبهم تطول معلقة اهمالاً تاماً، ولان هذا الترتيب
لا يعنى بالتطور الذي يحصل للادب من احداث الادباء فيه.

على أنه قد يتبادر الى ذهن أن مؤرخي
الادب اهتموا في التراجم نفسها بهذا الذي اهتموا العناية
به في ترتيب الاعلام. فلننظر في كيفية تعريف زيدان
والزيات برجال الادب العربي على ذلك يمكن من التعرف على
نظرتهم الى التحول والحركة في تاريخ الادب.

اتبع زيدان والزيات في الترجمة لاعلام الادب العربي
طريقة واحدة حاول كل منهما أن يلتزمها ازاء كل الاعلام
في سائر العصور وكل الفنون الادبية. وتمثل هذه
الطريقة في الاعتناء بنشأة الاديب وأطوار حياته وبأدبه
وخصائصه. ويفهم التأريخ لحياة الاديب على ذلك
اسمه ونسبه وعلى تقديم ما وضع له من احداث وما فقام
به من فعال تتصل بالتاريخ العام أو بالسياسة ان الادبي، وقد
يشفع ذلك بصفات تتناول معتقده وهيئاته. فالأخطى مثلاً
هو غياث بن غوث، من قبيلة تغلب، يكنى أبا مـالك
ويلقب بالأخطى. نشأ في قومه بالعراق وفجع في أمه
صغيراً فربته امرأة أبيه (42). وهذه الاحداث انما تتناول
نسبه وظروف نشأته. والأخطى هاجس كعب بن جعيل
شاعر تغلب فنلبه، ثم هاجس الانصار بأمير، يزيـر
ابن مساوية فأصبح شاعر بني أمية الرسمي. ثم هاجس مع
الفرزدق وجريـر. وهذه احداث تتصل بحياته الادبية.
وكان الأخطى نصرانياً يشرب الخمر ويورث على يزيد بن معاوية

(42) - راجع في ترجمة الأخطى : زيدان : تاريخ... ج I ص 248، والزيات :

تاريخ... ص 161.

وعلى عبد الملك بن مروان، وكان يعيثر حينئذ في دمشق
وحينئذ في بلاد الجزيرة، وهذه أحداث تتصل بعقيدته
وبملاقاته بالخلفاء أى بالتاريخ العام.

أما التأريخ لأدب الأديب فلا يكاد يتجاوز أبا راز
الجودة فيه ومواضعها. وعلى هذا الأساس قال الزيات: "فالاختل
مستاز باجادة المدح، ونعتت الخمير، وقللة البذاءة في
الهجاء"، وسلامة قضاة الطوال من اللغط والسقط (43).
أما زيدان فقد اعتمد على الأخبار والحكايات ليعزز قيمة
شعره الاختل وجودته.

على هذا النمط ترجم زيدان والزيات لأعلام
الأدب العربي. فكان تاريخ العلم عندهما ينقسم إلى
تاريخه الشخصي وتاريخه الأدبي. فالأديب يعرف عندهما
بما حدث له في حياته من وقائع، ومن ذلك مثلاً أن بشارة بن
بريد مات ضرباً (44)، وأن أبا دلامة كان عبداً للرجل
من بني أسد بأخذه (45)، وأن
أبا فراس أسره النـروم
فبيع ببعض وقائعهم (46)، وأن ابن عبـد ربه أصيب
في أعقاب عمره بالفالج (47). ويعرف الأديب أيضاً بما
قام به في حياته من فعال، فأبو العتاهية كان "يتخذ
فيحمل زاملة المعثين، ثم اشتغل بصناعة أبيه" (48)، وعنـترة
"شهد حرب داحـس والغـبراء" وهو شاب (...). وأحب
عمله بنت عمه" (49)، وبطرس البستاني "أنشأ في سنة
1863 مدرسة عالية سماها (المدرسة الوطنية) نالت

(43) - تاريخ ... ص 162.

(44) - زيدان : تاريخ ... ج II ص 53.

(45) - المصدر السابق، ص 73.

(46) - الزيات : تاريخ ... ص 303.

(47) - المصدر السابق، ص 321.

(48) - زيدان : تاريخ ... ج II ص 65.

(49) - المصدر السابق ج I ص 111.

بحسن ادارته وعظيم عنايته شهرة مستفضة" (50) . وقد
يعرف الأديب أيضا بما كان عليه في معتقدات وصفاته
الحسنية أو هيئته أو مكانته الاجتماعية . فالحريرى كان دميما
تصيرا بخيلا قذرا الثوب ملحا بنتفد لحيته عند التفكير (51) ،
وأبو المتاهية كان "مولى" وكان "أبيض اللون أسود
السعر نظيف الثياب" (52) ، وكان المعمرى ملحدا أو على
رأى البراهمة أو شلكا حسب التأويلات (53) . وأما
الخطيئة فقد "أصلحت عليه عوامل الشر فجعلت منه
صورة للزيلة فكان كفا وصفه الأصمعي سي" الخليلي ،
دني النفس ، فاسد الدين ، سؤولا ملحفا ، جشعا ،
كثير الشر ، غيل الخيبر ، بخيلا ، دميما فصيرا ،
رث الميمنة ، متدافع النسب في الثبائل" (54) . على أن
الأديب يعرف أيضا بعلاقته بأبيه لأن الأديب قطعة من صاحبه
دالة عليه . لذلك ذهب الزيات مثلا إلى أن "شرف الكلام
بشرف صاحبه" (55) واعتبر هجاء الفرزدق أغل غيبة
من هجاء الأخطل وجريرا لأن الفرزدق كان "سوقيما
ترعيمة رزقه الله حدة الذهن ورقية الأسلوب وخيرت
اللسان" (56) . وذهب زيدان إلى ذلك أيضا عندما كتب عن
حاتم الطائي قائلا : "وكان حاتم (. . .) شاعرا ومجاعا
يشبه جوده شعره" (57) .

(50) - الزيات : تاريخ . . . ص 474 .

(51) - المصدر السابق ص 245 .

(52) - زيدان : تاريخ . . . ج II ص 65 . 67 .

(53) - الزيات : تاريخ . . . ص 308 .

(54) - المصدر السابق ص 155 .

(55) - المصدر السابق ص 156 .

(56) - المصدر السابق ص 119 .

(57) - تاريخ . . . ج I ص 135 .

والمتبأمل في تاريخ زيدان والزيادات للأدب العربي في عصر من عصوره يلاحظ لا محالة أن العصر الأدبي ليس أكتفى من خطط زمني تتواجد عليه تواريخ عدة تبدأ بابتدائه وتقف عند انتهائه. فللعصر الأدبي خطط زمني تتواجد نوفه أحداث التاريخ العام ويرد بعضها فيه اثر بعض. وللعصر الأدبي خطوط زمنية في عدد الأدب التي كانت نائبة فيه، فلهذا الخط الزمني الذي يبدأ بابتداء العصر وينتهي مع انتهائه، وللخطاطبة خطها وللعلوم علما علما خطوطها. ثم ان لتواريخ الاعلام خطوطها الزمنية المستدة بين الولادة والوفاء. وهذه الخطوط العديدة تتلاقي وتشابك ليتكون منها تاريخ الأدب. ولكن ما هي خصائص هذه الخطوط في انفرادها وفي تراصها وتشابكها؟

يبدو أن الناصية الأساسية التي يتميز بها تاريخ الأدب على النمط الذي مارس الكتابة فيه زيدان والزيادات انما تتمثل في الانتقاء. ذلك أن هذا التاريخ عندهم أحداث وأعلام اختيرت اختيالا معينيا وترتيب ترتيبا معينيا ليتكون منها مظهر تاريخي لحركة الأدب من خلال العصر.

تجلى طاهرة الانتقاء، أول ما تجلى في عناية زيدان والزيادات المعرطة بأعلام الأدب العربي. فقد حاول كل منهما أن ينفذ أعلاما كثيرا يمثلونه. ولكن تلك العناية تبحث على طرح السؤال التالي: هل ترجم زيدان والزيادات لكل الذين أنتجوا نصورا أدبيا في الأدب العربي؟

انهما لم يفعل ذلك، لان الواضح نفسه كان يضطرهما إلى إهمال أدباء وعلماء كثيرين انطعمت أخبارهم وضاعت. وقد قال في ذلك زيدان "وربما كان من بين الذين صاعت أخبارهم جماعة أليس بالهنا" (58). ثم ان من الأدباء الماضين من لم

يبين من احبارهم ما يكون فكرة واضحة عنهم تفسي بالتحريف بهم .
ويبدو أن زيدان انما نظر الي أولئك الادباء عند ما قال :
" وقد اغفلنا ذكر كثيرين من الشعراء لننف على أخبار شي "
من آثارهم يستحق الذكر " (55) . ان الانتقاء ان شي لا بد
منه لمؤرخ الادب عند ما يتاول الاعلام . ولا زيدان والزيات
عملا بمبدأ الانتقاء والاحتيار ، فذكر طائفة من اعلام
الادب العربي ، وأهملا طائفة أخرى ، ونرى من اللازم أن نتساءل
عن المايير التي استخدمت عندهما في ذكر الاعلام أو
اسماطهم .

يبدو والانتقاء في الادب القديم عملا بسيطا لان القدماء
أنفسهم قد قاموا بذلك ، فلم يبق امام زيدان أو الزيات
أرغبهم من مؤرخي الادب الا ذكر الاعلام الذين أحصى النقاد
على تغديمهم . وقد فعل زيدان والزيات ذلك ، فكتب الاول مرات
عديدة قائلا : " أن لنا أن نصف هؤلاء الشعراء وأسعرهم " (60) ،
و " سنأثني على مشاهير النابغيين " (61) ، وقال الثاني في
أكثر من مناسبة : " وهذا نحن أولاء نترجم بأربعة من نابهي
النحاة " (62) .

الا أنه يبدو ان زيدان والزيات لم يأتيا على ذكر
كل الاعلام الذين أحصى القدماء على نبوغهم أو تغديمهم . فقد
قال زيدان اثر انتهائهم من تراجم الشعراء الهليين : " وفي
هذه الطبقة من الجاهليين والمخبريين جماعة ضاى المقام عن
تراجمهم ، وفيهم بضعة من الفحول " (63) ، وقال الزيات ممهدا
لشعراء العصر التركي : " وها نحن أولاء نترجم بذوى الاثر البارز منهم

(55) - المصدر السابق ج II ص 34 .

(60) - المصدر السابق ج I ص 90 .

(61) - المصدر السابق ج II ص 33 .

(62) - الزيات : تاريخ ... ص 366 .

(63) - تاريخ ... ج II ص 164 .

واقفين الآن عند ذلك" (64) ثم قال: أدباء العصر الحديث:
"بفيت طائفة من نابغي الكتاب والشعراء والأدباء، الخطباء
آثرنا أن نخصهم بشي من التفصيل والتحليل" (65).

سنتبع ما تقدم أن مؤرخ الأدباء إنما يعرف بأعلام
دون الأعلام لأن الواقع يضطره إلى ذلك لما كان فيه من انقطاع
أخبار كثير من الأدباء المشهورين، لأن حجم الكتاب
الذي ينبغي وضعه والجمهور الذي يتحده إليه يلزمانه
ذلك. ويبدو أن زبدان إنما أشار إلى هذا الاضطرار
عندما قال: "ما المصاعب عن تراجهم" (66) وإن الزيات
إنما ذهب إلى هذا الالتزام عندما كتب: "ولا تكذب
الله فقد كان لهما حاج التعليم في هذا البلد
وزيادة الناشئين في الأفاضة أثر فسي في هذا
الاجاز" (67). ولكن مؤرخ الأدباء لم يكن في اضطرابه ذلك مجبرا
على ذكر الأعلام الذين ذكرهم وعلى إهمال الذين
أهمهم، فقد كانت له نسبة من الحرية لا مجال للشك فيها،
و اختياره إنما هو اختيار شخصي يقوم على موقف معين من
التراث ويستند إلى تصور معين أيضا للواقع التاريخي
الذي نشأ فيه. وقد عبر الزيات عن تلك الحرية بكلمات
من قبيل "آثرنا" (68) و "حسبنا" (69) كأن يشفع بها
اقتضاره على التمرير بأعلام دون أعلام من تاريخ العرب.

ولعل توفر هذه الظاهرة في عملي زبدان والزيات
يبحث على طرح السؤال التالي: هل يذكر الأدباء ويمرّف

(64) - تاريخ ... ص 404.

(65) - المصدر السابق ص 438.

(66) - تاريخ ... ج 1 ص 164.

(67) - تاريخ ... ص 2.

(68) - المصدر السابق ص 404 و 438.

(69) - المصدر السابق ص 387.

به في مؤلفات تاريخ الادب لانه يحظى بلشهرة ، أم هو
يحظى بالشهرة لانه يذكر في مؤلفات تاريخ الادب ؟
وبالتالي فهل الفراء ينظرون في التعريف بالاخط
أو الجاحظ أو عائشة الباعونية ، على سبيل المثال ، لان مؤلفاتهم
الادبية تندم لهم الثقبافة التي يحتاجونها أم هم ينظرون في
تراجمهم وفي أعمالهم لانه وسع ادراج ذلك في مؤلفات
تاريخ الادب ؟ ولم يكن لهذه القضية هذا الوجه فحسب ،
اذ لهما وجهها الاخر الذي يثلثه السؤال التالي : هل
الادباء الذين ذكروا من بين آخرين في مؤلفات تاريخ
الادب العربي انما ذكروا لانهم يمثلون الادب العربي ويمثلون
آداب عصرهم ، أم أنهم ذكروا في تلك المؤلفات لان ذكرهم
يسود صورة معينة ويخردم فهمنا معيناً للتراث الادبي العربي ؟
على أن هذه الاسئلة توجه الى سؤال آخر بيد أن لـه
قيمتة في ادراك مرافف المؤرخين من الاداب التي يؤرخون
لها ، وهو سؤال يتناول الكيفية التي ينظرون بها الى
التراث : فهل نظروا زيدان والزيات للتراث الادبي العربي
على أنه جامد مختلف على نفسه في العاصي تتحكم
فيه قوانينه وأوضاعه ، أم نظروا اليه على أنه حي متحرك
من جرائ الاستعمال الحالي للنصوص القديمة ، مؤثراً
في الحاضر بمفعول تعامل الناس معه ؟

بيد وأن زيدان والزيات قد أحابا علينا على هذا
السؤال ، وان لم يكن أي منهما بطرحه طرحاً نظرياً . زائد
أنهما قد أدرجا في التأريخ لتراث العرب الادبي كثيراً
من النفايا الحاضرة التي كان واقعها اليومي
والتاريخي يطرحها عليها . وليس بمفردونا أن نحصر
الان كل النفايا الحاضرة التي أدرجها زيدان والزيات
في تأريخها للادب العربي ، فذلك يتطلب عملاً على حدة
يتصاهنا بالبحث والدرس ، ولكننا نكتفي بيمث الامثلة
من كتابهم ما نرى فيها على أنها انما انطلقنا فيهما

من تصور معي للتيرات و... لون بتخايا العصر. فبد
نصم زيدان مثلاً فصلاً صغيراً من كتبه للمرأة في الجاهلية
ابتدأه بقوله : " ومن أكبر الأدلة على رقي العرب
في جاهليتهم ارتفاع نسائهم (. . .) فقد كان للمرأة
عندهم رأي وإرادة " (70) . وتناول الزيات من جهته قضية
المرأة أيضاً فقال في حديثه عن شعر الفرزدق : " رأي الفرزدق في
المرأة يدل على جفاء طبع وسوء أنفة ، وربما دل أيضاً
على منزلتها في المجتمع العربي في ذلك العهد " (71) .
وما نظننا في حاجة إلى التذكير بأن قضية المرأة لهم
تكن قد طرحت لا على الجاهليين ولا الأسلاسيين في تاريخهم
القديم كله ، فهي من القضايا التي طرحها مفكرو النهضة
وأدباؤها . وهذه العناية بقضية المرأة في مؤلفات تاريخ
الأربليست أكثر من صدى من أصلها تلك المعركة التي
قامت حول مسألة المرأة منذ أن نشر قاسم أمين مؤلفاته
فيها (72) . ولم تكن قضية المرأة وحدها هي التي
أشار إليها زيدان والزيات في تأريخهما للأدب العربي
القديم ، فقد عالجوا أيضاً مسألة عدم وجود الشمس
الشمس في عند العرب القدماء ، فكنتتبا زيدان فصلاً صغيراً
بحسب فيه عما إذا كان عند العرب شعراً تسميها أدبهم
في المفسرات التي مهد بها للأدب في العصر الجاهلي (73) .
وتناول الزيات المسألة نفسها في حديثه عن " أنواع الشعر وأغراضه "

(70) - تاريخ . . . ج I ص 32 .

(71) - تاريخ . . . ص 118 .

(72) - لعله من المفيد أن نذكر رأي زيدان في كتاب قاسم أمين فقد قال :
" لم نقرأ كتاباً مصرياً وأعجبنا به أعجبنا بكتاب تحرير المرأة لمؤلفه
اللوزعي قاسم أمين بك . وقد وصفناه في باب التقريظ والانتقاد . ثم رأينا أننا
لا نؤفيه حقه من الإطراء إلا إذا نشرنا فصلاً عن فصله " . الهلال مجلد
السنة 17 (1898 - 1899) ص 524 .

(73) - تاريخ . . . ج I ص 53 .

فقال : "أما الشعب والتصميم والتشجيع فلا أثر لهم...
[في الأدب العربي] لأن مزاولتهم تقتضي الرويسة والفكرة، والغرب
أهل بديهة وارتجال" (74) . ومعهم أن قضية وجود الشعر التشجيعي
في الأدب العربي القديم أو عديم وجوده، إنما هي قضية
حديثية اعتنى بها الأدباء والكتاب في النهضة الحديثة.
عندما اشتد احتكاك العرب بالشعوب الغربية، ويمكن أن نضيف
التي هاتين القضيتين قضية أخرى جاءت في عمل الزينيات
خاصة، وهي قضية المفاهيم السياسية، فقد جرت على لسانه
ألفاظ من قبيل "الاجبرسية" و "الديموقراطية" في حديثه
عن النظام السياسي القبلي في الجاهلية وعن الأحزاب المتصارعة
على النفوذ في العصر الأموي. وإذا كان قد كتب في
معرض حديثه عن أحوال العرب الاجتماعية والسياسية والدينية
والعقلية في العصر الجاهلي : "واذن فمناهي الحضارة والرأي
المسام والارسطراطية والديموقراطية والاقطاع لا أفاط لها
عند العرب والساميين جميعا" (75) فإنه قد منحدثنا
عن الوضع السياسي في العصر الأموي : "وهناك حزب ديموقراطي
ينكر الأحزاب ويكفر الزعماء ويعول بالشورى في الخلافة" (76) .
ولا يعني لنا هذا التناقض في تفكير الزينيات بفرد من
يعني لنا استعماله هذه المصطلحات التي لم تعرف إلا حديثا
في التاريخ للأدب العربي في عصوره الأولى، فهذه
الأمثلة، وغيرها كثير، تدل على أن زيدان والزينيات إنما
نظروا إلى التراث الذي أرحل له من خلال تفاسي العصر، وأنهما
في اختيارهما أعلاما دون أعلام قد اختارا من الأدب العربي
وجهما مميذا عملا على إذاعته بين الناس، وأنهما بالتالي
قد اختارا نوعا مميذا من الثقافة عملا على حمايته والترويج
له. وهذا الوجه أو ذلك النوع قد يكشف عنه البحث عن الاسم المشترك بين

(74) - تاريخ ... ص 31 .

(75) - للمصدر السابق ص 9 .

(76) - المصدر السابق ص 106 .

الاعلام الذين ذكروا في مؤلفي زيدان والزيادات
وبين أولئك الذين لم يذكروا فيهما، أو عن جانب مهم من
خصائصه. ولكن الوقوف على هذه القضية لا يتناسب لنا
في هذا البحث لأنه يمثل موضوعا آخر على حدة (77).

لقد ذكر زيدان والزيادات أعلاما كثيرين من بين
أولئك الذين أنتجوا نصوصا أدبية طويلة عصور التاريخ
العربي الاسلامي. ولكن هل لفي الاعلام الذين وصفهم
ذكرهم في كتابي هذين المؤرخين حظا واحدا من العناية؟
يبدو أن ذلك لم يكن، فلا زيدان ولا الزيادات منح الاعلام الذين
ذكرهم نصيبا متقاربا من اهتمامه. فمن تراجع الاعلام
ما يطول حتى يستغرق الصفحات العديدة ومنها ما يفصل
التي حد الجمل الواحد أو الجزء الواحد من الجملة. لقد
جاءت ترجمة ابن حلدون (78) في عميل زيدان مثالا
في ست صفحات، وجاءت ترجمة شهاب الدين الفسطنطيني
(شاعر مغربي توفي سنة 898هـ) في ما لا يزيد
عن هذه الجملة: "له ديوان في هفينا" (79). ولقد
يرجع التفاوت في طول التراجع التي توفر الأخبار والروايات
عن الاعلام في الكتب القديمة أو عديم وفرها، وقد يرجع
ذلك أيضا إلى منزلة العلم في تاريخ الأدب ومدى اهتمامه،
ولكنه يرجع أيضا إلى قيمة العلم نفسه في نظر مؤرخ الأدب.
فالرياسات مثلا لم يقف الا على الاعلام المشهورين ولكن
تراجهم تفاوت عنده في الطول. من ذلك مثلا أنه ترجم

(77) - يبدو أن المصنف نفسه قد جعل المؤلفات التي تتصادم مع الدين
أو مع السلطة السياسية تنفي بغي من الإهمال. أما في النخبة
الآخرة فلا خيار في حداثته كنهير الدلالة. والوقوف على الأدب
الذين لم يذكروا في عملي زيدان والزيادات هم لا يحلوا
من فوائده لعلها تكون جوهرية في فهم كتابيهما في تاريخ الأدب العربي.
(78) - زيدان: تاريخ... ج III ص 224.

(79) - المصنف: تاريخ... ص 142.

لابن زيدون في أكثر من أربع صفحات، وترجم لابن الحاجب النحوي (توفي سنة 646هـ) في أقل من الصفحة الواحدة. وهذا يدل على أن الأعلام المذكورين في تراخيص الأدب يتفاوتون في القيمة عند أصحابها. ويبدو أن ذلك على صلة بما أشرنا إليه من أن مؤرخي الأدب يسلمون على حساسية ثقافتهم معينة من خلال التأريخ للأدب ولكن الدرس العميق للأعلام الذين توسع زيدان والزيات في تراجمهم، والوقوف المدقق على أولئك الذين اختصروا في التعريف بهم هو الذي يكشف عن نوعية هذه الثقافة التي عمل كل منهما على حمايتها وتشهرها، وعن مدى تلاؤمها مع قضايا المجتمع الذي كتب فيه. أما الذي يهتبا الآن، فهو أن التفاوت في طول تراجم الأعلام يمثّل وجهاً آخر من وجوه الانتقاء الذي أخذ به كمال من زيدان والزيات في التأريخ للأدب العربي.

على أن هذا الانتقاء لا يقتصر على ذكر أعلام دون أعلام ولا على الإطالة في تراجم أعلام دون أخرى، فهو موجود أيضاً في النصوص نفسها التي ترجم بها زيدان والزيات لرجالات الأدب العربي. ولعلّنا هنا أوضح وإبين. لذا أحداثا والوقائع في حياة الأديب الواحد عديدة ومتنوعة لا يمكن لأي مؤرخ كان أن يأتي عليها كلها. لذلك فهو مضطرب إلى أن ينتقي منها أحداثاً دون أحداث، وأن يذكر ورائع دون أخرى وبما أنه لا بد لكل اختيار من مفايير يستند إليها، فانه من اللازم لعلمنا أن نتساءل عما اختاره زيدان والزيات في تراجم الأعلام من أحداث، وما اصطنموه في ذلك من مفايير.

يلاحظ الباحث، أول ما يلاحظ، في تعريف زيدان والزيات بأعلام الأدب العربي، أنهما كانا يميزان بين الذات التاريخية والذات الأدبية للأديب. فما قاله الأديب عن نفسه وما قاله في أدبه يصدق على شخصه، وما قاله به من أعمال أو أشتهر به من صفات لدى الرواة يصدق على

أدبه. لذلك كتب زيدان متحدثاً عن أبي العنابي :
 " ويؤخذ من سيرة حياته أنه كان متردداً معلماً (80) ،
 وقال الزيات عن ليلى : " كان ... ضايفي الجود ، واضر
 اللب نبيل النفس رجم المروءة ، مشبع القلب ، فسالت
 أحلامه وعواطفه في شعره ، وتشلت معاني النبيل
 والكبرم في فخره " (81) . فقد استنتج زيدان تردد أبي
 العنابية وتطلبه في حياته سائر ربي عنه من أخباره ، ولكنه
 استنتج ذلك ليفسر به نظمه الشعر في أغراض شامية
 كالعزل والمدح والزهد . واستخرج الزيات صفات لبيد
 هذه ليفسر بها ما كان لشعره من خصائص جعلت
 الندما يجمعون على تديبه . ولذلك أيضاً كتب زيدان متحدثاً
 عن طرفة " وكان في صباه عاكفاً على السلاهي يعاصر
 الحمر وينفق ماله عليها " (82) وهو ما حدث به
 طرفة عن نفسه في معلقته واعتبره الرواة والنقاد حفاً
 يمدق عليه . وقال الزيات معرفاً بالطرماح : " وكان الطرماح
 رعيب العين يشه النى السال ويتشوف إلى الغنى ويقول :
 أمخترمي رب المنون ولم أئل من المال ما أعصي به وأطيع ؟
 فدأب في سبيله وحرد في تحصيله " (83) وهذه الصفات
 في الطرماح إنما هي مشتقة من هذا البيت الذي ينسب له .
 ويدروا أن هذا المزج بين شخصية الأدب والتاريخية
 وشخصيته الأدبية هو الذي جعل زيدان والزيات يكثران في
 تراجم الأعلام من إيراد الأخبار التي تدل على شخصيات
 الأدباء وتظهر ما كان لهم في عصرهم من مكانة
 وما مروا به في حياتهم من تجارب تأثر بها أدبهم .

(80) - المصدر السابق ج II ص 67 .

(81) - تاريخ ... ص 60 - 70 .

(82) - تاريخ ... ج I ص 109 .

(83) - تاريخ ... ص 173 .

فالسؤال في نظر هذين المؤرخين تتمثل في أن الأديب
 إما يعيش حياته وتمر عليه فيها تحارب عدده تلهـ
 آثارها في انتاحه . وقد عبر الزيات عن ذلك تعبيرا واضحا
 في قوله معرفا بـ **امبري القيسر** : " فتت الأسفار
 والأخطار والمخالطة فريحتة فاستنبط المعاني الجديدة ،
 ونهج المذاهب الحديثة (. . .) وانك لتجـد في شعره صورة
 كاملة من حياته وخلقـه ، وفيه عزـة الملوك ، وتبذل الصلوك ،
 وعريـدة الحاجـن وحميـة النـائـر ، وشكوى الموتـور ،
 ودل التـريـد " (84) . على أن مؤرخ الآداب إنما يحـنـار من
 الأبحار والوقائع ما له صلة بأدب الأديب . اذ لك مثـلا روى
 زيدان من أخبار الأخطـل قصة هجائه الأنصار ، و حكاية
 دله على الخليفة عبد الملك بن مـريـان ، وخبر خولـه في
 الهجاء بين الفرزدق وجرير ، و روى الزيات من أخبار
 زهير قصته مع الحارث بن عـرفـو وهـرم بن سنان . وما دام جـل
 ما يذكره مؤرخ الآداب في تراجم الأعلام إنما يذكره لأنه على صلة بأدبهم ،
 فان الباحث يتساءل عن المؤرخ هل ينظر في السيرة ليفهم الأدب ، أم ينظر
 في الأدب ليستخرج معالم السيرة ؟ واذا كان ينظر فيهما معا فعلى
 أيهما يعتمد أكثر من الآخر ؟ يصعب البت في هذه القضية ، لأن من الأخبار
 التي يتناولها الرواة عن الشعراء ما يبدو شرحا لأبيات تنسب إليهم لا أكثر ولا أقل
 كما في حديث زيدان عن عبد يغـثـوث (85) ، ولان منها ما يبيـدو

(84) - المصـدـر السابق ص 48 .

(85) - قال زيدان في ترجمة هذا الشاعر : " وكان قد أسر وشذ لسانه
 بنسعة و حيرره في الطريقة التي يريد أن يقتل بها . فقال : " أسعوني الحمر
 ودعوني أنح على نفسي " وسقوه وقطعوا له عرق الأكل وتركوه
 ودمه ينزف ومعه ابنه فجعل يلومانه على ما أركبهما من المصاق ، فنظم
 هذه القصيدة و مطلعها :

فما لكما في اللوم نفع ولا ليا

ألا لا تلوماني كما اللوم ما بيا

ونهيها فـسـولـه :

أنسر ، و قد نسـد را لسانـي بنسـعة
 والمكاية مستحلـه من العـصـيدة أو هي شر لها لا أكثر ولا أقل . تاريخ . . . ج I ص 119 .

منوعاً لبيت من الشعر يفسره أو حكاية مستخلصة من...
 بالأخطل مثلاً ما ظهر هجاء حسب الزيادات لأن زوجة أبيه هي
 التي رتبته وأسائه تربيته فشبه سليل اللسان خبيث النية
 مدنياً على الحمير" (86) .

ولكن زيدان والزيادات لم يحسبها العمل ، على ما يظهر ،
 بهذا السعي الذي يفسد الأدب من انتاج ما تكون للأديب
 من شخصية طيلة حياته ، فلم يقتصر على اختيار الوقائع والأحداث
 التي لها علاقة بالأدب تفسره أو تستخدم لممنه . وإنما أكثر
 من الحكايات النسي لا يعتنى لها ولا قيمة . ومن هـده الأخبار
 ما أنجد سدا لوجوده في عمل زيدان حاشية ، فنجد
 كتب عن ذي الرمة : " وكان مستديراً الوجه حسن الشعر
 حده ، أنقى الأنف ، أنزع ، خفيف العريض ، حسن الضحك ،
 مفوهاً " (87) ، وقال عن أبي الفتح البلطسي : " كان
 طويلاً ضخماً كبير اللحية ، يعتنم بعمامة كبيرة وثياب
 كثيرة في الحر " (88) ، وكتب عن الصولي : " كان أمهراً
 أهل زمانه في لعب السطرنج " (89) ، وقال عن أبي الحسن
 الأشعري : " كانت نفقته في السنة سبعة عشر درهماً ، وكانت
 فيه دعاية ومزح كثير " (90) . وقد أطننا في ذكر السواهد
 لأن هـده الأخبار كثيرة جداً في عمل زيدان لا تكاد
 تخلو منها ترجمة على من الأعلام الذين عرف بهم ، ومزح
 ذلك فهي لا تفيد شيئاً لا في تاريخ الأدب ولا في التعريف
 بالأدباء من حيث أشخاصهم ولا من حيث صلتهم بأدبهم .

وفي علي زيدان والزيادات مظهر آخر من مظاهر الانتعاش ،
 لعمل الوقوف عليه لا يخلو من قيمة في ادراك خصائص التأريخ

(86) - تاريخ ... ص 161 .

(87) - تاريخ ... ج I ص 236 .

(88) - المصدر السابق ج II ص 35 .

(89) - المصدر السابق ج II ص 173 .

(90) - المصدر السابق ص 214 .

للأدب وأعلامه حسب منهج المصنوع، وهو مظهر تشلله تلك المختارات الشعرية والنثرية التي تتبع في العادة تراجم الأعلام. وقد كانت هذه المختارات تدرج، ففي الغالب بعد التراجع على أنها شواهد تستحسن لأصحابها وتدل على ما كان لهم من تقدم في الأدب الذي تعاطوه. لذلك فهي كثيراً ما كانت تشفع بعبارات من قبيل: "ومن شعره" و"من مخترعاته" و"من لطيف معانيه" و"من أدلة اقتداره" و"من يديع شعره". إلا أن هذه المختارات تختلف في عمل زيدان عنها في عمل الزيات.

فهي لم تكن قائمة بالحصور في عمل زيدان تتبع تراجم الأعلام كلهم، وإنما جاءت في الجزء الأول والثاني فقط، ثم غابت من الجزئين الثالث والرابع. وهي لم تكن في الجزئين الأول والثاني، موجودة في تراجم الشعراء كلهم، وإنما كانت تعيب من حين لآخر فلا نجد لها أثر في تراجم البعض منها. ثم إن هذه الشواهد تتسم بالقصر والإيجاز لا تكاد تتجاوز الأبيات القليلة أو البيات الواحد. ولم تكن هذه الشواهد علاوة عن قصورها وقلتها، ترد أحياناً الانتهاك من التعريف بالعلم، وبعضها نجده داخل التعريف يؤكد خبراً من الأخبار الواردة فيه أو يستعمل في البرهنة على نبوغ العلم واقتداره، وبعضها الآخر نجده أثار التعريف، وإذا كان تصحيح لها قيمة للشواهد التي تختار نماذج تستحسن للشاعرا والأديب وتدل على ما كان له من تفنن في إنتاجه أو إبداعه. إلا أن هذه النماذج غليظة جداً في عمل زيدان وقد لا يجدي البحث فيها نفعا طاهراً.

أما عند الزيات فالشواهد تمثل جزءاً هاماً في تراجم الأعلام، إذ هي متوفرة في تراجم الشعراء والنثرين والخطباء جميعاً. ومن هذه الشواهد ما هو نثرى ومنها ما هو شعري. ومن هذه الشواهد ما يساق نماذج من أدب العصر تفيد في بيان التاريخ للأدب فيه، وبين تراجم أعلامه المشهورين.

ونعنها بما يسر به الزيادات محذرات لمن شعر الشاعر أو أدب بالاديب. وتبدو هذه الشواهد على غاية الأهمية لأنها تتضمن نوعية الثنافة التي اشترتها الس أن مؤرخي الآداب انما يعطون، في آثارهم، على حمايتهم ونشرها. لذلك رأينا أن نضع على المعايير التي عمل بها الزيادات في اختيارها هي دون سواها.

لعمل أول مقياس اختيرت به تلك الشواهد هو غيا س جودة، فهذه الشواهد تقدّم على أنها أحسن ما وضع الأدب وأجود ما أتت به، فهي في نظر الذين اختارها تفوق سائر ما ألفه الأدب. لذلك كان الزيادات يشفعها أحياناً بقوله "ومن جدد شعره" (91) أو "ومن معانيه الجميلة" (92).

أما المقياس الثاني، فهو، في ما يبدو، مقياس تمثيل، نعني بذلك أن الزيادات انما اختار تلك الشواهد دون سواها، لأنها في نظره، تمثل شعر الشاعر وتدون أحسن من غيرها على ما اشتهر به ونبيغ فيه. لذلك اختار لأبي نواس مقطوعات في الخمريات، ولبشار مختارات في الخزل، وللحطيثة مقطوعات في الهجاء وفي المديح. ويبدو الاختيار من هذه الناحية موفعا لأنه بسبب أن شعر الشعراء يكاد يمثل الجوانب التي غلبت عليه.

إلا أن الاختيارات لم تكن، على ما بظهر من بعض المواضع، مصلية كلها إلى أدب الأدب التمثيل المطلوب على أضواء هذين الميادين السابقين. فقد اختار الزيادات لسوفي مثلاً طعنتين الأولى في وصف دمشق والثانية في إقامته بالاندلس. واختار لحافظ إبراهيم ثلاث مقطوعات: الأولى في اللغة العربية، والثانية في الخمريات، والثالثة في غادة اليابان وشجاعتها. وهنا نتساءل عن مدى تمثيل هذه المختارات لشعر سوفي

(91) - تاريخ... ص 57.

(92) - ... ص 75.

أو حافظ إبراهيم . فأين هو شعرهما الوطني مثلا ؟ وقد أصبح غياب الثنوا هــد في الشعر الوطني أمرا له معناه إذا عرفنا أن حافظ إبراهيم إنما اشتهر بنصائده الوطنية وهو ما أكد هــه الزيـات أثناء الترجمة له . ولم يكن هــذا خاصا بالشعر الحديث ، فقد اختار الزيـات للمتنبـي خمس مقطوعات أثبتـها على أنها تمثل شعره ، وكانت الأولى في شكوى الزمان ، والثانية والثالثة والرابعة في التفلسف ، وأما الخامسة فقد كانت في الغزل . فهل تمثل هــذه المقطوعات سائر شعر المتنبـي ؟ وهل هي أحسن ما قال ؟ أين هي مدحياته في سيف الدولة ؟ وأين هي أهـاجية فـي كافور ؟ وأين هي أشعاره التي اعتدّ فيها بنفسه ومجدها ؟

يبدو إذن أن هــذه المختارات لم تنتق لأنـها تمثل شعر الناصر أحسن تمثيل ، أو لأنـها مما يستجـار له دائما ، بل إن وراءها ، على ما يظهر ، مقاييس أخرى تلمس فـي نوعيتها أولا وفي ما رأى الزيـات فيها ثانيا ، وفي ما ينتظره من عـدها أجود ما قال أدباء هــم في نظره أـبرز من عرفت الآداب العربية من أعـلام . وهـذه المقاييس التي لم يصـرح بها الزيـات ولم يلمـح لها ، والتي تبلـدو سؤـيرة في اختياراته أعظم تأثير وأبلغه هي التي تكـف لنا عن تلك الثقافة الادبية التي يـمـل على حمايتها وعلى نشرها بين الناس . ولا يمكننا أن نـسف الآن على ذلك ، وفي حدود هــذا العمل ، لأن هــذا النوع من البحث يعتـضي أعمالا بـفردة بها قد تتجاوز هــذه الدراسة .

الا أن الذي يهـمنا الآن ، وبالدرجة الأولى ، من النظر في هــذه الشواهد أو المختارات ، إنما هو أنها لم تنتق بـمـرحب نظـرة معينة لتاريخ الأدب ، فقد اختيرت في علاقتها بها حبـها وبأدبـه ، واختيرت لأنها في نظر القـدماء أو في تلك السـر بـرخصي الآداب ، من أجود الأدب وأحسن الشعر ، ولكـما لم نحتـرل أنها تبين تحول الأدب أو تعيره في التاريخ .

وإذا كنا نجد في المختارات التي انتقاها الزيات لابن الرومي عبارات من قبيل : "ومن قوله هو قال ما ينبغي أحد الذين هذا المبنى" (93) أو "ومن معانيه المختارة" (94) وهي عبارات تدل على أن الشواهد إنما هي مما حدرت في السمر العربي ولم يكن له شبهة في ما سبق منه ، فإن معظم المختارات تشفع في العلب بعبارات الاستحسان أو لا تشفع بشيء ، إذ يكتفي الزيات بأن يكتب مهـدا لها : "وقال . . . وقال أيضا" (95) . وهذا يعني أن الاختيارات وردت لتظهر تفوق السامر وتبرر وجوده في مؤلفات تاريخ الأرب ، أكثر منها لتدل على التنوع والحركة فيه . وهي من هذه الناحية لا تنفي بالحاجة المنتظرة منها .

2 - العمل بمصـلهـم التقسيم إلى أغراض :

رأى الرافعي أن يستعمل في تاريخ الأرب العربي منهج التقسيم إلى "أبحاث" فهو ، عنده ، الطريقة المثلى التي تمكن المؤرخ من التعرف على ما يتبع للعباءة الأربى من تطوُّر على مر العصور . أو لكس عمله ، أو ما حققه محمد سعيد العريان من عمله ، جاء شديدا الاضطراب والتفكك والفساد . ولعل ذلك يرجع ، من بين ما يرجع إليه ، إلى أن الرافعي لم يتم الجزء الثاني من كتابه ولم يضع له صيغته النهائية . وبما أن هذا الجزء من مؤلفه ، هو الذي أرخ فيه للأرب العربي ، لأنه خصص الجزء الأول للنبذة والرواة ، واقتصر في الثاني على تأريخ القرآن والحديث ، فإننا اعتمدنا عليه اعتمادا كبيرا في البحث عن نوعية العمل الذي قدمه الرافعي بمنهجه ذلك .

(93) - المصدر السابق ص 279 .

(94) - المصدر السابق . الموطأ من نفسه .

(95) - في المتن : "وقال . . . وقال أيضا" ص 294 .

لقد تناول الرافعي في تأريخ الشعر العربي ثلاثة مواضيع أساسية، وقف في الأول منها على مسائل عامة تنسب بأولية الشعر ونشأته ومكانته عند العرب، وبسما الشعراء وحالتهم في الانشاد وألقابهم وطبقاتهم، وبالبدية والارتجال والبسوخ والغابة وبالاختراع والتباعد، وبشياطين الشعراء. وأخ في الثاني لأغراض الشعر العربي الرئيسية، ما نسا منها في الجاهلية وتطور مع تطور المجتمعات الإسلامية، وما استحدث بعد ذلك في العصر العباسي والعصور التي تليه. وأما في الثالث فقد عرف بثلاثة شعراء جاهليين هم امرؤ القيس وطرفة وزهير، ولعله كان عازما على التعريف بأكثر من ذلك مثلاً يستنتج من قوله يتحدثنا عن مهمل: "وسنأتني على وصف هذه المراثي في ترجمته" (36).

وقد يتبادر للذهن أن هذه المواضيع الثلاثة تكون أساما ثلاثة متكاملة لتخطيط شامل وضعه الرافعي لتأريخ الأدب العربي، إذ القسم الأول يعنى بتاريخ الشعر، ويعنى الثاني بأغراضه، والثالث بأعلامه، خاصة أن هذه الأسماء جاءت بعضها اثر بعض. ولكن الباحث يجد مشقة في الاطمئنان إلى أن الرافعي ارتأى لعمله هذا التخطيط، ذلك أنه أخ في الجزء الثالث من كتابه للأدب الأنديلسي حسب منهج التقسيم الذي عرون، وتحديث، وإن كان ذلك في ثلاث صفحات فقط، عن التأليف وتاريخه عند العرب. لهذا فإنه يعسر البحث عن تخطيط التزمه الرافعي في تأريخ الأدب العربي.

إلا أن النقص البين في عمل الرافعي، والخلط الظاهر في أخذه بالتقسيم إلى أغراض حيناً وإلى قرون حيناً آخر، لم يكن ليحول دون أن نعد هذه الأقسام الثلاثة نموذجاً للأخذ

بالتقسيم إلى أغراض في تاريخ الأدب، إذا ان الرافعي أخ فيها للشعر ولاغراضه وأعلامه، وجعلها تباعدا لا يفصل بينهما شيء، لذلك فإن الوصف عليها قسما قسما يطلعنا على نوعية العمل الذي يمكن أن يقدمه مؤرخ الأدب إذا هو اعتمد منهجية التقسيم إلى أغراض فيه.

أ - تاريخ الرافعي للشعر العربي : تناول الرافعي في هذا القسم الكبير قضايا كثيرة من تلك التي تتصل بتعريف الشعر وأقدميته عند العرب، والشعراء، وألقابهم وطبقاتهم وشياطينهم وحالاتهم في النظم والانشاد وأثرهم، وبالعلاقة الشعر بالاجتماع وبطوره ولغته.

فالشعر عنده هو الكلام الموزون المفق في الذي يرحح المنشور برونيق عبارته واختصاره في الدلالة (٥٦). وقد اهتمت إلى العرب بغيرتهم عندما صاح بعضهم بكلمات فدفعها القلب في حالات الفضب فجاءت موزونة وأحدثت في النفس أثرا. ثم شاع بينهم وانتشر لتلاوته مع طبيعة احتياهم. إلا أنه لا يرجح إلى اعتبار من مائتي سنة قبل الهجرة لأنه خرج من اللغة العربية اثر استقلالها وتهذيبها. وكانت للشعراء مكاتب يتأثر بها القائل لأن أفرادها بالشعر حاجة عظيمة. أو من الشعراء من هو مقلد، ومنهم من هو مكشرا، ومنهم من يفوله على

(٥٦) - التعريف الكامل للشعر في عمل الرافعي هو : " ليس شبرا جاهليته مطلق الكلام الموزون، ولكنه مع وزنه ينبغي أن يكون ممتازا في تركيبه وتأليف ألفاظه. فإذا عارضته بالمنثور من كلامهم رجح برونيق العبارة والاحتصار في الدلالة واستجماع الغرض من الكلام، حتى يصح أن يقال فيه أنه احسان من ناطق". المصدر السابق ج III ص 22.

الهدية والارتجال ومنهم من يأتي به بعد الرواية
والطالة الجهد . ومن الشعراء القبيح ومنهم المختصر ، وهم
من الجودة في طبعات . وللمرأة حظها من الشعر
وان كان قد علب عليها الاقتنان في الرثاء . والشعر
متصل بالحياة الاجتماعية يتطور بتطورها .

هذه هي معظم العناصر التي تحدث عنها
الرافسي في النسم الذي أخرج به للشعر العربي . وأما
بيدو ، لأول وهلة ، أنه خرج بتاريخ الأدب من نطاق النصوص
الأدبية إلى تناول الظاهرة الأدبية في المجتمع العربي ،
خاصة أنه قال في بحثه عن نشأة الشعر لدى العرب :
" بني أن نعرف كيف نطقوا بهذا الكلام وما الذي نبههم
اليه وأحسراه على ألسنتهم " (٥٨) ، وأنه تحدث عن
سبب الشاعر وعن حالة الانشاد وما كان العرب يمتدحون
فيه من شياطين الشعراء . إلا أن عمل الرافسي لم يكن من
ذلك في سني ، إذ أنه تناول هذه المواضيع نفلا من
القدماء ، ومنافسة لما قدموا من آراء متضاربة فيما . لذلك
أكثر من الأخذ عنهم و جرت على قلمه تعابير كثيرة من
عبدل : " رفي الحديثان " و " ذكر المرتضي في أماليه " و " قال
الأمري " و " نقل السيوطي في المزمهر " و " قال ابن رشيق " و " قال
الثعالبي " و " لكن ذكر الجاحظ " (٥٩) .

ثم أنه لم يأت بالأخبار التي نقلها عن القدماء
ليدعم فكره أو يخالف رأيا منتشرا ، إذ أنه كتبها ما كان
يسوقها تنديرا أو تعجبا . من ذلك مثلا قوله : " ومن أعجب
ما يروى عن شاعرة ، حبس عجز تسمى خويلة ، وكان يدخل
عليها أربعون رجلا كلهم لها محرم بنو أخوة وبنو أخوات ،
طهرتهم بنو واهن وبنو غلب فقتلوا منهم ثلاثين ،

(٥٨) - المصدر السابق ص ٢٤ .

(٥٩) - المصدر السابق ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٣ ، على التوالي .

فوقفت خويلة على مصارعهم ثم عمدت إلى خناصرهم فقطعتها ونظمت منها قلادة وألثمها في عنقها وخرجت. ثم لحقت بهم من اختها تستنفره للشار في شعر جاف مفتضب كخناصر قتلاها، رواه الفالسي في أماليه (100). ومثل هذا الخبر كثير في مؤلف الرافعي، ويبدو وأنه كان ساعداً يبعدها عن الموضوع الذي يؤرخ له، فقد كتب معدمالاً حراً الأخبار: "ومن هذا العيل وان كما نوره استجماماً وفكاهة - ما ذكره الجاحظ... (101). ولا يخفى أن هذه الأخبار لا تغيد شيئاً في تاريخ الشعر العربي، فهي خارجة عن الموضوع، وهي لا تؤكد فكرة ولا تدعم مذهباً، وهي إذا اقتربت من الموضوع تغتفر إلى التحليل والدرس.

ومن هذه الأخبار في ما يبدو وما كان الرافعي يورده لاظهار تفوق الجنس العربي على سائر الاجناس، ولا فامة البرهان على أن العرب أقدر الناس على الشعر وأفضلهم فيه. فالعرب اكتشفوا الشعر اكتشافاً من تلقاء أنفسهم، ولم يأخذوه عن أية أمة أخرى، وقد اكتشفوه عندما تهذب لغتهم وبلغت في الرفي والفضل درجة الأجاز، فكان شعرهم في نقاوة جنسهم وفي اعجاز لغتهم: "وهذه الأمة من أمم الفطرة، فليس لديها من أسباب التعلم والأخذ عن الأمم الأخرى شيء، فلا بد أن يكون شعرها كما في اللغة، فلم ينطقوا به حتى هذبت وصفيت وصارت إلى السطوة في تصوير الإحساس وتأيتة على وجهه الأتم" (102). ثم إن العرب أمة شاعرة لا تضارها

(100) - المصدر السابق ص 68 والأخبار على هذه الصفة كثيرة التواتر في أجزاء الرافعي الثلاثية لا يكاد يخلو منها فصل

(101) - المصدر السابق ص 41.

(102) - المصدر السابق ص 22.

في ذلك أمة من الأمم، وقد عبّر الراجسي عن ذلك في قوله :
 " وإذا وجدت أمة كلها شعرا " تساقط شعراؤها حتى لا
 يثبت منهم ولا ينفرد الامن كان فوق الطبيعة . و جاء
 من وراء العادة فيما قالوا وفيما سمعوا " (103) . وقد
 فاده هذا الانتصار للجنس العربي وللغة والسعر العربيين
 التي استخدمت ألوان من الحجج وضروب من التأويل ، منها
 قوله : " رأينا الاستعمال العلمي الحديث (السيكوفسيولوجيا)
 للنسبوع والاستعمال اللغوي العديلم يضعان هذه الكلمة
 جنب القوة التي يحركونها لها " (104) ، وقوله متحدتها
 عن أوزان الشعر العربي : " وهذه الأسرار الدفينة هي
 التي امتاز بها الشعر العربي على كل ما سواه من
 أشعار الأمم " (105)

ومن هذه الأخبار أيضا ما كان على صلة
 بالحاضر يتضمن قوافد الراجسي من قضايا معاصرة لا علاقة
 لها بالشعر العربي ولا بتاريخه . من ذلك مثلا أن
 عرض لضيعة المرأة في معرض حديثه عن النساء الشواعر في
 الداهلية ، واتخذ لنفسه موقفا من مسألة الحجاب فقال :
 " إذا كانت المرأة دون الرجل في هذه القوة ، فلا هو
 ينقلب أنثى ولا هي تنقلب رجلا (. . .) فكانت الطبيعة
 نفسها حجابا مضروبا على النساء قبل الحجاب الذي
 ضربه الرجال عليهن " (106) . ومن ذلك أيضا أنه كان
 يستصغر المعصريين من الكتاب العرب ويفرق عليهم القدماء
 كما يتضح من قوله : " جرى التأخرون على أن يعرفوا
 الشاعر المحسن احسانا عاليا بالنايغ والنايغ في المبالغة ،

(103) - المصدر السابق ص 65 .

(104) - المصدر السابق ص 51 .

(105) - المصدر السابق ص 26 .

(106) - المصدر السابق ص 65 .

ويطلبون هذا الوصف الملائما عاما غير ملتفتين الى اصل
الكلمة ووجه اشتقاقها (. . .) ولم يكن النبلوع عند العرب
لقبا عاما كما توهموا (107) .

وادن ، فالرافعي لم يخرج عن حصر الادب في النصوص
الادبية ، عند ما ألم في تاريخ الشعر العربي بمسائل
عديدة و ظواهر مختلفة خارج نصوصه ، وانما فعل
ذلك استطرادا و خروجا عن الموضوع لغايات معينة كانت له .

على أن هذا القسم ، رغم ما جاء فيه من حكايات
وأخبار ، ورغم اشتغال الرافعي فيه بغير موضوعه ،
قد تضمن نظرة صاحبه الى حركة الشعر العربي التاريخية ،
ذلك أن الرافعي تحدث عن " تنوع الشعر العربي " وعن " الاختراع
والاتباع " فيه ، فأمكن له أن يصف على الحركة والثبات
في الشعر . ويبدو أن الرافعي يعتقد أن الشعر العربي
عرف ، أول ما عرف ، في الجاهلية عندما بلدع أتت على
مراحل التطور والرفي ، وإن كل ما جاء بعد الجاهلية
من شعر اسلامي أو محدث أو متأخر لم يصل الى من
وصل اليه الجاهليون فيه من كمال . فحركة الشعر من
هذه الناحية هي حركة تنازلية يستند فيها فسادا كلما
لمتعد به الزمن عن العصر الجاهلي . والسبب في ذلك
في ما يبدو ، أن الشعر الجاهلي انما استمد عظمته
من العرب الذين نطقوا به ، وهم في نظر الرافعي ،
أفضل الأجناس البشرية قاطبة ، ومن اللغة العربية التي
حاشا فيها ، وهي عند الرافعي تفوق سائر اللغات
وتفعلها ، وأن الجنس العربي اختلط بعد الفتوح بأجناس
أخرى أقل منه عيمة ، واختلطت بذلك اللغة العربية
بلغات أخرى ونها منزلة أو استعمالها " الأعاجم " فهدج نوها .
والادلة على ذلك عديدة لا يكاد يحصرها استقصاء ، تطالعنا

في معظم الصفحات التي أُرِخَ بها الرافعي للعرب وأدبهم.

ويبدو أن هذا الفهم هو الذي جعل الرافعي يرى حركة الشعراء تواكب حركة الحياة الاجتماعية. فالمحدثون في نظره "فرد خالفوا العرب في كثير من النعم التي ما هو أليق وأمس بزمانهم" (108) ، وقد كان ذلك عنده "من تأتبر العصور عليهم ضرورة" (109) . ثم إن الشعراء المحدثين حسب الرافعي أهل حضارة ، والحضارة "تفتق القرائح بما توقعه من المآخذ المختلفة" (110) . إن الأدب عند الرافعي ، إذن يتحرك طبق حركة المجتمع ، فهو لا ينمو من تلقاء نفسه نموًا ذاتيًا يصنعه الأدباء ، وإنما هو يتبع المجتمعات فيكون على قدرها في الرقي والتهافت . ولما كانت المجتمعات العربية قد تدرجت من الكمال في الجاهلية إلى الفساد في العصور المتأخرة ، تدرج الشعراء أيضًا من الكمال في الجاهلية إلى الفساد في العصور المتأخرة . ويبدو أن هذا التطور قد وجد تجسيمه في عبارات من قبيل "الاختراع في شعر العرب مما يظلمون به عند المحدثين" (111) أو "حتى استبحر الثرف وفسد همة الاجتماع ، وتهالك طبيعته جعل الشعراء يتظرئون" (112) وهي عبارات يدافع بها عن الشعر الجاهلي أو يبرر ظهور أغراض شعرية لم يرها تليق بالأدب العربي أو باللغة العربية لما كان ينفعهما به من ألفاظ مثالية السحفاً والخبث" (113) .

(108) - المصدر السابق ص 77 .

(109) - المصدر السابق الموطن نفسه .

(110) - المصدر السابق ص 54 .

(111) - المصدر السابق الموطن نفسه .

(112) - المصدر السابق ص 139 .

(113) - المصدر السابق ص 99 و 143 . وهي ألفاظ كثيرة الجريان

على المسبب الرأى ، في هذه التواتر في أحزاء كتابه الثلاثة .

على أن للشعر العربي ، وفي نظرا لرافعي ، حركة أخرى غير تلك الحركة التنازلية التي تدرجت به من الرفع إلى الوضاعة أو التسيج كبت حركة المجتمع أو جئت عنها . وهذه الحركة الثانية هي حركة إضافة ، فالأدباء في كل عصر من عصور التاريخ يضيفون إلى الرصيد الشعري تأتيهم من أزمانهم . من ذلك مثلا أن الشعراء المخضرمين لم يبتغوا شيئا لهم يكثر عند جاهليين ، وأن شعراء الصدر الأول من الإسلاميين " زادوا " في الشعر " بعض ما مكنتهم منه الحالة الدينية " ، وأن شعراء العصر الأموي " ذهبوا في التوليد والابداع والاحتراع مذهبا واضحا ، وطرقوا لذلك طريقا سائلة " ، وأن المحدثين " نظروا إلى مفارص الفطن ومعادن الحفيفة ولطائف التشبيهات فأحكموا سبورها " حتى " نصبوا لأنفسهم منزلة تضارع المنزلة التي وقف عندها الشعراء القديم " (114) . ولا تغف هذه الإضافة عند العصر العباسي إذ هي تتواصل في العصور اللاحقة ، ولكن ملجأ به الشعراء بعد ذلك لم تكن له قيمة تبرر رعاية الرافعي به . وإذا كان قد أرخ لضروب الصناعات اللفظية التي أحدثها المتأخرون وولعوا بها ، أو لتلك الفنون التي استحدثت بعد العصر العباسي مثل الموشح والدوبيت ، فلأنها ، وإن " خرجت بها آداب اللعبة ملحونة " (115) ودلت " على فساد النظر وسوء الإختال " (116) مما يستوفى بها تدخل التواريخ .

هكذا أرخ الرافعي للشعر العربي منذ نشأته حتى توفيه . ويبدو أنه كان في ذلك مترددا بين فكره مسبقا انطلق منها ورأى بمقتضاها أن الشعر العربي عرف ، أول ما عرف في الجاهلية ، على حظ وافر من الكمال ، وأنه تدرج إلى الفساد بتدرج

(114) - المصدر السابق ص 155 .

(115) - المصدر السابق ص 157 .

(116) - المصدر السابق الموطأ من نفسه .

المجتمع العربي واللغة العربية من الكمال عندما كان الجنس العربي صانها نقيها والسن الفساده عندما اختلف العرب بالاحساس المجاورة ، وبين فكرة أخرى عبر عنها بقوله : " ناموس الانتخاب الطبيعي الذي يقضي بتنازع البغاة " (117) ، و يبدو أنها راجت في عصره وأجبرته الوقائع التاريخية على الأخذ بها . فذهب إلى أن حركة الشعر العربي حركة تنازلية ، وذهب إلى أنها حركة رقي في المعاني وحركة إضافة في الكم .

ب - فأريخ الرافعي لأغراض الشعر العربي : أن الرافعي لمعظم أغراض الشعر العربي ، مما كان منها موجودا منذ الجاهلية وتطور بتطور المجتمع الاسلامي ، كالهجاء والسديح والرثاء ، وما نشأ وتطور أثناء العصر العباسي والعصرين التاليين تليه مثل الشعر الهزلي والعلمي . ولكنه لم يستعمل كلمة " أغراض " ، وإنما استعمل كلمة " أبواب " كما يظهر من قوله مهردا لهذا القسم : " وسأخذ في تاريخ اهم الابواب التي يدخل فيها النظم العربي " (118) . وأرخ في هذا القسم أيضا " للفنن التي أحدثها البلديون " مثل الموشح والدرويش والنوايل والنوا (119) .

وقد اتبع طريقة تكرار تكون واحدة سواء في تأريخ أغراض الشعر العربي أو فنونه . فهو يبدأ في الفلب بتحديد المصطلحات الدالة على الأغراض والفنون ، ثم يحاول الوقوف على التواريخ التي نشأت فيها ، وبعد ذلك يذكر مختلف التحولات التي دخلت عليها طيلة عصور التاريخ العربي الاسلامي .

ولم تكن للرافعي على ما يبدو من عمله طريقة واحدة

(117) - المصدر السابق ص 56 .

(118) - المصدر السابق ص 79 .

(119) - المصدر السابق ص 157 .

في تعريف المصطلحات الدالة على أغراض الشعر العربي وأنواعه ، فقد يعرفها تعريفا لغويا في بعض الأحيان كما في قوله عن " الدوبيت " : " وهذا الاسم من كلمتين ، إحداهما فارسية وهي (دو) بمعنى اثنين ، والأخرى (بيت) العربية " (120) ، أو في حديثه عن العزل والنسيب : " ليست هاتان الكلمتان مترادفتين بالمعنى الخاص كما جرى في عرف الناس ولكن بينهما فروقا نبته عليها فدائمة فبال : ان النسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن ، وتصرف الهوى به معهن (...) والعزل انما هو التصابي والاستهتار بمودات النساء " (121) . وقد يعرفها من حيث استعمال العرب القديمة لها ، كما في قوله من الرثاء : " الشعر في الرائي انما يقال على الوفاء ، فيقضي الشاعر بفعله حقوقا سلفت أو على السجية اذا كان الساعر قد فجع ببعض أهلها ، وهو ذكر ما يدل على أن الميت قد مات ، مجمعون بين التنجيع والحسرة والأسف والنلمف والاستعظام " (122) ، وقد يعرفها أيضا من حيث هي في نظره أو من حيث معناها الاصطلاحي الذي استقرت عليه لدى العرب كما في قوله : " نريد [بالشعر العلمي] المصائد التاريخية أو العلمية التي جاءت في حكم الكتاب ، وكذلك الكتب التي نظموها فجاءت في حكم الفوائد وهو ما يعبر عنه المتأخرون بالمتحون المنظومة " (123) .

ولم تكن للرافعي أيضا طريقة واحدة في ضبط التواريخ التي نشأ فيها الأغراض والفنون . ويبدو أنه سار في ذلك

(120) - المصدر السابق ص 167 . على أن التعريف المعطى قليل التواتر في عمل الرافعي .

(121) - المصدر السابق ص 111 .

(122) - المصدر السابق ص 106 .

(123) - المصدر السابق ص 152 .

على نهجهم . فإذا كان الغرض الشعري الذي يؤرخ له من الأغراض التي نشأت في الجاهلية وتطورت رده الس فطرة العرب وطبيعتهم ولم يذكر وقت نشأته . لذلك جعل الفخر : " فطرة في العرب " (124) والهاجاء من " فطرة الحياة " (125) ، والوصف جزءا طبيعيا من منطق الإنسان . وأما إذا كان الغرض الشعري من الأغراض التي ظهرت بعد الجاهلية أو من الفنون التي استحدثت أخيرا ، فإنه كان يحاول تحديد التاريخ الذي نشأت فيه . فقد جعل الشعر العلمي مثلا ينشأ مع بشر بن المعتمر إذ قال : " ولا ينكر أن تكون هذه الأرجوزة الأولى من نوعها لأن الجاحظ نسبها إلى النوع اليه وعينه به " (126) ، وقال عن الدوبيت : " ونحن نرجح أن هذا النوع لم يكن في العريضة قبل القرن السابع ، لأننا لم نجد في شعر أحد قبل ذلك الوم من ولا وجدنا إشارة إليه ، ولم نجد للشعراء ولعا به إلا في أواخر تلك المائة وما بعدها " (127) .

أما في التأريخ لأغراض الشعر العربي وأنواعه فيبدو أن الرافعي حاول أن يتبع طريقة واحدة يحافظ على عناصرها في تناول كل غرض ونوع . فهو يصف على حاله الغرض الشعري في الجاهلية وعلى ما كان من انتشاره ورفاهه ، ثم ينظر في ما دخل عليه من تحويل في العصر الإسلامي والأموي والعباسي . ويبدو أن هذه الطريقة جاءت على أبيه من ما تكبر في تاريخه للعزل ، فلننظر في الكيفية التي أرخ بها لهذا الغرض ولنقوس عليه تأريخه لسائر الفنون والأغراض الظاهرة في الشعر العربي .

(124) المصدر السابق ص 103 .

(125) - المصدر السابق ص 119 .

(126) - المصدر السابق ص 153 .

(127) - المصدر السابق ص 167 .

لم يكن الغزل منتشرا في الجاهلية، عند الرافعي، لأن طباع العرب وأخلاقهم لم تكن تفبله إلا على تلك المرائط التي تعف عند وصف محاسن النساء بما لا يزيد على الأوصاف الطبيعية التي تقع عليها العيان (128). لذلك كان النسب في الجاهلية "طبيعيا" يفرم على ذكر الطول والآثار وعلى "التشويق بالرياح الهابسة والبروق اللامعة والحمائم الهاتفة والحيالات الطائفة" (129). ولما جاء الإسلام ازداد النسب عفة لأن العيون المريسة آمنت، ولأن الخلفاء تشددوا فيه حتى كان يستبطله عمر بن الخطاب (130). وما كان موجودا من غزل أو نسب في هذا العصر إنما كان في نظره داء من باب "إقامة السنة التي رج عليها العرب" (131).

ولما آلت السلطة إلى بني أمية بدأ الغزل في الانتشار. فقد اضطر الأمويون إلى اغداق النعيم والتصرف على عرب الحجاز حتى يكسروا "من فرضيتهم التي هي فروام الخلافة" (132)، فكان من ذلك أن شاع اللهو واستشر العناء وظهر عمر بن أبي ربيعة وبرزت معه طبقة العشاق من شعراء العرب. وظهر في هذا العصر غزل جديد يستعمل للمجاء، فالعرجي "كان يهجو محمدا بن هشام بن عبد الملك الخليفة الأسوي، فلما رأى أنه لم يبلغ منه ولم (يمضه) جعل يشبهه بأمه وأما أثره موينسب بهما" (133). وإذا حاول عمر بن عبد العزيز أن يفف في وجه انتشار الغزل فإنه لم يوفق إذ سرعان ما ظهر بشار "ليفطر في الصنعة" (134).

-
- (128) - المصدر السابق ص 112.
 - (129) - المصدر السابق الموطن نفسه.
 - (130) - المصدر السابق ص 113.
 - (131) - المصدر السابق. الموطن نفسه.
 - (132) - المصدر السابق ص 114.
 - (133) - المصدر السابق ص 115 أو 116.
 - (134) - المصدر السابق. الموطن نفسه.

ومنذر ظهري بشارين بررد شعاع "النسب" التحم بالشعر، وروغب فيه الخلفاء من شعرائهم " (155) ، وتفنن فيه كثيرون ، فأضاف اليه البحتري ، عنى ذكر الطيف والخيال . وانتشر الغزل كذلك في الأندلس و حذقه الشعراء هناك . ودخلته في العصر العباسي " السجافيات ، كالغزل المفنن الذي يصفون به الأجداد والممّنين " (136) . وأضاف اليه المتنبي التغزل بالممدوح ، وأدخل فيه الطغرائي الجمع بين التغزل بفتيان الحي وفتياته " (137) .

هكذا أرخ الرافعي للغزل في علمه ، وعلى هذه الصورة تقرينا أرخ لمعظم أغراض الشعر العربي وفتونه . فهو يبدأ بالجاهلية ثم يقول : " أما الاسلاميون فذكر . . " ثم ينتهي بخوله : " أما المحدثون . . " . فالفخر مثلاً كان مديراً الانتشار في الجاهلية لملا متبه طبع شعاع العرب ولأن حياتهم كانت تقوم على جمع المفاخر ، وكان سائعا منتشرا في العصور الاسلامية " للخلافات التي كانت بين بني هاشم وبني أمية وبين هؤلاء وبني العباس " (138) . ولما جاء المتأخرون استحدثوا فيهم " طريفة صاعية في الحماسة ، وهي مزجها بالغزل والافتنان في ذلك " (139) .

إن المتأمل في تاريخ الرافعي لأغراض الشعر العربي وفتونه سرعان ما يلاحظ أنه انطلق فيه من تصور مسبوق حاول أن يخضع الظواهر له أخضاعا . نلمس ذلك من تأريخه للغزل كما نلمسه من تأريخه لسائر أغراض الشعر

(155) - المصدر السابق ص 117 .

(136) - المصدر السابق ص 118 .

(137) - المصدر السابق الموطن نفسه .

(138) - المصدر السابق ص 104 .

(139) - المصدر السابق ص 105 .

وفسرته ما كان منها جاهلياً وما ظهر بعد ذلك في
عصور الإسلام الأولى أو المتأخرة. فقد ذهب إلى أن الغزل
لم يكن منتشراً في الجاهلية لأنه لا يتلاءم مع طباعهم
وأحلامهم، وجعل الموحرد منه يتسم بالعفة. ولكن
هذا الرأي يصطدم بشعر امرئ القيس والنابعه الدياني، فعزلهما
لم يكن كذلك. وإزاء هذه الطاهره ذهب الرافعي إلى أن امرئ
القيس إنما "نعمرفي شعره" (140) لأن أباه كان ممن
ملوك كندة "فظهر في غزله الحضارة البشيرة وأسدتها
صعلكة الرجل" (141). وأما النابعة فقد "أحش في بعض
نسيه افحاشاً لأنه رومي أو فارسي لطول ما صاحب المناذرة
والعباسية" (142). وأما سائر الشعراء فكانوا على سنة
عومهم من العيرة والأنفة.

وقد وقف الرافعي من غزل عمر بن أبي ربيعة
موقفاً خاصاً إذ رأى أن الغزل إنما أتاه من أمه "وكانت سبيـر
من حضرموت، ويـفال ممن حمير" (143). وقال عن الغزل
في العصر الإسلامي "ظهر النسيب في وضع يشبه أن يكون
فارسياً أو رومياً ولا يلتئم مع أخلاق العرب" (144).

فالرافعي إذن يرى أن الفساد الذي دخل على الشعر
العربي إنما يرجع إلى ما اختلط بالعرب من اجناس يمنية
أو فارسية أو رومية. فالجنس العربي هو أحسن الأجناس وأرناها
وما صدر عنه من شعر هو أرفع الأشعار وأرفعها، وكل
مظاهر الفساد إنما هي دخيلة على الجنس العربي
حاشاه من الفساد المركب في الأجناس التي اختلط بها منذ

(140) - المصدر السابق ص 111.

(141) - المصدر السابق ص 111 و 112.

(142) - المصدر السابق ص 112.

(143) - المصدر السابق ص 114.

(144) - المصدر السابق ص 115.

الفتح الاسلامي . على أن هذه الفكرة المسبقة التي انطلق منها الرافعي في تأريخه لأغراض الشعر العربي . وفنونه لم تكن وحدها المؤثرة في عمله ، ذلك أنه رأى أيضا أن عظمة الشعر العربي إنما كانت في العصر الجاهلي ، وأن تاريخه بعد الداهلية لا يعد وأن يكون تدرجا نحو النفس والفساد . فالمدح في الجاهلية مثلا كان تغنيا بالأخلاق الحسنة ثم دخله التكلف شيئا فشيئا حتى صار صناعة لفظية وكذبا خالصا . ولم يكن المهاجاء عند عرب الجاهلية " في اعتبار السباب والإفحاس " (145) لأنهم " أمية أحلاق " (146) لا يعبرون بالسباب إذ هو هجو والسجوة بطبيعتهم " وهم السفلة " (147) . إلا أن هذا العرض الشعري تدرج نحو الفساد ، وفرد عبر الرافعي عن ذلك قائلا : " ثم كان الخطيئة وهو الحسب الموفوع ، فسلح بالشعر سلاحا ، ثم جاء جرير وطبقتة فصار أكثر المهاجاء يومئذ فحشا خالصا وكذبا مهمشا أو سبابا محبضا " (148) . والسبب في ذلك أننا كلما ابتعدنا عن الجاهلية ابتعدنا عن نفاذ الجنس العربي . فالرافعي يرى أن الجيد من الشعر إنما هو من أثر العرب وأن المتوسط أو الرديء إنما هو من نتائج احتلاط الأجناس الأخرى بالجنس العربي . وهذا التصور يكاد يكون قارا

(145) - المصدر السابق ص 81 .

(146) - المصدر السابق ص 80 .

(147) - المصدر السابق ص 81 . وقد بذل الرافعي مجهودا كبيرا لتزييه عرب الداهلية عن السلبات ، وقد كان يستغرب منه هذا لولا أنه إنما مدح عرب الجاهلية ليصل إلى مدح لغتهم ، وهي التي نزل فيها القرآن . والناظر في قفا أخ به الرافعي للغة العربية يكتشف ، لا محالة ، أنه يعتقد أن تدبيرا الهيا مسيز العرب بأحلامهم ولغتهم تمهيدا لنزول القرآن فيهم وبلغتهم .

(148) - المصدر السابق ص 81 .

عند الراجعي في نظرته التي تطور الاغراض، فالشعر العربي يزاد فسادا كلما تقدم به الزمن وابتعد عن منابع الجاهلية. فالرافعي اذن، انما ينظر الى الزمن نظرية مأسوية لأنه يسيير بالظواهر الأدبية من القوة والجمود التي الضعف والرداءة. لذلك فإنه كان في تاريخه للأدب العربي يفرد من السلف متمثلا في الشعر الجاهلي الإسلامي ويحتنر المحدثين احتقارا يتفاوت قوة وضعفا على حسب بعده أو اقترابه من منابع الجاهلية الصافية. ولقد ذهب هذا السوف بالرافعي الى حد التحامل على الجديد في الشعر العربي وأنواعه. فقال عن الصناعات اللفظية: "ولكنهم ورثوها للخلف العاق فتجاوزوا اليها حقائق المعاني وتعبدوا للألفاظ وساعدتهم أحوال الزمن، فكان الواحد منهم إذا نظم قصيدة أو كتب رسالة فتح بقلبه فبرا من عبور اللغزة" (149). وقال متحدثا عن فنون الشعر التي استحدثها المتأخرون: "وهذا الكتاب وإن كان ليس فيه متسع للفنون التي خرجت بها آداب اللغة الملحونة" (150). وقد ذهب به هذا الرقف أيضا الى النظر الى تاريخ الأدب العربي نظرة غائية في الدائرية تقوم على المدح والإطراء أكثر مما تقوم على الموضوعية والعلامة. فبالغ به تعلقه بحرب الجاهلية التي أن رأى معظم أغراض الشعر في ما أشرعهم منه. من ذلك مثلا أنه قال محلقا على نشيد ابن أبي النجم الشمر في مجلس ابن هارون وتفاعله معهما: "ولعل فعل أبي الحسن هذا على بساطته أول ما عرف من صنعة التمثيل في الإسلام" (151). وقال متحدثا عن قصيدة لأبي العباس الناشي المعمر

(149) - المصدر السابق ص 356.

(150) - المصدر السابق ص 157.

(151) - المصدر السابق ص 157.

بابن شريش (توفي 293 هـ) : "فلو أنه جعل هذه القصيدة في فنون من التاريخ والقصص ونحوها ، لما خلا الشعر العربي إلى اليوم من النمط القصصي الذي نفاخر به الألياذة وأمثالها في كل شعر غير عربي" (152) .

وعلاوة على تقدير الشعراء جاهليين وتخطيمهم واحتقار المتأخرين والمحدثين وهذه النظرة المأسوية للزمن ، وما نجم عن ذلك من اتخاذ الرافعي ذلك الموقف الذاتي من التأريخ للشعر العربي ، يجد المتأمل في تاريخ الأغراض والفنون أن النزعة الحكائية القصصية هي المسيطرة على عمل الرافعي . ذلك أنه رج فـ في كتابه على نقل الأخبار والروايات نقلاً يفتقر إلى التحليل والاستنتاج ، بل كثيراً ما تكون الأخبار والروايات لا علامة لها بالموضوع ولا تغير شيئاً في معرفة تطورات الأغراض الأدبية أو توقفها . من ذلك مثلاً أنه كتب : " وكان للرثاء شأن في أول الدولة الأموية ، حتى كانت المراثي ينحاح بها نوحاً على القتلى والأموات ، وأشهر رميمين عرف بذلك الغريش المغنبي " (153) وتحدث عن الغريش هذا وعن نشأته ، فجعله ذلك إلى قوله : " وكان المشهور قبله بالنوح ابن سريج المغنبي ، وقد عدل بعد ظهور الغريش إلى الغناء فعُدل الغريش إليه " (154) ، وهكذا تحول من الحديث عن الرثاء إلى الحديث عن المغنين .

(152) . المصدر السابق ص 155 .

(153) - المصدر السابق ص 109 .

(154) - المصدر السابق الموطن نفسه . وقد كان الرافعي يكثر من الخروج عن الموضوع استطراداً ، فيسلمه الخبر إلى الخبر دون أن يكون بينهما واصل واضح في كثير من الأحيان .

وقد جعلت هذه النزعة إلى الحكاية من تأريخ
الرافعي لأغراض الشعر العربي وفنونه مجموعة من
الأخبار تتناول الغرض وحياته. ولعل من أبرز
الأمثلة على ذلك تأريخه للرثاء فقد قال فيه: "قال
المبرد في الكامل (ص 290 ج 2) وكانت العرب تفرم
مراثي وتفضل لها (....). وقال ابن رشي: "وإنما
تعزل دريد بعد مقتل أخيه بسنة (....) وما حدث
بعد الإسلام في طرق الرثاء (....) والذي ابتدأ بالحادثة
في هذه الطريقة (....) وأبو تمام من المعدودين
في إجادة الرثاء خاصة (....) وكان للرثاء شأن
في أول الدولة الأموية (....) ثم كان بنو أمية
يسترطون في تنزيه الراوية منهم أن يكون لمرثي
العرب أحفظ (....) ومن طرق الرثاء التي أحدثها
الساحرون" (155). فالمطلع على تأريخ الرثاء وعلى
تأريخ سائر الأغراض الأخرى إنما يجد نفسه
أمام مجموعة من الأخبار لا يربط بين بعضها
العرض سوى دورانها حول الغرض المؤرج له. أما
العلاقات العضوية الداخلية بين الفقرات وبين الحكايات
وبين الوقائع، فلا وجود لها في عمل الرافعي تقريباً.
وبالتالي فإن الناظر في تأريخ الأغراض لا يجد نفسه
أمام تأريخ، وإنما يجد نفسه أمام إشارات اختيرت
من هنا وهناك من كتب الأدب وتتصل بتحول الغرض من
معنى إلى معنى حيناً ومن صيغة إلى صيغة حيناً
آخر، أو تتصل بانتشاره وبطلانه أو تعطله أو بولع العرب به
أو مكانته عندهم.

على أن الظاهرة الأبرز في تأريخ الرافعي لأغراض

(155) المصدر السابق، مسنن ص 107 إلى ص 110. وقد أطلنا في هذا
الشاهد دلالة بالغة على دور الرافعي في أجزاء الثلاثة.

الشعر القريبى ونسبته أنه أكثر فيها من ذكر أسماء
الأعلام ذكر لا يكاد يعبر سوى أنهم إنما طرقتوا في
أشعارهم أبراب المديح أو الهجاء أو نظرا في الموصح
أو الزجل. وقد جعل ذلك من عمل الرافعي كتابا ليس
فائما أسماء الشعراء العرب في الجاهلية وفي العصور
الاسلامية رغم أنه فيهما بقوله: "لم يرد هذه الأسماء
لأنها أسماء فقط، إذ ليس كتابنا هذا سجلات الاحصاء
واما أوردناها على أنها معاني ذلك التاريخ يظهر
منها سير الفنون والعلوم التي كمالها، فإن قيمة العصور
بمن يمتازون من أهلها، وعلى حسب كثرتهم وقلتهم يكون
وزن اعتبارهم ونزلتهم من المعارفة بينه وبين سائر العصور" (156).
ولعل بعض الأمثلة كقولنا يظهر ذلك. فقد قال محدثا
عن الوصافيين المشهورين: "اشتهر من نساء الحيل امرؤ
الفس وأبو دؤاد، وطفيل الغنوى، والناطقة الحدي، ومن
نساء الإبل طرفة وأوس بن حمر وكعب بن زهير
والسماخ (٠٠٠) ومن الوصافيين المتفنيين في الأوصاف علي
ابن اسحاق المعروف بالراجحي المتوفى سنة 352، وأبو
طالب المأموني المتوفى سنة 383... (157). فهذه
الأسماء وغيرها كثير، تظل مجهولة أو كالمجهول
لا تكاد تدل على شيء. ومهما حاول الرافعي أن يقيدها
ببعض الجمل التعريفية فإنها تظل عديمة القيمة في التاريخ
للغرض الأدبي أو للأدب نفسه، فعوله: "وأشهر المحدثين
بالمجاء على هذا الوصف بشار بن برد، وكان إذا غضب
وأراد أن يقول هجاء صفق بيديه وتفل على يمينه ويساره.
ودعبل بن علي الخزاعي، وكان هجاء الملوك جسورا
على الحليفة متحاملا لا يبالى ما يصنع حتى عرف

(156) - المصدر السابق ص 334.

(157) - المصدر السابق ص 124.

بذلك وطار اسمه فيه، وكان لذلك يقول عن نفسه انه
يحصل حشبة منذ كذا سنة لا يجد من يخلصه عليها،
وابن الرومي، وكان لسانه أطول من عقله حتى قتلته
الحجاء (٠٠٠) وابن الحجاج البغدادي خبيث العراق، وأبو
بكر المحزومي هجاء الأندلس في القرن الخامس
وكان أعمى ضد الشرك لأنه ناصر مائة (158) لا
يجلسي شيئاً من ذلك الا بهام الذي يظل يعمر كثيراً
من هذه الأسماء، وإذا كانت هذه الظاهرة مديدة التوفر
في عمل الرافعي لا تكاد تخلو منها صفحة واحدة من
منحاته، بدأ مؤلفا في أسماء الرجال أكثر منه
في تاريخ الأدب.

وقد وردت في عمل الرافعي ظاهرة أخرى رأيناها
عند زيدان والزيات، وذكرناها في تأريخه للشعر العربي،
وهي أنه كان يدج في تأريخه لأغراض الشعر العربي وفتونه
في عصره. من ذلك أنه قال متحدثاً عن الشعراء
الأخلاق في عهد العرب: "لا تكاد تجد مبدأ من المبادئ
الاجتماعية التي قررتها الفلسفة الحديثة إلا ولشله ذكر
في شعر هؤلاء الأعراب، وتأويل ذلك أن هذا الاجتماع
الحديث منوع لا طبيعي" (159) وقال معللاً على بيت
زهير:

على أكثرهم حق من يعتريهم وعند المعلن السباحة والبذل
فهم ما أدركت مذهب الاشتراكية، ومهما فلبت آراء علماء،
لا تحد صوابه يخرج عن هذا البيت، فلوراعه
المكروون حق من يعتريهم ممن يعملون عند همومهم
هم مادة قوتهم (٠٠٠) وكذلك لوصار المعلنون من أهمل
السباحة والبذل يتجاوزون عما لا يضرب بالحق ولا يريرون

(158) - المصدر السابق ص 91.

(159) "الدرر السنية" ص 104.

من هذا الحق ألا أن يبذلوه في إصلاح أحوالهم حتى لا يأخذهم طمع الأرباح بوجه المزاينة للمكثريين. ليراعوا ذلك حق مراعاته لبقي أهل المال مهنتيين بأعمالهم والمقلون مغتبطيين بإقلاقهم" (160). وليس من شك في أن هذا الكلام بعيد كل البعد عن تاريخ المعصر وتاريخ أغراضه. ولم تكن هذه الظاهرة منوطة في مثال رعاييين فهي دائرة الضرور في أجزاء الكتاب الثلاثة، وخاصة في الجزء الثاني منه وقد خصصه للفران والحديث. ومن فصايص العصر التي أدرجها الرافعي في تأريخه للأدب العربي وأخذ بها في أجزاءه الثلاثة مسألة الأخلاق فقد كثرت على لسانه عبارات من قبيل "تعهر" و"أفحش" (161). ومعلوم أنه لا يمكن أن يؤخذ العرب على ما ورد من الفاظ الجنس والإباحة في أشعرهم لأن أسبابا عديدة كانت تسمح لهم بذلك، وموقف المؤرخ يجب أن يكون موضوعيا لا يتأثر بالحاضر كل هذا التأثير. وفي الحقيقة فإن مثل هذه الظاهرة تطرح مسألة شائكة جدا هي مسألة استعمال التبرعات للتأثير في الحاضر، فالرافعي في ما يبدو، قد ألغى كتابه في تاريخ الأدب العربي من موقف معين من الحاضر لا بحثا عن الحقيقة التاريخية.

(160) - المصدر السابق ص 135. يجد الناظر في عمل الرافعي أمثلة كثيرة جدا من هذا النوع في الجزء الثاني الذي خصصه للفران والحديث وقد رأينا أنه كان كتابا دعائيا أكثر منه في تاريخ الأدب. انظر رعاييين سبيل المثال ج II ص 75 وما يتبعها.

(161) - وردت هذه العبارات وأشباهها في ترجمة امرئ القيس وفي

تاريخ العزل خاصة. المصدر السابق ج III ص 112 و ص 134.

ج - المصنف ~~الرافعي~~ : ترجم الرافعي في كتابه " تاريخ آداب العرب " لثلاثة شعراء جاهليين هم امرؤ القيس و طرفة و زهير ، رغم أنه أنكر على مؤرخي الأدب حسب منهج القسمة التي تصور تعريفهم بالأدباء في أعمالهم . و يبدو أنه كان ينوي أن يترجم لأصحاب السبع الطوال كما يظهر من تمهيده لهذا القسم الكبير بالحديث عنها ، ولكنه وقف عند الثلاثة الأول .

وقد بنى الرافعي ، في ما يظهر من عمله ، تعريفه بمؤلفاء الأعلام الثلاثة على أقسام ثلاثة هي : الترجمة للعلم ثم الوفوف على مطولته ، ثم العناية بمختلف الخصائص التي تميز بها شعره من حيث الصياغة و من حيث المعنى .

والناظر في تعريف الرافعي بأعلام الأدب العربي ، يلاحظ ، أول ما يلاحظ ، أنه يخلط بين النقص التاريخي والشخص الأدبي للعلم . و يبدو أن هذا الخلط انما يرجع إلى أن الرافعي يعتقد أن الأديب إنما يعبر عن نفسه في أدبه ، وهذا يعني أن الأحداث التاريخية والشخصية التي تقع للأديب طيلة حياته تثير أدبه و تعرف به . وأن ما يحدث به الأديب عن نفسه في أدبه ينبغي شخصيته و يعرف بتاريخه . وعلى هذا الأساس اعتنى الرافعي بنسأة الأعلام وأحداث حياتهم فذكر من تاريخ امرئ القيس مثلا أحداثا اعتقد أنها تعرف بـ " الأخلاق " التي كان لا بد لشعره أن يظهر بها مظهر المتميز والمختص " (162) . و يبدو أن هذه الأحداث على حظ وافير من التنوع ، فبعضها يتصل بنسب الأديب كما في مولده عن امرئ القيس : " وكان أبوه وأعمامه ملوكا على عبائنا بني أسد " ، وبعضها يتصل بأطوار حياته كما في حديثه عن مقتل طرفة وعن شعبي امرئ القيس في طلب

تأريبيه (163) . وبعضها يتصل بصفاته الأساسية كما في قوله عن طرفة "كان أبيتاً معتدا بنفسه ، مدلاً على حومه ، واثفا بمنزله بينهم ، جريئاً بمقدار ما تدفع هذه البعة ، منفعها لإلاعن الملوك ، يرجوهم ويهجوهم" (164) . وبعضها الآخر يتصل بحياة الأديب الأدبية كما في قوله عن زهير : "وكان زهير بمدح هرم بن سنان سيد غطفان وأحد أجواد العرب المشهورين" (165) . وقد جاءت هذه الأحداث في شكل أحبار نقلت عن القدماء إذ سبقنا في معظم الحالات بعبارة من فيل : "روى بعضهم" و "في خبر آخر" و "قالوا" و "في رواية حماد" (166) . وهي أخبار طويلة أحياناً فيها سرد وحوار .

وإذا أعوزت الأخبار المؤرخ ولم تعرفه بأحلاق الأديب وأطوار حياته رجح إلى أدبه فالتمس منه خصائص شخصيته كما في قول الرافعي متحدثاً عن طرفة : "ولا يعرف من تاريخ نشأته إلا القليل مما لا ينهياً به الحكم على مبلغ تأثير نشأته في شعره" (167) . ولكنه يبدو أن الرافعي فهم ما تحدث به الأديب عن نفسه في أدبه فهمما حرفياً ، ففسر كل ما وجدده في أسرار الأعلام إلى تاريخهم الشخصي . فلأن طرفة تحدث عن نفسه في معلقته فنسب إليها شرب الخمر وتبديد المال ، جعله الرافعي : "منصباً على اللهو ، يعاقر الخمر ويتلف بها ماله فأورثته حزن الكبرياء" (168) ولأن امرأ العيس تغزل في شعره بابتها

(163) - المصدر السابق ص 191 . 192 . 227 .

(164) - المصدر السابق ص 225 .

(165) - المصدر السابق ص 237 .

(166) - المصدر السابق ص 191 . 228 . 229 . 237 .

(167) - المصدر السابق ص 225 .

(168) - المصدر السابق ص 226 .

عمه ذلك النوع من الغزل قال الراجعي عنه إنه : "ألبس
بألصاف العفاف من ابنة عمه وتعهر" (163) .

ولسنا ندري إن كان الراجعي يعتمد على الأخبار أكثر
أم على الأشعار في التماس شخصيات الشعراء وأحداث حياتهم
التاريخية والفردية، ولكنه يبدو وأنه كان يميز بين هذين
النوعين من الروايات عادية، وأن لا فرق بين النصوص الاخبارية والنصوص
الشعرية.

على أن هذا الفهم لم يكن ليتيم العمل به من
تأريخ عديدة كانت تنصب بعقبات في وجوه الأخذ
به، ذلك أن المؤرخ كثيراً ما يجد في شعر الشاعر أبياتاً
لا تتلاءم مع تلك الصورة التي استخلصها مما حدثت به
الرواية من أخبار أو تحدثت به هو نفسه في أدبه. وقد
واجهت الراجعي في تعريفه بامرئ القيس وطرفة وزهير
أبيات من هذا القبيل، فعمد إلى نفيها عنه وعدّها
منحولة من احتلاق الرواية أو مما نسبوه اليهم خطأ من
شعر الجاهلية. ولعل في تعليفه هذا على هذا البيت
الذي يروي لامرئ القيس :

فتوسع أهلها أقطا وسما وحسبك من غنى شبع وري

أحد الأمثلة التي تبين ذلك، وإن قال إن : "مثل هذا لا يؤوله
من يدكر عن نفسه إنه لا يقتصر إلا على الحصرل على الملك
(ص 175 من ديوانه) وإنما يناسب مثل الحطيئة لما في شعره
من الجشع والضرعة" (170) . ولكن هذا النفي لم يكن
حلاً مناسباً لتلك القضايا، إذ يجد المؤرخ نفسه أحياناً
إزاء أبيات عديدة من قصائد طويلة لا تقبل أن يسبك في نسبتها
لأصحابها، ولا يلائم ما فيها تلك الصورة التي عرفت عنهم من
أخبار الرواية أو من أكثرية ما عرف لهم من شعر. وعند

(163) - المصدر السابق، ص 184 .

(170) - المصدر السابق ص 17 .

ذلك تنجاوز المسألة هذه الحلول التي وضعت لها ، وفقد
واجه الرافعي ذلك عندما وقف على طويلة طرفة ونظر في
الجزء الفخري منها فقال : "سا كان أحق امرئ الفيس
بمثل هذا الفخر" (171) ، وواجه ذلك أيضا في شعر امرئ
القيس نفسه عندما وقف على أبيات كثيرة تنسب إليه ولا سلام
مع تلك الصورة التي عرفت له في عالم الأدب ، فقال إن فيسر
امرئ القيس : " صورة غير مرتبة من حياته " (172) .

ويبدو أن مثل هذه العضايا ، لما ترجع في الحقيقة ،
إلى ما في ذلك الفهم الذي يعد أدب الأديب صورة له من
ابتعاد عن واقع الأشياء ، إذ هو لم يعد بالآخذين به
عند الخلط بين الدات التاريخي ، والدات الأدبي للأديب ، وإثنا
آل بهم أيما الس الخلط بين الأحداث التاريخية والأحداث
المذكورة في الأدب . فما جاء في طويلة امرئ القيس أو طرفة
أو زهير من أحداث أو وقائع تعد عند الرافعي أحداثا ووقائع
تاريخية حقيقية نطها الشاعر من الحياة الواقعية إلى الأدب .
ولعل هذا الفهم هو الذي حمل الرافعي على أن يصر
لكل مطولة أسبابا وانغية استمددها عنها صاحبها ، فحدثنا
عن غلافه امرئ القيس بانة عنه وروى لنا حديث " يوم
العدير " ، وقال عن طويلة طرفة : " روى بعضهم في سبب
فولها ، أنه كان لطرفة . . " (173) ، وساق لنا خبر الحرب
بين عيس وديان وما كان بينهما من صلح في تمهيد
للحديث عن طويلة زهير . ومن شأن هذا الفهم أن يجعل
من الشاعر مؤرخا يذكر في شعره تاريخه الشخصي الفردي وتواريخ
الناس الذين يعيش بينهم . ويبدو أن الرافعي كان يفهم الشعر
هذا الفهم ، إذ قال في الهجاء : " كان أليق ما يسمى به

(171) - المصدر السابق ص 231 .

(172) - المصدر السابق ص 209 .

(173) - المصدر السابق ص 229 .

المجاء (شعر التاريخ) لأن المجاء مؤرخ يذكر مثالب الناس
و مناقبهم" (174) . وأكرر هذا الفهم مرة أخرى بقوله:
" ولولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس" (175) . وفرد
يكون هذا الخلط بين الأحداث التاريخية الواقعية وبين
ما في الشعر من أحداث مذكورة، هو الذي ذهب بالرافعي
الس أن يفهم الشعر فهمًا حرفيًا، فقد كان يكتفي في
تفسير الأبيات الشعرية بنقلها إلى اللغة المنشورة ويقول:
" فحاصل البتين "و" يقول لأمها "و" يريد أن... "و" أي... "
وهي عبارات كان يستعمل بها شرح الأبيات التي يذكرها .

ولكن هذا الفهم الحرفي للشعر كان يغالبه عند
الرافعي فهم آخر لهم، فهو يعنفد، في ما يبدو من
علمه، أن الشعر صياغة فنية متميزة بشكلها ومعناها ولعل
هذا الفهم هو الذي حملته على أن يعلق على بعض
التعابير الفنية في شعر امرئ القيس أو طرفه أو زهير،
و يبدل على مواطن الفن والجمال فيها، ومن أمثلة ذلك
أنه كتب متحدًا عن بيت امرئ القيس:
وليل كمرج البحر أرخى سدوله

على بأنواع الهموم ليبتلي
" فاستعار الليل سدولا يرحيها، و صلبا يتمطى به، وأعجازا
يرد فها، وكللا يسو به (. . .) فان تشبيه الليل بمرو
البحر تشبيه ليس أحسن منه، لما يجيش فيه من
الظنون و يتعلق من الحواطير" (176) .

وفي هذا الوطن بالذات قدم الرافعي أحكامه
في تذوق الشعر، وهي أحكام تتسم بالقدم ما يشهد بها

(174) - المصدر السابق ص 82 .

(175) - المصدر السابق الوطن نفسه .

(176) - المصدر السابق ص 204 .

في كتب الأدب القديمة، ولمثل هذا المثال كثير بتأكيده
ذلك، فقد قال متحدثاً عن الاستعارة: "وهي في شعر
أعشى العيس أكثر منها في النور من شعر غيره من
الجاهلية، وأصفى ما، وأعدب روا" (177) .

على هذه الصورة أخ الراجعي لأعلام الأدب العربي،
هو يذكّر نشأة الأدب ونشأة أدبه، وهو يفسر في
التعريف به من الأخبار التي تروى عنه إلى الأدب الذي ينسب
إليه، وهو الأدب الذي ينسب إليه إلى الأجيال التي
تروى عنه، فيمزج بذلك بين الذات التاريخية والذات الشخصية
لله، ويمزج بين الأحداث الواقعية التاريخية وبين الأحداث
المذكورة في أدب الأدباء، ويعتبر النصوص الأدبية وثائق
تاريخية يفهمها فهمًا حرفيًا، ويعتبرها صياغة فنية فيقف
على أوجه البلاغة فيها. وهو في ذلك كله ينجح
من خبر ليدخل في آخر دونما تحليل أو تحليل (178) .

3 - العمل بهدج القسيسين إلى مدارس:

أخذ طه حسين بمنهج التفسير إلى مدارس أدبية
في ما لا يزيد عن أربعة وستين صفحة من كتابه "في
الأدب الجاهلي" وهو جزء صغير بالنسبة إلى الأحزان التي
عالج فيها قضايا شتى من مسائل تاريخ الأدب، ويبدو
أنه كان يقصد بذلك إلى "عرض الظواهر وبسط ما يمكن
بسطه من مذهب البحث في مناهج التحليل الشعري" (179) أكثر
ما كان يقصد إلى وضع تاريخ للأدب العربي سبق له

(177) - المصدر السابق، الموطن نفسه.

(178) - المصدر السابق . راجع مثلاً الصفحات 226 . 227 من ترجمة طرفة .

(179) - في الأدب الجاهلي ص 253 .

أن أفر بعجزه وعجز جيله عن القيام به على الوجه
الأكمل (180). إن القسم الذي أخ فيه طه حسين الدراسة
مضر الشعرية الفنية ولأبرز مفاهيمها في العصر الحاضر،
لا يعدو أن يكرر، في نظره نموذجاً طبق عليه تلك
النظريات والنماذج الفاهيم والنماذج التي عرضها في
سائر أجزاء الكتاب. ولعل التعابير التي أكر فيها
على أنه إنما يعرض لهذا الشعر المعري في إيجاز شديد
تفي بالدلالة على ذلك (181).

والتأمل في تأريخ طه حسين للشعر المضرري
سريان ما يجد أن صاحبه جعله قسمين أساسيين :
أحدهما قسم تمهيدى ووف فيه على نظريته الجيل في شعر
مضرب وبحث مسأله كثرة الشعراء المبرزين، وعرض فيه،
زيادة على ذلك، التعابير التي أخذ بها سواء في التثيت
من نسبة الأشعار التي عصرها والتي أحاطها، أو
في التأريخ لها. والذي يدل على أن هذا القسم إنما
هو قسم تمهيدى استعمال طه حسين فيه عبارات من قبيل :
"وسترى عند ما نعرض للشعراء المبرزين" (182). وأما الثاني
فهو قسم تطبيقي أخذ فيه صاحبه بمفهوم التقسيم الذي
مدارس في التأريخ لشعر مضر وشعراءها.

وقد تلزمتنا هذه الظاهرة بأن نغف أولاً على ذلك القسم التمهيدى
حتى نستخرج منه المقاييس التي يأخذ بها طه حسين

(180) - قال طه حسين في ذلك : "ليس من العلو ولا من التشاؤم ولا من

تبسيط الهمم في شيء" أن نقول إن هذا الجيل الذي نعيش فيه لن
يستطيع أن ينح تاريخ الآداب العربية. المصدر السابق ص 55.

(181) - قال طه حسين على سبيل المثال : "نحن مضطرون إلى أن نعرض لهذا

الشعر في إيجاز شديد. فمثل هذا الكتاب لا يتسع لدرس ديوان أو درس مفعلاً"
المصدر السابق ص 270.

(182) - المصدر السابق ص 270.

في تاريخ الأدب، وأن ننظر بعد ذلك في القسم التطبيقي
حتى ندرك الطبيعة الناعجة للنبي يمكن لهؤرخ الآداب أن يقدمها
إذا هو صطنع هذا السمع .

أ - القسم القديم : يبدو أن هذا القسم لم يكن
نظرياً بحتاً ، إذ أن طه حسين حاول فيه أن يطبق ذلك
|| السمع التاريخي الذي استلهمه من أعمال ديكرت أو سنيوبوس
في بحث الظواهر والتعميق فيها . فقد وفّق من موعده
موقف المسائل عن الشعراء الجاهليين الذين ينسبون
الذي مضر أن كانوا جاهليين حقاً ، وعن الشعر الذي
ينسب إليهم أن كانوا قد فالوه فعلاً (183) . و يظهر أن هذا
الموقف الشاك هو الذي حمل على أن يمتنع معج البحث
التاريخي في التثبت من جاهلية أولئك الشعراء ، والتأكد
من صحة الشعر الذي يري لهم . وقد أوّله البحث في
هاتين العنيتين التي اقرار حقيقتين اثنتين ، أحدهما
أن الشعراء الجاهليين الذين ينسبون إلى مضر لم يكونوا
على تلك الكثرة التي يذكرها الرواة لأن ذلك لا يمكن أن يكون
من الحق نبي شي (184) ، ولهم ، بالمقابل ، نسيم
يكونوا كلهم من اختلاق المسلمين لأن بعضهم جاء متأخراً جداً
|| فأدرك النبي أو أدرك الخلفاء الراشدين (185) . واذن فعلى
اليؤرخ أن يأخذ بالتثبت والتجري في الإقبال على هؤلاء
الشعراء لأن منهم من وجد في الجاهلية حقيقته ومنهم
من احتلعه حيال الرواة والأخباريين . والثانية أن الشعراء
الذي ينسب إلى الشعراء المصريين الذين وجدوا فعلاً
في الجاهلية ، لم يكن كله صحيحاً إذ دخله نخل كثير
لأسباب عديدة كانت تدعو إلى ذلك . وقد عبر طه حسين

(183) - المصدر السابق الموطون نفسه .

(184) - المصدر السابق ص 255 .

(185) - المصدر السابق ص 250 .

عن هذا بقوله: "واذن فأقل ما توجه علينا الأمانة العلمية أن نعترف من الشعر المضرى الجاهلي، لا نقول موقفاً الرافض إلا تكارر، وإنما نقول موقف الشك والإحتياط" (116) .

وازاء هذا الشك في سلامة نسبة أولئك الشعراء إلى الجاهلية، وفي صحة نسبة السعر الذي يروى لهم، التمس طه حسين لنفسه المقياس الذي إذا بحث به نسبة الشعراء إلى الجاهلية ونسبة شعرهم إليهم انتهى إلى "الترجيح الذي يعرب إلى اليقين" (187) .

وقد ميرسي النسب هذا المغال بمصراحتة :
 رمض في الأولى مهمل ذلك المذهب المتعارف الذي يعتمد على غرابية اللفظ (188) في إثبات السعر الذي ينسب إلى الجاهليين أو دفعه إلى رفض في الثانية ذلك المذهب الآخر الذي يعتمد على بداوة المعنى في قبول الشعر الجاهلي أو إنكاره (189) ، إذ أن هذين المذهبين لا يقفان في نظره ، بادراك الحقيقة لأن الناحيتين لا يعجزهم اللفظ العربي عن أن يأثروا بمثله ولا المعنى البدوي عن أن يصوغوا على نوالهم . وأما المرحلة الثالثة فقدم فيها بذهبه وقال : "نحن لا نعتمد على اللفظ وحده ، ولا نعتمد على المعنى وحده ، ولا نعتمد على اللفظ والمعنى ليسر غير ، وإنما نعتمد على اللفظ والمعنى وعلى أشياء أخرى فنية تاريخية .

(106) - المصدر السابق ص 247 .

(107) - المصدر السابق ص 265 .

(108) - قال طه حسين : "لا ينبغي أن تتخذ غرابية اللفظ دليلاً على الصحة أو البدم ، ولا ينبغي أن تتخذ سهوله اللفظ دليلاً على النحل والحدّة" .
 المصدر السابق ص 262 .

(109) - جاء تفصيل ذلك في الصفحات 263 و 264 من "نفسى العرب الجاهليين" .

ومن مجموع هذه الأشياء كلها نستخلص لأنفسنا مياسا
يفرب إلينا جواب الرأي في هذا السعر الجاهلي المضري (190) .

إن الخصائص الفنية إذن ، هي التي تمكن الباحث في
نظر طيه حسين ، من التعرف على صحة نسبة الشاعر إلى
عصره أو عدمها ، وعلى صحة نسبة الشعر إلى شاعره أو عدمه
أيضا ، إذ هي تلتزم عند الشاعر الواحد في كل عصره ،
ولتتزم عند طائفة من الشعراء في أعمارهم كلها . فمما
توفر فيه الخصائص الفنية من شعر الشاعر نسبة إلى عصره
وصحت علاقته به ، وبمعصره ، وما لم تتوفر فيه تلك الخصائص
د كان منحولا و مفتعلا .

ولكن الخصائص الفنية لا تصلح في فهم الأدب ودرسه
فحسب ، بل هي تصلح أيضا لأن يؤرخ بها له . وهنا
وصل طه حسين إلى القسم الثاني من عمله وهو القسم
التطبيقي ، فكيف يؤرخ للأدب العربي بمنهج التفسير
ميدارسا ؟

ب - القسم التطبيقي : يقوم التأريخ للأدب بمنهج التفسير
الذي مدارس أدبية ، أول ما يقوم عليه في نظر طه حسين ،
على إدامة النظر في أعمال الأدباء حتى يتم الوقوف على
الخصائص الفنية المشتركة بين آثار الأدباء الواحد أو
بين آثار الأدباء العديدين . وعندئذ يمكن للمؤرخ
أن يجعل من الأدباء الذين تختص آثارهم بصفات تعبيرية
مستقلة ، فمما واحدا يعدة مدرسة أدبية . فالحجج
الخصائص الفنية في أدب الأدباء هو الذي يسمح للمؤرخ
الأدب بالوقوف على المدارس الأدبية المتعددة في العصر
الواحد وعلى ما يكون من توابعها أو انقطاعها بغير
عصرها .

ويبدو أن هذا النوع من البحث هو الذي عكس طه حسين
من أن يكتشف تلك المدرسة الشعرية المضربية التي كانت تتكون
في الجاهلية بن أوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى
والخطيب . . . وهو أيضا الذي جعله يفترض وجود مدارس شعرية
أخرى بعضها كان في المدينة يمثلها فيس بن الأسدي
وعيس بن الخطيم . وحسان بن ثابت وبعضها الآخر كان
في مكة ارتفع شأنه مع الإسلام ويمثله عسر بن أبي
ربيع والعرجي .

ولم يقف طه حسين على هذه المدارس العديدة في
الجاهلية وعلى ما يميز بعضها عن بعض ، ولم يبحث
طويلا في العلاقات التبعية كما كانت للأعراس
بعضها بعضا ، وإن افترض أن المدرسة البدوية
التي كان يمثلها الشماخ بن صراو كانت تتنافس
المدرسة المضربية ولعل ذلك يرجع إلى ما رأيناه من
أن طه حسين لم يقصد بعمله الذي التزم للأدب
العربي بعدد ما قصد به إلى امتحان المنهاج واختباره .

ولم يقف طه حسين أيضا على تواصل المدرسة
المضربية خارج حدودها الزمنية أو المكانية ، وإن أشار
إلى أنها تواصلت في العصر الأموي مع جميل وكثير ،
وفي العصر العباسي مع أبي تمام (وابن المعتز) والمتنبي .
ولعل ذلك يرجع إلى ما صرح به في عدد المرات
من أنه لا يعرض للشعر الجاهلي إلا في إحراز شديد
يظهر للناس السبل التي يحسن بهم أن يسلكوها في
الإقبال على درسه أو التأريخ له .

ولكن طه حسين وقف موقفه لا تخلو من وضوح
على المدرسة الفنية المضربية في الشعر ، فنظر في شعر
أوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى وكعب بن زهير
وغيرهم في ذلك ، على ما يظهر عن عمله ،

طريقة واحدة تقوم على النظر في نشأة كل علم من
أعلام هذه المدرسة ثم على درس نماذج من شعره تظهر
فيها خصائص المدرسة التي ينتمي إليها. وفي هذا
النظم نجد مرفف طه حسين من حركة الأدب الحركية التاريخية
ووجد أيضا طريقة في التعريف بأعلام الأدب العربي.

* - حركة الأدب : يبدو أن طه حسين يفهم حركة

الأدب في التاريخ على أنها حركة مدارس. قال المدارس الأربعة
تواجه، حسبه، في العصر الواحد وتكون لها في مسائل
بعضها علاقات تنافس و صراع، فيسود بعضها بعضا أو يسيطر
بعضها على البعض الآخر، وكيفية دون بعضه. ولكن هذا
الفهم لم يأخذ حظا من البحث في عمل طه حسين،
لأنه لم يعن فيه إلا بمدرسة واحدة في الجاهلية هي
مدرسة مضر الشعرية. على أنه إنما يفهم
حركة الأدب هذا الفهم، ففقد جعل التنافس قائما بين المدرسة
الضرية وبين مدرسة أخرى بدوية من أعلامها الشماخ
ابن ضرار (191).

ح ولم يتناول طه حسين أيضا مختلف الأسباب والعوامل
التي كانت تجعل مدرسة ما من المدارس الأدبية فنسي
مصر ما من العصور نسود وتظهر من دون أخرى،
فتعليق على الأدب فيه وتسيطر عليه، ولكنه يبدو أن للعوامل
السياسية والاجتماعية، عنده، أثرها القوي في ذلك. ففقد
قال يتحدث عن المدرسة الشعرية الكلاسيكية : " كانت تتألف
من شعراء لم يكن لهم شأن في الجاهلية ولكنهم
ظهروا عندما اشتد جهاد فرينش للنبي، وهويت شخصيتهم حتى
كنوا في مكة سنة شعريّة فريشية" (192).

(191) - المصدر السابق ص 268 . 291 .

(192) - المصدر السابق ص 291 .

ولم تكن هذه الحركة في ما يبدو من عمـال
طـه حـسـس ، هي الحركة الوحيدة التي تلحق الأدب في التاريخ ،
ذلك أن له حركة أخرى تشمل في ما يدخل على
المدرسة الأدبية الواحدة من تطورا ورفي . وهذه الحركة
هي أولا حركة إضافة ، إذ أن الأعلام يتلو بعضهم بعضا في
الزمن وبضيف كل منهم شعرا جديدا لما حصل
بعد للمدرسة الواحدة من شعر . فظهر جاء بعد
أوسر أضاف إلى المدرسة المصرية شعرا مؤي به حله
سـه . وكذلك أضاف إليها كمال الحطية والناضية كـل
على قدر إنتاجه . وهذه الحركة تلزم مؤرخ الأدب أن يفسر
على أعلام المدرسة الأدبية الواحدة علماء على حـس
يتبين الإضافات التي أدخلوها عليها من عصر إلى عصر ،
فمجموع الإضافات يكون وجهها من وجوه تاريخ المدرسة الأدبية
الواحدة ، ومجموع الإضافات التي تدخل على كل المدارس
في كل العصور تكون وجهها من وجوه تاريخ الأدب .

ولكن هذه الحركة أيضا هي حركة تطور ونمو ،
فللشاعر شخصيته التي تميزه عن سائر الشعراء في
مدرسته وخارج مدرسته . وتضع هذه الشخصية في
نظر طه حسين ، لما تمتاز به المدرسة التي تندرج فيها
من جملة من فنية عامة ، وتضع أيضا لبقومات صاحبها
الرائية . ومن هنا لم يكن الأعلام يندرجون باننتاجهم في
المدرسة الأدبية التي ينتمون إليها فحسب إنما هم يحددون
فيها ويطورونها . وقد ذهب طه حسين إلى هذا عندما
أكد على أن زهير وإن كان كأستاذ أوس شديد التمسك
بالخيال بالحس ، شديد الاعتماد على الحواس في اخراج
صوره الشعرية ، فقد كان " أحرض منه على ذلك ، لأنه يتخذ
هذا الأسلوب طريقا إلى وصف المعاني ومرضها " (13) . ولكن

طه حسين لم يعف، وفي ما يلي ما أوردته
الشعراء من جديد في فنون المدرسة الواحدة ومن تغيير
 الخصائصها، لأنه كان مشغلا بالبحث عن الأدب التي كانت
 تقيم دعواه (194)، فلم ينظر إلا في ذلك الشعر الذي يتضمن
برهانا على أن أولئك الشعراء المزيين كانوا يمثلون
مدرسة شعرية واحدة ذات خصائص معينة.

* - الترجيح : وفف طه حسين في كتابه
 "في الأدب الجاهلي" على ستة عشر شاعرا جاهليا، أحد
 عشر منهم ينسبون إلى ربيعة أو خمسة ينسبون إلى مضمر
 ولم تكن عنايته هؤلاء الشعراء واحدة، فقد قصص
 وفوقه على الشعراء الأحد عشر الربيعيين التي تدعيهم
نظرتهم فهي نحل الشعر الجاهلي، ونصد من عنايتهم
 بالشعراء الخمسة المزيين التي تأييد ما قاله عنهم
 من أنهم يمثلون مدرسة شعرية قائمة الأدب بخصائصها
الغنية، لهذا كان تعريفه بالشعراء المزيين الخمسة أول على
أربعه لأعلام الشعر العربي وأبلغ هي الكشف عن الأحد
بمصرح التقسيم الذي مدارس في تاريخ الأدب . وقد رأينا،
 بناء على ذلك أن نقف على ترجمته هؤلاء الشعراء الخمسة
 من دون أولئك الشعراء الأحد عشر الذين لا يعتبرون
 كثيرا من أشكال طريقته طه حسين في عنايته على تاريخ
 الأدب، وإن كنا سمح لأنفسنا بالرجوع إليهم كلما دعونا
 الحاجة التي ذلك.

بمجرد أن أتت حسين قد ربح عبي الترجمة لأعلام الشعر العربي
 على الإمام بن شباه الناعم وأطوار حيان في مرحلة أولى،

(194) - قال د. حسين : "ولكننا إلى الآن لم نجد على أن بسطنا دعوى

لنسميهم علمها ذلك، وقد نحسب أن آن الوقت لنثبت هذه الدعوى بالليل

الواحدة". المصدر السابق، ص 272.

وعلى درس شعره درسا فنيًا في مرحلة ثانية. ذلك أنه
كان يبدأ حديثه عن الشعراء بذكر الأخبار التي يتناقلها
الرواة عن أساءاتهم وأصولهم وأبرز أحداث حياتهم حتى إذا فرغ
من ذلك كله نظر في بعض القصائد التي تنسب إليهم.

وفد اتسم وضوح طه حسين على الأخبار التي يتناقلها
الرواة عن الشعراء بالحيز الشديد، لما كان عليه تلك
الأخبار من تضارب جابه بالنقد العظمي ووصل من رتبة
التي أن نشأة الشعراء المزيين مجهولة فالرواة لا يتفقدون من
حياتهم حين حاربوا إلا على أنه مضي من تيمم وهو
يسوفون عن حياة زهير أخبارا وأحاديث "كثيرتها أقرب
إلى الأساطير منها إلى حقائق التاريخ" (155) ويجهلون
"حياة كعب بن مالك" (196). وإذا كان الرواة يعلمون
من أمر الحطيئة أكثر مما يعلمون من أمر أوس أو زهير أو
كعب فإنهم تزيدوا فيها زيادا كبيرا جعلها شديدة
(1) الاضطراب بينة التكلف والنحل" (157).

وإذا كان نشأة هؤلاء الشعراء وأحداث حياتهم مجهولة
أو كالمجهولة، فانه لم يبق أمام المؤرخ سوى الرجوع إلى
ما أثار عنهم من شعر صحيح يستخلص منه حياتهم.
وقد حاول طه حسين ذلك بالإحراز الذي أُلح في التنبيه عليه
فقال متحدثا عن أوس: "على أن قراءة ديوانه القصير قد لا
تخلو من بعض الفائدة من هذه الناحية (....) وقد
نستطيع أن نتبين بعض حياته" (158)، بل إنه الرجوع إلى شعر
الشعراء قد يمكن المؤرخ من تصحيح بعض أخبار الحاطئة
التي يتناقلها الرواة عنهم. فالرواة مثلا يذهبون في غضب

(155) - المصدر السابق ص 202.

(156) - المصدر السابق ص 230.

(157) - المصدر السابق ص 253.

(158) - المصدر السابق ص 270.

النعمان بن المنذر على النابغة مـذاهـبـ سـتـى تـرجـعـه
الى قصة السيف حيناً وقصة المتجردة حيناً آخر، والـ
الوشاة ديناً ثالثاً، في حين أن شعره يدل على أن النعمان
انما غضب على النابغة لأنه مدح العباسية أعداءه (199). وقد
كان طه حسين يعتمد على شعر الشاعر في استخراج
معالم شخصيته التاريخية لأنه يعتقد أن الشعر يمثل ما حيـه
ويكشف عن ذاته. ولعل هذا يدل على أن طه حسين
كان مثل زيدان والرافعي والزيات، يخلط بين شخصيات
الشعراء التاريخية وشخصياتهم الأدبية. وفي الحقيقة فاننا نكاد
نجد ذلك في عمل طه حسين. ولكنـه، في ما يبدو،
لا ينهم النصوص الأدبية فهماً حرفياً في تمثيلها أصحابها،
ولا ينسب ما فيها من أحداث الى تاريخهم الشخصي،
وإنما يستنتج ذلك استنتاجاً من الصياغة الفنية في أشعارهم
ومن معانيها. فلذا كان قد شك في ما ينسب الى
امرئ القيس من شعر إسماعيل وراى أنه "أشبهه بشعر
المزدق" (200) أو في ما يرويـه الرواة له من شعر عزلي
راى أنه "أشبهه بشعر عمر بن أبي ربيعة" (201)، وإـهـ يعـوّل
على الأسلوب الفني وعلى الحقائق الخارجة في استكناه
شخصية الأديب كما في قوله متحدثاً عن القصديتين اللتين
تنسبان الى امرئ القيس وإلى علفمة: "وأنت تستطيع أن
تقرأ القصديتين دون أن تجد فيهما فرقاً بين شخصـة
الشاعرين" (202).

بيد واد أننا نجد عند طه حسين ما نحده
عند المؤرخين العرب الثلاثة السابقين من اعتبار الشعر

(199) - المصدر السابق ص 300.

(200) - المصدر السابق ص 206.

(201) - المصدر السابق. الموطن نفسه.

(202) - المصدر السابق ص 208.

ونبعة يترجم عن صاحبه ، إذ هو يسمي مثلهم من الشعر . من التاريخي
إلى الشخص الأدبي ، ومن الشخص الأدبي إلى الشخص التاريخي
أو ربما تحير أو احتراز ، ولعل ذلك إنما كان بسبب وجوب الفهم الذي
انطلق منه أربعهم للأدب والإدب .

ونجد عند طه حسين شيئاً آخر ، كنا وجدناه عند
زيدان والزيات خاصة ، في ترجمة الأعلام ، وهو أنه أخذ
بـ در الانتفاء في تناولهم ، فلم يترجم لكل الشعراء الجاهل
الذين تندرج أشعارهم في تلك المدرسة البانية المضربة ،
بدليل قوله : " وليس من شك في أن لا يدر هذه المدرسة
أكثر مما ذكرنا . فهناك شعراء آخرون منهم النميمي
والنيسي قد أخذوا عن أوس وأصحابيه وشاركوا سريتهم ،
ولكننا نكتفي بمن ذكرنا ، فهم الزعماء ، وهم ليسوا زعماء
هذه المدرسة وحدها بل هم فيما يظهر زعماء الشعراء
المضري الجاهلي كله " (203) . وهذا يعني أن طه حسين
قد احتار من بين شعراء هذه المدرسة شعراء معينين
وقف عليهم وترجم لهم . ومثل هذا الاختيار يدعو
إلى التساؤل عن المقياس الذي أخذ بهما في اختيار
هؤلاء الشعراء الخمسة دون سواهم .

لعد بر طه حسين هذا الاختيار بأنهم " زعماء " ،
وذلك يدل على أنه يأخذ بمبدأ الشهرة كما فرها السلف .
ولكنه يبدو أن وراء هذا المقياس معيار آخر لعله هو الذي
حمل طه حسين على أن يختار الشعراء الذين احتارهم
دون سواهم . ويتشبه هذا المقياس في أن شعر هؤلاء
الشعراء الخمسة يتلاءم أكثر من شعر غيرهم مع تلك
الخصائص الفنية التي التسهها عندهم (وعندها مميزات
تفريد بها المدرسة التي يمثلونها . ومما قد يدل على
ذلك أني نفى من هؤلاء الشعراء كل الأبيات التي تذكر لهم

ولم ترد فيها خصائص المدرسة بيضة جلدة، بدعوى أنها
من اختلاق الرواة (204). لقد كان اختيار طه حسين للشعراء
جاهليين دون سواهم ترجيحاً لهم على أنهم أبزر من
يمثل هذه المدرسة التي أخرج لها، اختصاراً جيداً بمعالجته
نظرياً درعها في تناولهم. فهل يكون هذا الاختيار
من آثار تلك الذاتية التي لازمت المؤرخين العرب في
الإقبال على تأريخ الأدب العربي؟

على أن تغرد طه حسين في الترجمة لأعلام الشعر
العربي باختيار أولئك الذين يلائم شعريتهم التصور الذي
انطلق منه في فهم حركة الشعر العربي، وبالحرص
على نفي الأبيات التي تستعصي على ذلك التصور، فقد
يبعث على التساؤل عن الحجج الذي يظل عنده الأديب
وفيها لخصائص المدرسة الأدبية التي ينتمي إليها، وعن
الحجج بين المدارس الأدبية في العصر الواحد هل هي
من الوفوح والبيان والطلاقة التي درجة نفع على أديب
المدرسة الواحدة التأثر بخصائص مدرسة أخرى
ولسوا تأثر بالناوينا؟ يبدو أن طه حسين لم يعرض إلى
هذه القضية ففي عمله، فليس في ما أخرج به لمدرسة
مضمر الشعرية ما يساعده على الوقوف على هذه
المسألة، ولعل ذلك يرجع إلى وقوفه عند مدرسة واحدة
لا يجاوزها إلى غيرها من مدارس العصر الجاهلي الأدبية،
والتي ذلك الإجاز الشديد الذي النزم به في تناولها.

(204) - لقد نفى طه حسين عن أوس بن حجر أبيات من قصيدة عينية
تسبب له من أبياتها:

رحلت إلى قومي لأدعو لهم إلى أمر حزم أحكمته الجوامع
بدعوى أنه لم يجد فيها: "هذا المذهب الشعري الذي يعتمد
على الصورة الطادية"، المصدر السابق ص 282.

على هذا النمط أن طه حسين لمدرسته مضر الشعرية
 في العصر الجاهلي ، وقد وصف على النصوص الأدبية وفعلة
 الأولية مكنسه من استكشاف تلك المدرسة بالاعتماد على ما يجمع
 بين أدب أصحابها من خصائص فنية مشتركة تشمل فني
 الإخبار من الصور المادية في التعبير ، وفي المكوف على
 الشعر و اعتماله بالرواية والفكر حتى يستقيم فنا خالصه
 ثم أن أبرز مشايها تأريخا يقوم على الخط بين
 الذات التاريخية والذات الأدبية للأدياء ، ولكنه لا يخلو ، مع
 ذلك ، من بعض العناصر التي طورت في الترجمة للأعلام
 في الأدب العربي . ومن أبرز تلك العناصر أنه كان يركن
 إلى العقل ويحتكم إليه في مواجهة ما يحدث به الرواة
 عنهم . وسأول طه حسين إلى جانب ذلك ، نماذج من
 أسرار الأعلام الذين وصف على تراجمهم فدرسه درساً لا يكاد
 يتعدى الإشارة إلى القياسات التعبيرية المشتركة بينهم ، فلم
 يلج على الثابت والمتحول في تاريخ المدرسة البانية
 الضرورية في العصر الجاهلي ، ولم يبرز ما أضافه فيها
 الخلف على ما تركه السلف . ويبدو أن ذلك يرجع إلى
 انشغاله باظهار التواصل في عملهم أكثر من اظهار
 التمايز والتحول .

على أن المهم في عمل طه حسين أنه لا يفرد تاريخاً
 للأدب العربي في عصره الجاهلي بالمعنى الذي انتشر له
 في مصر طيلة الربع الأول من القرن العشرين ، فهو في
 دراسة مضر الشعرية لا يعدو أن يكون محاولة تركيز أصلاً
 على الاقتراح والتوجيه أكثر من تركيزها على تحديد النتائج
 العقلية المفروغ منها . ويبدو أن ذلك انما يرجع إلى أن التفكير
 في تاريخ الأدياء قد انتهى بطه حسين إلى المشكل في
 ان كان اليعام به على وجهه في الأدب العربي ، فطفون
 بعدد الصوريات القائمة في سبيله ، وهي صوريات عررها
 في هياطين عميقة من عظمته اعتنق فيها بالجوانب النظرية

للمسائل، ووقف عليها عملياً أثناء التأريخ لمدى رتبته
بضر الشعرية في العصر الجاهلي.

يبدو أن طه حسين مهتماً ومهتماً جداً، لأن صاحبه
أدرك فيه أن "يستحيل" على مؤرخ الآداب أن يضع تأريخاً
للآداب العربي بتلك المفاهيم (المناهج) وتلك المعطيات. فتاريخ
الآداب عنده عمل شاق به الأبحاث العديدة والآداب العربية لم
تبحث بعد مسألته. وتاريخ الآداب يتطلب لب شاهج في البحث
علمية متطورة، والعرب لم يطلعوا بعد، في نظره،
على المناهج ولم يفهموا أيها أوفى بالحاجة منه في
درس الآداب وتدرسه والتأريخ له. إن عمل طه حسين
من هذه الناحية، يطل تاريخ الآداب بالمفهوم الذي سأل عنه
في عصره، ويدعو إلى الكف عن الإقبال عليه.

المدائن

* حميلة

و

* آفاق

وعدنا في القسم الأول من هذا العمل على المعاهد
الكتب التي أحدها أربعة من مؤرخي الآداب العرب في
الرجح الأول من القرن العشرين وحضرنا هذه المعاهد في
الآداب والآداب والتاريخ وباريخ الآداب وفي ما استعمل
منها أو تمسح عنها من مسائل مفهومة بدلتنا أثره في
أعمالهم. وكان ذلك في نطاق السعدي الذي النعيرف على
النظرية العامة التي انطلق منها المؤلفون العرب
عندما أمروا على التأريخ للآداب العربي.

وساولنا في القسم الثاني منه الساهج النسي اصطنعها
أولئك المؤرخون الأربعة في مؤلفاتهم، وعرضنا نموذج القسم
الذي عمور زمية في كتابي زيدان والزيات، وسهج التويم
الذي أغراض أدبيه من خلال كتاب الراجعي، وسهج القسم
الذي مدارس منية في كتاب طه حسين، وزائرنا ببعض
البنائيات التي بطرحها أو يتضمنها كل منهم، على أنها
من مشاكل التأليف في مادة تاريخ الأدب.

٤ وبيدنا أن البحث في مفاهيم تاريخ الأدب وشاهد
لا يتم ما لم ننظر في النتائج التي أوجبت اليها
٥ تلك السمات وهاهنا المفاهيم، فوقفتنا على خصائص
المؤلفات التي أتجهها المؤرخون العرب الأربعة، لأنها
في نظرنا على الأقل، تكاد تكون تجسما فعليا لما
٦ أصدر عنه أصحابها مفاهيم نظرية.

وكانت هذه هي البداية، وفي ذلك كله، تنصب أساساً على
نقد هذا العمل، دراسة معمقة لا تترك من الآثار التي
تناولت تاريخ الأدب، بقدر ما أردناه تحسناً لما في
التأليف في هذه المادة من قضايا اصطلاحية مؤرخة و
الأدب في وضعها لها حلولا معينة تأثرت بها أعمالهم، وتأثر

منهمج التفسير الخ أحيال (2) . وما أن هذا الصرح الأحرر،
لا يختلف، في ما يبدو من الملاحظات التي قرأناها عنه
في كمال العذر، احتلاما جوهريا لمن منهمج التفسير الذي
عصير كما أخذ به المؤرخون السامعون في إطار نظرية
التداول الزمني، إذ هو، في نظرا لحديثين، تهذيب "موفى" من
التهدييات التي أدخلت عليه (3) طر المسائل التي وعظما
من بعضها من خلال المؤلفات القريبة، نصيح من دعائم نظرية
عامه للأدب سيطرت على فهمه ودرسه والتأريج له وحالات
المؤلفات فيه لا يختلف بعضها عن بعض إلا بما يتفاوت
فيه أصحابها من تغير بالتحري والصيظ والاجتهاد .

وبما أن هذه المفاهيم وتلك المناهج هي ما تسعى الأبحاث الآن إلى
تطويره ضمن تحديد النظر في الأدب رامية إلى الوصول بفهمه ودرسه وأرباحه إلى
مستوى من العلمية تبدو في أشد الحاجة اليوم إليه، فإننا رأينا أن نتجاوز
حصر المسائل والغايات القائمة فلتني التأريخ للأدب، إلى تقديم مقترحات نومي
أبها إلى آفاق جديدة تطرح فيها المسائل القديمة طرحا آخر أو تيسط
فيها بفايا أخرى لتعمل الأعمال المتقدمة لم تعظمها حظها من البحث .

(2) - أحد بهذا الصرح ألبير تيبودي في كتابه "تاريخ الأدب الفرنسي من سنة

1789 إلى أيامنا" . نشر ستوك بارس 1936 .

(4. Hibaudet : Histoire de la littérature française de 1789 à nos jours.
Stock. Paris 1936.)

ثم رضع له هنري بيير (H. Peyere) مؤلفا نظريا نشره سنة 1943 للم
نتكن من الإطلاع عليه . وأخذ به بعد ذلك سهريل أرنفوس في كتابه "تاريخ الولايات
الحددة الأدبي" نشره سنة 1953 ولم نطلع عليه أيما .

(Cyrille Arnavon : Histoire littéraire des États Unis)

رجع في ذلك كله : ر. أسكارييت : تاريخ تاريخ الأدب . دائرة معارف لابليان
ج III ص 1735 وما يليها .

(R. Lacroix : Histoire de l'histoire de la littérature in Encyclopédie
de la Pléiade. V III . p. 1735...

(3) - ذكر ذلك أسكارييت في مقاله السابق بمناسبة الحديث
عن كتاب أرنافون .

1 - الخصائص :

لعل أول ملا يستعربي الانتباه في مؤلفات تاريخ الأديب أن أصحابها أقبلوا عليها مؤلفين بأن الأديب يمكن أن يؤرخ له من حيث هو ميدان فائده بذاته يحطس به في من الاستقلال. فالعناوين التي وضعوها لأعمالهم تدل على هذه الفكرة والمصرافة التي اتخذوها من علاقة تاريخ الأديب بالتاريخ العام تؤكد هذا. فقد أطلق زيدان على مؤلفه عبارة : " تاريخ آداب اللغة العربية " وجعل الرافعي عنوان كتابه " تاريخ آداب العرب " وسمى الزيات مصنفه : " تاريخ الأديب العربي ". وإذا كان طه حسين قد خرج عنهم في هذه التسمية فأطلق على كتابه عبارة : " في الأدب الجاهلي " ، وهو خروج يجرد ما يبرره في أن صاحبه اتجه بعمله إلى التفكير في تاريخ الأدب أكثر مما اتجه إلى الكتابة في عاداته ، فانه تحدث طريرا عن " تاريخ الأديب " ومؤرخيه ، وبحث مليا كثيرا من فصاياه ومسائله. ولقد رأى المؤرخون العرب لكل أمة تاريخا عاما يتفرع إلى تواريخ عديدة يتناول كل منها فرعاً من فروع نشاط البشر النادي والفكرى ، بعضها يؤرخ للسياسة وبعضها الآخر يؤرخ للاقتصاد أو العلم أو الأدب أو الفن أو الدين. وذهبوا إلى أن كل فرع من هذه الفروع يحظى باستقلاله في عاداته أو في تاريخه ، وإلى أن التاريخ العام يحويها جميعاً من غير أن يؤثر في استقلال أي منها ، أو يفضي عليه. ولعل هذا (انهم) هو الذي جعل زيدان مثلاً يستعمل كلمة " شئيل " (4) في حديثه عن علاقة التاريخ العام بالتواريخ التي يتفرع إليها. ولعله أيضاً هو الذي جعل أغلب المؤرخين العرب على أن يعقبوا ضروبا من العرقية بين التواريخ التي تتفرع إليها التاريخ العام. فقد قال الزيات :

(1 - الزيات : " تاريخ العام ان لم يشيخ تاريخ الأدب ... تاريخ ... ج 1 ص 1 .

"التاريخ الأدبي وثيق الصلة بالتاريخ السياسي والإحصائي لكل أمة" (5)، وقال طه حسين متحدثاً عن صلة التاريخ الفرعية بعضها ببعض: "يدرس مؤرخ الآداب تاريخ السياسة والاقتصاد، كما يدرس مؤرخ الاقتصاد والسياسة تاريخ الأدب. وكل منهما بينهما من الفرق هو أن مؤرخ الحياة السياسية يدرس هذه الحياة لنفسها، ويدرس الأشياء الأخرى من حيث هي، كملية لبحثه. وكذلك مؤرخ الآداب يدرس الحياة الأدبية لنفسها، وبالجملة بالحياة السياسية من حيث هي كملية لدرس الحياة الأدبية" (6)، والظاهر أن مؤرخي الآداب قد التمسوا لفروع التاريخ العام ضرورياً من العلاقة الخارجية لأنهم فصلوا بينهما على أساس استقلال كل منها بنفسه، وقد رأينا أن هذا الفصل كان أمراً ضرورياً عندهم، لأنه متى لم تكن فروع النشاط البشري المادية أو الفكرية مستقلة بعضها عن بعض، ولو استتلاً نسبياً، لم يكن إمكان التتأليف في مادة تاريخ الأدب.

و قد كان لهذا المنطق أثر عسـو أحياناً في فهم مؤرخي الآداب لتاريخ الأدب، ذلك أنه لخطرهم إلى الوقوف على مسائل مفهومية ومنهجية عديدة سواء في تعريف الأدب أو تعريف تاريخه، أو في تحديد نطاق تلك الأدوات التي حاولوا بها إدراك الحركة فيه. ولم تكن هذه المسائل لتحلوا من فصائلها على الفكرة في معظم الأحيان.

أ - المنهجية : يعتد خرض تاريخ الأدب الأول ما ينصر، تحدد الميدان الذي يتناولها للنظر، و قد فطن المؤرخون العرب إلى ذلك، فذهبوا إلى تعريف الأدب كما رأينا، مذاهب عديدة اتفقت على حصره في حله النص من الأدبية المشهورة، ولكن هذا التعريف لم يزد

على أن فتح أمامهم الأبواب لمسائل أخرى كثيرة كان
لها الأثر البالغ في توجيه أعمالهم تلك الوجهات التي
وقفا على جانب كبير من مظاهرها، وفي جعلها ترد على
المصغة التي وردت عليها .

فمن المسائل التي يطرحها تعريف الأرب بأنه جملة
النصوص الأدبية المأثورة، مسألة أدبية النص الأدبي . فبأي شيء
يمتاز النص الكلامي عن سائر النصوص الكلامية حتى
يصبح نصاً أدبياً ؟ لقد فطن المؤرخون العرب إلى هذه
المسألة فذهبوا إلى أن النص إنما يصبح أدبياً بفضل
خصائص في المصاغفة تتسم بالجمال تخرج به عن
النصوص التي لا جمال في خصائص صياغتها ما وفطنوا أيضاً
إلى أن جمال الصياغة هو العنصر الذي يعتمد المؤلفون
الذين ادخلوا على نصوصهم، وهو الذي يشعر به
القارئ فيعدها بمقتضاه من الأرب أو لا يعدها منه إلا أن المؤرخين
العرب، وإن أحسنوا النفس في تمييز النصوص الأدبية
عن غيرها من النصوص بأن جعلوها تحت المصاغفة
التي هي وبأن ردوا هذه المصاغفة إلى اللفظ حيناً وإلى
اليعنى حيناً وإلى اللفظ والمعنى والجمال مجتمعين
حيناً آخر، فقد أهملوا ذلك كله أهميلاً يكد يكون نامياً
في ما وضعوا من أعمال، وعندما مزجوا، كما رأينا،
بين النصوص الأدبية تلك التي تمتاز بصياغتها النسيجية
وبين النصوص الأخرى التي لا تمتاز بشيء من ذلك،
وسدوا استعملوها جميعها استعمالاً واحداً سواء في
البحث عن ذات الأدب الشخصية أو في فهم آثاره أو التأثير
لها . وقد يدل مثل هذا المنهج على أن المؤرخين
الذين لم يجدوا بعد السبيل إلى استغلال ذلك التمييز
الذي قاموا به بين النصوص الأدبية والنصوص الأخرى .

على أن المسألة لا تقف عند أهميلاً هذا الفرق بين
النصوص الأدبية والنصوص الأخرى، إذ هي تتجاوز ذلك

إلى أشياء أخرى تبدو مؤثرة في المعاهيم والأعمال . فالمؤرخون العرب، عندما قالوا النصوص الأدبية بالتالي ليست أدبية، قد انصرفوا بعضاً إلى انصراف عن المقارنة بين النصوص الأدبية وبين المجتمعات التي ظهرت فيها . فالجسعات هي التي نظرت في النصوص وعبرت بعضها أدباً وبعضها الآخر ليس بأدب، وهي التي اصطفت من كلامها كلاماً ما توحته أدباً وعاملت معه ضرورياً من التعامل . بل إن مؤرخ الآداب لا يعرف النصوص الأدبية إلا بمختارة مصطنعة من قبل مجتمعاتها . بالتالي فإن أدبها النصوص الأدبية تبغى عامضة مما لم تجعل بسببها من المجتمعات التي أقرت لها بل المصفة . خاصة أن هذا العمل يتزل النصوص الأدبية في مجتمعاتها لا يدرجها في حركة التاريخ . فيتيسر عنده التاريخ لها لا من حيث هي إبداع في المطلق . يتأصل بإبداعات أخرى في المطلق أيضاً . وإنما من حيث هي ظاهرة اجتماعية منغرس في المجتمع ضاربة بحدورها في صلبه . ثم إن المقارنة بين النصوص الأدبية وبين مجتمعاتها في عصرها تمكن مؤرخ الآداب من التعرف على تلك الحركة التي تنشأ فيها من حيث هي ظاهرة اجتماعية تسهم في التحول الاجتماعي وتخضع له .

ومن السبل التي يطرحها تعريف الآداب ذلك التعريف مسألة الجمال في نصوصه . فهل جمال النصوص الأدبية جمال ثابت مطهر أم هو جمال منحول من عصر إلى عصر ومن مجتمع إلى مجتمع لا يبدو أن المؤرخين العرب لم يداخلهم أي شك في أن الجمال الذي تحتصر به النصوص الأدبية إنما هو جمال ثابت مطهر يشعربه الناس في كل مكان وزمان . وقد عثر عليه حسين علي همدان في فكرة تعبير غاية في الوضوح عندما قال بتعدد معنى التعبير . " فلهذا من مظاهر الجمال الفني المطلق (١٠٠) من جملة النصوص جميعاً ، مؤثر

في الناصح جميعا" (7)، وعيّر عنها زيدان والرائع
والزيات كل على طريقته في جمل قصيره مهدوا بها
لما احتاروه من شعر الشعراء للبرهنة على نونهم
التي توهموا افتراءهم أو علقوا بها عليه وهو حصل من
قبل: "نفس من أنفاس الخلود" (8) و"الروعة والفخامة" (9)
و"أبلغ في البلاغة" (10) و"الكلام الذي لا يفنى" (11) و"ما أحمل
أسلوبه" (12) و"من معانيه الجميلة" (13) و"من أهدى
فصائده" (14).

إن جمال النصوص الأدبية إذن عند المؤرخين العرب
جمال مطلق، وإن المؤلفات الأدبية التي يتوفر فيها هذا
الجمال المطلق تظل في نظرهم وأدبا رفعا مهما
كانت العصور والأزمان، ومهما تنوعت المجتمعات.

ويبدو أن هذا الفهم يطمح ببعض المعروضات
في التماشي مع واقع الأشياء إذ التاريخ لا يعدم آثارا
كانت تعبر في عصورها من أرفع الأدب وأرق البلاغة
وجمالا ثم نهات فجاء أو شيئا فشيئا حتى لم تعد

(7) - المصدر السابق ص 317.

(8) - قال الراجعي ذلك متحدثا عن معلقة طرفة. تاريخ. م. م. ح III ص 230.

(9) - حاء مدء العبارة في حديث الراجعي عن شعر زهير بن أبي سلمى.

المصدر السابق ص 24.

(10) - علق بها الراجعي على بيت شعر ينسب إلى امرأة من نساء العرب

الشاعرات في الداهلية. المصدر السابق ص 71.

(11) - علق الراجعي بهذه العبارة على شعر ليلي العفيفة. المصدر

السابق ص 60.

(12) - ذلك ما قاله الزيات متحدثا عن أبيات من شعر زهير

نفي معلقاته. تاريخ. م. م. ص 54.

(13) - قدم به الزيات يساهد بن شعر حاتم الطائي. المصدر السابق ص 75.

(14) - في الزمان ما ذكره لأبي تمام. المصدر السابق ص 2 و 3.

تذكر الاعراض. ثم ان الآثار التي تظلم تعد حيلهم راءعة
 في عصورها وفي غير عصورها لا تظلم تعد، في
 يكدر، كذلك بعتضى ذوق واحد أو فهم واحد في كل العصور.
 فمرا ١٣١ الأنس الأدبي الواحد تتعدد في العصور الكثيرة
 ويختلف بعضها عن بعض في تعدد ها أحيانا لا من ذلك مثالا
 أن رسالة الغفران للمعري لا تفيد الآن عند النقاد بمثل
 ما كانت تمد به عندهم منذ خمسين عاما أو منذ
 مئات الأعوام، وأن شععر المتنبي أو أبي نواس لا يثرون
 الآن بمثل ما كان يتدوق به في عصورهما أو في ما لحق
 بعصورهما من العصور. فكل مجتمع يتعامل مع النصوص
 الأدبية نعاما لا قد يختلف عمل سيقه أو يلحق به من
 مجتمعات. الهلذا فإن فهم جمال النصوص الأدبية على أنه
 جمال مطلق، يبدو قابلا لكثير من النقيض أو، على الأقل،
 في حاجة أكيدة إلى المراجعة، إذ عديده هي الطواهر
 الدالة على أن جمال الآثار الأدبية يتحول مع عصور الزمن
 ومن نظام احتطائي إلى آخر. فالمجتمع يفرز النصوص
 الأدبية ويفرز معها النعايير التي يفدر بها حالها.

وهكذا فإن المؤرخين العرب عندما غمروا جمال النصوص
 الأدبية على أنه جمال مطلق، قد أغفلوا ربطها بالجماعات
 التي ظهر فيها، ونحاملوا جانبها من جوانب ملتته
 بالناريمخ، وإذا كانتوا قد وصلوا، كما رأينا، إلى
 الإرباب واساطير الاجتماعية ذلك الوصول الذي غدا به الآداب
 تصوير عصورها أو تنلها، فإنهم جعلوا في حدود العلاقات
 الخارجية بين الأدب والاجتماع، أن مفهوم التمثيل أو التصوير
 أو الانعكاس يقتضي، فضلا ببلن النظامين الأدبي والاجتماعي.
 وفي الحقيقة فإن الفصل بين هذين النظامين هو الذي
 أتى بالمؤرخين العرب إلى إقامة علاقات خارجية بينهما، وهو
 أنهما الذي جعلهم به سبور في جمال الأدب مذهبيا بـ
 فيه جمالا مطلقا لا يتغير لا بالزمان ولا المكان،

ومن المسائل التي يطرحها تعريف الأدب ذلك التعريف ، وفهم
جماله هذا الفهم ، مسألة يتوقف الباحثين منه في
درسه أو تأريخه . فإن يكون الأدب جملة النصوص الأدبية
المأثورة ، وأن يكون جماله جمالا مطلقا ، يؤدي بالباحثين إلى
التحاذر من معايير ذاتية من الآثار الأدبية . وقد فطن طه
حسين إلى هذه المسألة كما فطن إلى مسائل كثيرة
غيرها ، فاعتبر الذاتية شرطا لازما من شروط التأريخ للأدب ،
أنواع مؤرخ الآداب ، في نظره يضع عملا فنيا يعتمد شخصية
صاحبه ونوفه حتى لا يكون عقيما جافا (15) . أما
المؤرخون الثلاثة الذين سبغوه فانهم اکتروا من اعتماد
المؤرخي والميل في أعمالهم . ويبدو أن هذا الموروث
من النصوص الأدبية ومن جمالها ، قد أسهم بضع كبير
في جعل تلك المؤلفات الأربعة تنطبق بوجهات نظر
بعض المذاهب بالعائدية التي كانت سائدة في عصر
طليعة الربع الأول من القرن العشرين (16) ، فجاءت يختلف
بعضها عن بعض اختلافات لا في بعض الأديان .
وليس من شك في أن هذا الاختلاف لا يحل من حط
على تأريخ الأدب نفسه ، إذ هو يجعل من الكتابه في
تاريخه مأساة من أبعد المأساة عن الموضوعية .
فإن يؤرخ أبناء الجيل الواحد للأدب الواحد تواريخ متعددة
المساربات متضاربة الاتجاهات متنافرة المقاصد أمر يعجز
على الاعتدال في أن التأليف في هذا الموضوع ليس أكثر
من فرصة يعتمدها المؤرخون لنشر عقائدهم الدينية .

(15) - طه حسين : في الأدب الجاهلي ، ص 45 ، 46 ، 47 ، 48 . وما قاله
في هذا الصدر : " . . . أن تاريخ الأدب لا يستطيع بوحه من الوحوه أن يكون
" موضوعيا " صرفا ، وإنما هو متأثر أقصد التأثير وأفواه بالذوق ، وبالذوق الشخصي هل
الذوق العام " .

(16) - راجع في ذلك الصفحات 132 و 133 من عملنا هذا .

ولم تكن هذه الذاتية عيباً من العيوب التي ترمى
بها المؤلفات العربية إذ أنها وليد طبيعي لذلك الموقف
التأويلي الذي يؤدي إليه فهم الأدب فهما يحصره في نصوصه
المأثورة وببركته اعتبرها جالها جالاً مطلقاً يتذوقه الناس
أجمعين مهما كانت العصور والمجتمعات. لذلك تجاوز الأخذ
بالذاتية عند المؤلفين العرب النصوص الأدبية وجفائها
وتجاوز العناصير الذاتية التي تميز العصور الأدبية
بعضها عن بعض، والتي تميز أعلام الأدب أنفسهم بعضهم
عن بعض أيضاً. فهذا زيدان يبرر سرياً على عصر
صدر الإسلام رغم الطائفية في تناول العصريين الجاهلي
والأموي، لا شيء، فيما يبدو، إلا لأنه العصر الذي
رُفد فيه الإسلام (17). وهذا الزيات يخصص للعصريين
المعمرين والعثمانيين أربعة عشر صفحة فقط. رغم أنه
خصص للعصور الأخرى ما يربو عن مائات الصفحات
لا شيء، في ما يبدو، إلا لأنها كانت، في نظره،
عصري انحطاط (18). وهؤلاء المؤرخون العرب الأربعة
يطبقون في تراجم أعلامهم وعجوزون في تراجم أعلام
آخرين بدوافع ذاتية في معظم الأحيان. ويبدو أنه
كان لهذه الذاتية أثرها في جعل تلك المؤلفات الأربعة،
تعمل على حماية ثقافة معينة وليس خدمة تصورات
معينة أيضاً للماضي وللثقافة.

(17) - حمص زيدان لعصر صدر الإسلام 14 صفحة فحسب رغم أنه عدّ ظهور

الإسلام "أهم انقلاب أصاب العرب من أول عهد تاريخهم إلى الآن". تاريخ...

ج 1 ص 23. ويبدو أن سيجيته هي التي دفعته إلى ذلك.

(18) - ذهب عبد الله العروي إلى أن المؤرخين

العرب كانوا لا يغيثون طويلاً على عصور الانحطاط

رغبة في تجاهلها. انظر ذلك في: العرب

والإسلام في التاريخ، دار الحفوة، بيروت 1973 ص 90 وما يتبعها.

ويعترض تاريخ الأدب، علاوة على تحديد الموضوع الذي يتناوله بالنظر، تعريفًا يتناوله هو نفسه بالتحديد والضم.

فمعرفة مواضع العلوم، مع ما كانت فيمتها كبيرة في أحصر مفاهيمها، لا تكفي وحدها في التعرف عليها، ويبدو أن المؤرخين العرب قد فطنوا إلى ذلك فعرفوا تاريخ الأدب من راب كما رأينا. على أن مفهوم تاريخ الأدب، عندهم، وقد كان متأثرا متأثرا كبيرا بالتعريف الذي حددوه للأدب نفسه. ذلك أنهم عندما فهموا الأدب على أنه جملة النصوص الشبيهة بالأنثورة، قبلت فمروا بالتأريخ إليه على أنه بحث عن المواضع التي ظهرت فيها تلك النصوص، وعلى أنه ترتيب يضع بعضها إثر بعض على خط الزمان. إن تاريخ الأدب عندهم هو بحث في نشأة الأدب وساق نصوته وأعلامه. وهذا الفهم هو الذي دفعهم، على ما نطس، إلى أن يتناولوا نشأة الأدب العربي بالبحث. فقد كتب زيدان فصلا معيرا في الجزء الأول من عمله سماه: "كيف بدأ العرب ينظمون الشعر" (19) وحاول فيه أن يتعرف على أولية الشعر العربي وعلى أول من قاله منهم، وأفرد الرافعي، من جهته، فصلا في الجزء الثالث من كتابه، له "نشأة الشعر العربي" (20) ساق فيه أخبارا عديدة عن هذه النشأة واستخلص منها أن "مبدأ" الشعر العربي قريب في الحاحيه لا يكاد يحاوز نشأة المهمل الساعر الباهلي المعروف. وإذا كان الزيات لم يطل الوصف على نشأة الشعر عند العرب، فإنه رأى أوليين معنيين بهام: "مجهولة، فلم يقع في سماع التاريخ الا وهو محكم مصلي" (21). وأما طه حسين فإنه لم يكن أقل عناية من المؤرخين الذين

(19) - تاريخ ... ج I ص 54.

(20) - تاريخ ... ج III ص 17 و 23.

(21) - تاريخ ... ص 28.

سيفسوه، بهذه المسألة، فقد مددها من المسائل التي
 تعجز عن زلزال شك فيه عن حلها، لأن السعير العربي،
 في نظره، وإن يكن "نشأ ضعيفا واهنا مضطربا، ثم قوي
 ونما واتسقت أجزاؤه شيئا فشيئا، حتى بلغ أشده
 قبل العصر الذي ظهر فيه الاسلام" (22) فقد "ذهب عنا
 طعولته وذهب عنا مظاهر تطوره أيضا" (23).

٢. وتاريخ الأدب تاريخ نشأة لم يكن مقتصرًا على البحث
 من المواقف التي ظهر فيها الأدب، وإنما هو جتواصل
 في المؤلفات التي تناول فيها أصحابها الأدب العربي منذ
 نشأ حتى الآن. فالناظر فيها لا يكتفي بجرد سوى العناية
 بنسأة الأعلام والنصوص ونشأة الأعمال والأشخاص والمدارس، ونسأة الأديان
 الذين واصلوها أو أضافوا إليها وأحدثوا فيها على مر
 العصور الرمنية. بل إن تاريخ الأدب، بهذا المفهوم، كتب
 ما يتحول إلى تاريخ للأعلام، يكفي فيه المؤرخ بتحديد
 مواليدهم وفاتهم بعضهم بعضهم الآخر على خط الزمن،
 ثم ما كان الأمر عند زيدان والزيات فإن عمليهما لا ينجح
 في ذكر الأعلام ترتيبهم علميا بعد علم على مر العصور،
 ٣. حتى كان حظ الأدب من التاريخ فيهما صئيلا ولم يكن
 هذه الظاهرة قبي على الراجح، وقد حاول أن ينجح فيه
 منهج القسم إلى أغراض أدبية لتبعد عنها قبي
 على زيدان والزيات، ذلك أن صاحب "تاريخ آداب العرب" أكثر
 من وضع القوائم في أسماء المؤلفين بعضهم الآخر بعض
 حسب تسلسل الزمن، وإن كان قد جمعهم في أقسام رسة
 كبرى من قبل: الجاهلية و صدر الاسلام والعصر الأموي والعباسي
 والتأخر. فكان أن أهمل هو أيضا التأريخ للأدب العربي
 واعتنى بالأسماء يسرها سر نشأة في إطار التعاقب الزمني.

صن حدود الأغراض الأدبية بل إن عمل طه حسين نفسه لا يبعد كثيرا عني هذا الضيق العام الذي سار فيه المؤرخون الآخرون ، ذلك أن صاحب " في الأدب الحاهلي " ، وإن أقام فهمه لتاريخ الأدب على إدامة النظر في الآثار الأدبية ، راعتن في النص ومبه أكثر ما اعتمدتها زبدان والرافعي والزيات في أعمالهم ، قد اعتنى ، هو أيضا ، بنشأة المدارس الأدبية ونشأة أعلامها ، ووصف طويلا على مصاتهم وعلى تحيز بعضهم من بعض بالنسب أو الرأي (24) ، فكان مؤلفه من هذه الناحية قريباً جداً من المؤلفات التي اعتنى أصحابها فيمظاهرة النشأة في تاريخ الأدب .

وقد أترتب عني فهم تاريخ الأدب هذا الفهم نتائج مستديرة رأيتها بعضها ووجدنا على ما كان من أثرها في تكييف أعمال المؤرخين العرب . فأن يكون تاريخ الأدب تاريخ نشأة يؤول بالمؤرخين إلى البحث عن الأسباب التي ظهرت الأعلام وظهور النصوص لا على أساس تفهم المراميد التي أحدهما ، وإنما على أساس تبين موقعها من حيز الزمن . وفي هذا النوع من الأبحاث يغفل مؤرخ الآداب ظواهر أخرى لعلمها أحق بالدراة وأجدر في فهم سائر التاريخ الأدبي ، بل إن في التعلق بالبحث عن نشأة الآثار والأعلام والأغراض الطعانية والمدارس ، وفي الاقتصار على ذلك في التأريخ للأدب ، خروج عن العسل التاريخي الذي يعتني من صاحبه بنهاية بالأسباب والمسببات أو يتطلب منه وفوقاً مركزاً على العسل التي تمهيد للحركة أو تحدثها أو تبلغ بها مداها . ففرأى الأسماء ، مهما كان الترتيب

(24) - قال طه حسين : " إذا كانت السلسلة الشعرية التي تتصل بهزيم من قبل النسب معطوعة أو كالمقطوعة ، فالسلسلة الأخرى التي تنصل به من قبل النظم والرياسة منسوبة بالحقيقة أو جميل أو كئيبة في الأدب الحاهلي ص 332 .

الذي ينتظمها فيما ، ليس مما يكتون تاريخا لأي ظاهره
من الظواهر الفكرية أو العادية لنشاط البشر ، والتاريخ نفسه
ليس مما يفهم هذا الفهم أو يمارس التأليف في مادته
هذه الممارسة .

ب - ~~التقسيم~~ ~~المؤرخون~~ : اختلف المؤرخون العرب
حول المناهج في التأريخ للأدب العربي ، واشتد بينهم الاختلاف
حول مسألتين مهمتين من مسائلها : أما الأولى فهي مسألة
التقسيم والتصنيف ، وأما الثانية فهي مسألة الحركة التي تدحل
على الأدب فتطوره أو تحلّ عنه فتدعه راكدا متوقفا .

وقد تحسّن اختلافهم حول التقسيم والتصنيف في ما
ذهب إليه بعضهم من أن القسمة الزمنية التي تصور أدبيّة
تتفق والعصور السياسية في التاريخ السياسي ، هي أفضل
الوسائل في التعرف على حركة الأدب تلك الحركة التاريخية ،
وفي ما اعتد به بعضهم الآخر من أن القسمة التي أعراض
أدبيّة هي الطريقة الأوفى بالحاجة منها في التأريخ للأدب ،
وفي ما تصوّره بعضهم الثالث من أن القسمة التي مدارس
فنيّة هي الأداة الأوفق بالأدب في التعرف على مساره التاريخي .
ومن هنا يتضح أنّ الوحدانيّة في تاريخ الأدب كانت إحدى
الأساليب التي قام عليها اختلاف المؤرخين العرب حول الفن .
فقد رأى بعضهم أن الوحدات التاريخية التي يتمّ الاشتغال من
أحدها إلى الأخرى إنما هي وحدات زمنية ، ورأى بعضهم الآخر
أنها ليست أكثر من وحدات عرضية تسترسل الحركة فيها
بتقطع النظر عن الوحدات الزمنية في تواصلها وانقطاعها ،
ورأى بعضهم الثالث أنّ الوحدات في تاريخ الأدب إنما هي
وحدات فنية تتواصل حركة التاريخ في كل منها على
حدة وفي ما يحدث بينها من صراع أو يقع لبعضها
من تنقل في المكان والزمان .

واختلاف المؤرخين العرب حول التقسيم هو فني الآن
نفسه اختلاف حول التصنيف. وهذا صنف أصحاب الوحدات
الرئيسية أم لا أم الأدب العربي أو آثارهم في أقسام زمنية
صغيرة أم أصحاب الوحدات أو آثارهم على أساس ما تناولوه بأدبهم
من أغراض سواء جمع بينهم العصر الرضوي الواحد أو باعد
بينهم العصور الكثيرة، وصنفهم أصحاب الوحدات الفنية في
المدارس الأدبية التي ينزلون فيها بانتمائهم سواء عاشوا
في الزمن الواحد والمكان الواحد، أو ظهرروا في الأزمان
المتباعدة والأماكن المتناحرة.

ويظهر أن هذا الاختلاف إنما يقوم، عند التأمل، على
السؤال الكبير التالي: في أي شيء يمثل تاريخ الأدب؟
ذلك أن أعمال زيدان والرافعي والزيات تدل على أنهم
فهموا أن الإضافة هي التي تكون تاريخ الأدب وتمثله.
فالزمن، عندهم، يمضي، والأدباء يجرى بعضهم إثر بعض
فيضع كل منهم نصوصا يقع ضيقها إلى ما حصل منها
بعد في تاريخ الأمة. وإذا هم اختلفوا فأخذ بعضهم
بالوحدات الزمنية وأخذ بعضهم الآخر بالوحدات الغرضية،
فإن هذا الاختلاف لم يحدث تباعدا جوهريا في تصوراتهم
للأشياء. وآية ذلك أن زيدان والزيات أخذوا في الوحدات
الزمنية بالعمدة التي أغراض أدبية والتي مواطن جغرافية،
وأن الرافعي صنف الأعلام بعضهم إثر بعض على خط
الممكن من أغراض الأدب العربي. وأما طه حسين
فتاريخ الأدب عنده هو تاريخ إضافة وتاريخ صراع
وتنافسهم فلاضافة تقع في الوحدات الفنية وحده وحدة
إذ الأعلام يتلو بعضهم بعضا ويضيف كل منهم على
ما استقر بعدا وحصل في تاريخ المدرسة. وأما
الصراع فيحدث بين الوحدات الفنية المختلفة إذ أن أعلامها
يشعرون بانتمائهم إليها وينساقون بعضهم بعضا في نصرة
الناحية التي يميلون إليها. وبهذا الفهم يكونون

طبه حسين قد تحلن بعض التخليص ، من تلك النظره
التي ترى في التاريخ بواسطه بسيطه من خلال الاضافه ،
وأدرج فيه حركة الصراع أو السامير.

وأما اعلامهم حول مسألة الحركة التي تدحل
على الأدب أفرد حاشية نتيجة لمن نتائج اختلافهم حول مسألة
التقسيم والتصنيف ، ذلك أن تحديد الوحدات وحصر الاعلام
فيها ، إنما يرمي إلى سعي الانتعاش والتحولات من وحدة
إلى أخرى . وهنا كان للتعريف الذي أخذوا به للأدب
أثره العميق في تكييف نظرتهم إلى الأشياء . وأن يفهم
المؤرخون العرب الأدب على أنه حلة النصوص الأدبية العائنة ،
وأن يجعلوه ميداناً مستقلاً بنفسه يتعهد مع المجتمع علافاً
خارجية ، قد آل بهم إلى الاعتقاد في أن الحركة إنما
تطرق عليه من الخارج ، وهذا تأتية من الحياة الاجتماعية
ومن خيالات الاعلام الذين ألفوا نصوصه . أفعلافة الأدب بالمجتمع
علافة تشيل أو تصويره التي أفسحت المجال ، في
نظرهم ، للعوامل الاجتماعية وجعلتها تؤثر فيه وتدفع
به إلى الرقي أو الركود أو الانحطاط . ولعل هذا الفهم
هو الذي جعل زيدان والزيهات يقسمان تاريخ الأدب إلى
عصور أدبية تتفق والعصور السياسية لا في الزمن فاسب
وإنما في الرقي والانحطاط أيضاً . ولعله أيضاً هو
الذي جعل الرافعي وطه حسين لا يقطعان قطعا بين
معاهم العصور الزمنية رغم ما كان من خروجها عنه .
ولم يكن تعريف الأدب وحده هو الذي دفع بالمؤرخين
العرب إلى فهم الحركة فيه هذا الفهم ، فقد كان
لتعريف تاريخ الأدب عندهم أثره في ذلك . فأن يكون تاريخ
الأدب تاريخ نسأة يفترض من المؤرخ أن يسعى في تناوله إلى
الوقوف على العرافية التي يظهر فيها اعلامه وتبرز
فيها نصوصه . وقد عبّر زيدان عن هذا الفهم تعبيراً
واضحاً في حديثه عن تاريخ اللغة إذ قال : " البحث في

تاريخ اللغة على العموم يتناول أولاً : النظر في نشأتها
بغية توكيدها مع ما مر عليه من الأحوال قبل زمـ
التاريخ (. . .) ثانياً : النظر في ما طرأ على اللغة
من التأثيرات الخارجية بعد اختلاط أصحابها بالأمم الأخرى (25) .
وبعد وأن ما طاله زيدان في تاريخ اللغة بصدق علو الكميـ
التي أرخ بها للأدب ، فقد حاول أن ينتبع ما لحق الأدب العربي
من تغيير نشأ من التأثيرات الخارجية الوافدة عليه من تاريخ
العرب والاجتماع في مختلف أطواره . وهذا التتبع هو الذي جعل
العصور الأدبية ، عنده وعند الزيات ، يتلو بعضها بعضاً
لأن مواطن الحركة الأدبية ليس في مادة الأدب وإنما هو
في مادة الاجتماع . ولست الحركة تطرأ على
الأدب من الخارج عند زيدان والزيات فحسب ، إذ هي عند
الرافعي على ما هي عليه عندهما ، في حركة الأدب عند
الرافعي ليست أكثر من إضافات تضافه في القيمة
يلحها الأدباء ، بعضهم إثر بعض ، كما تكون بعد تراثها
سواء في أغراضه العديـمة أو في ما استحدثوه من
أغراض وأصـواع أضافوها إلى الأدب العربي في العصور
اللاحقة أو العتـخرة . وهذه الإضافات ، عنده ، ضعيفة
القيمة لأن المجتمعات التي أفرزتها كانت ضعيفة القيمة
بحكم بعدها عن المجتمع العربي الرافعي في الجاهلية
وصدر الإسلام ، وأما طه حسين فقد كانت حركة الأدب ،
عنده ، هي الأخرى ، حركة خارجية تأتيه من المجتمع الذي
يظهر فيه ومن الأعلام الذين يضعون نصوصه . إلا أن
تلك الحركة الخارجية ليست ، في نظره ، أكثر من عوامل
واحد مؤثر من بين عوامل أخرى عديدة . فالأدب ،
حسب طه حسين ، يتحرك أيضاً بداً من التماس بين
أعلام المدارس الأدبية المتعددة ، وبموجب ذلك التلويين الذي
بدخله أعلام المدارس الأدبية الواحدة على ما استـ

بعيد من إنياتها . و من جملة هذه العواقل تتكون
حركة الأدب تلك الحركة التي تصنع تاريخه .

تلك هي معظم المسائل المفهومية بالمهجلة التي
طرحها /اعتقاد المؤرخين العرب في أنه يمكن أن يـوـجـه
للأدب من حيث هو ميدان مستعمل بذاته . وقد كان
للطرق التي عالجوها بها أثر عميق في جعل أعمالهم
تدور على تلك الصفة التي رأينا بعض خصائصها . ولعل أبين
ما في أعمالهم أنهم فهموا الأدب على أنه جملة النصوص
الأدبية المأثورة ، وفهموا التأريخ له على أنه تاريخ نشأة
يرمي إلى ضبط السواقيت و حصر الإضافات . لذلك وجدت
المفاهيم عند هم عسرا واحدا في التلاؤم مع واقع
الأمور ، وجاءت المناهج قاصرة ، إلى حد ما ، عن
السيطرة على موضوعها ، متضاربة في بعض الأحيان مع
الاستنتاجات المنطقية التي تتركز عليها .

* * * *

على أن مؤلفات تاريخ الأدب العربي ، وإن انطلقت
فيها أصحابها من مفاهيم للأدب والتاريخ تجاوزت الأبحاث الآن
معظمها ، لم تكن عديمة القيمة . فهي تظل ، في نهاية
الأمور محاولات فردية جريئة من وجهة نظره ، عام بها
مؤلفوها خدمة للأدب العربي عن طريق إحياء تاريخه وإعادة
تعيين موصفه ، في عصر أقام فيه مؤرخو الآداب أعمالهم
على أسس عرقية ووطنية ظاهرة (26) .

(26) د هـ ب أسكار بيت إلى أن الكتابة في مادة تاريخ الأدب قامت على
دعائم قومية ووطنية شديدة البروز . أنظر ذلك في بحثه : تاريخ تاريخ
الأدب ، دائرة معارف لابلير ج III ص 1759 و 1768 .

Histoire de l'histoire de la littérature. in. Encyclopedie de la
Pléiade V. III p. 1759 et 1768.

وقد تجلت قيمة هذه المؤلفات، أول ما تجلت، في ذلك الإقبال الحسن الذي حصها به القراء العرب، وهو إقبال يدل على أنها قامت بوظيفة مهمة في تكوين أجيال وأحيال نشفت عليها ونظرت من خلالها إلى التراث الأدبي العربي تلك النظرة التي ظلت مسيطرة حتى هذه الأيام القليلة. وبالتالي فقد كان لها طلع أسهمت به، إلى حد ما، في تكوين وعي العرب بنا ربحهم وبواقعهم.

وتجلت قيمة هذه المؤلفات أيضا في أن أصحابها كانوا، أثناء وضعها، يعيرون خطورة السامح في إحضاع مآله تاريخ الأدب لتصور معين للأدب والتاريخ، وفي تكميل الأعمال التي تقدمها. وقد مكثهم هذا الوعي من ادراك ما للأدب العربي في تاريخه من خصوصية يتميز بها عن الآداب الأخرى في تواريخها، ومن الوقوف على بعض الصعوبة في الإقبال عليه بالنظر التاريخي. ولعل تلك الحموضة هي التي كانت وراء ذلك الجدل الذي أخذوا به في حديثهم عن النهج وفي علاج مسائلها. وقد نتج عن ذلك أن جاءت مؤلفاتهم في مادة تاريخ الأدب العربي، على شيء من التنوع جعلها تتميز معظم السامح المتعارفين في تناول هذا الفن، فاكسبت النظرة التاريخية إلى تراث العرب الأدبي نراة واضحة، واكتسب بالأدب العربي شيئا من التجدد بعد بطاقتيه الماضية إلى سطح الحاضر. فلأعمالهم، من هذه الناحية في الفهم، ما لأعمال التاريخ فمن قيمة تنسب في وصل الحاضر بالماضي وفي خلق حدلية بينهما ترمي، من بين ما ترمي إليه، إلى ترسيم المستقبل.

ثم إن قيمة هذه المؤلفات تنحلي كذلك في أن أصحابها اتجهوا بها إلى الحموض معين من القارئين يكاد ينحصر، كما رأينا، في التلاميذ والطلبة. وهذا يعني أن كلا منهم يتميز بالشيء أضواء ما كان يفهمه من المدرسية ويرجوه من تدريس الأدب، وليس أبله.

ففي الدلالة على ذلك من هذا القول لطفه حسيب
"إن الميدان المالح للحياة الأدبية، الميدان الذي تعتمد عليه
الأمم في أدبها ولغتها، ليس هو الصحف ولا السجلات
بل هو المدارس التي يتكون فيها الأسباب وتنشأ
فيها الخمول والملكات، وتعد فيها أجيال الأمة
للجهاد والحياة" (27). ولعل اتجاههم بمؤلفاتهم
في المدارس هو الذي برر في نظرهم الأخذ، ففي
تاريخ الأدب العربي، بتلك المواقف الذاتية العقائدية
التي جسمتها مواقفهم من النصوص القديمة أو من المناهج
التي اصطنعوها في تناولها، فكما كانت الدراسة
موضوع معارك بين الاتجاهات العديدة التي ملأها كل منهم،
كان التاريخ للأدب موضوع صراع بينها، وقد كان ذلك
المراك وهذا الصراع، في ما يبدو، يتناول الواقع من
خلال التبرأ حيناً، ومن خلال اشتغاله حيناً آخر.
ويظهر أن هذا الفهم لا يخلو من جادة، لأنه ليس
يسبق للأدب العربي، في ما نعلم، أن نزل إلى الحياة
الواقعية هذا النزول، فهو لم يعد عملاً يزاوله بعض
الناس بموحي دوافع شتى لا تتجا وزرغبات أصحابها
وتصوراتهم الفردية للأشياء، وإنما أصبح أداة فعالة في
الواقع تتناول على ذلك ويخوض بها مؤلفوها صراعات
واقعية أقيد سلبيات الحاضر في مختلف مظاهرها.

على أن أبرز ما في هذه المؤلفات من ميزة إنما
يتمثل في أنها حوت جل ما للأدب وتاريخه من مفاهيم.
فقد قام معظمها على مجهودات واضحة للتفكير في الظاهرة
الأدبية. وفي تلك القضايا الباقية التي يطرحها تعريفها
أو تبسيطها علاقتها بالمجتمع أو تتضمنها منزلتها من التاريخ العام.
وكان لأصحابها فضل الاشتغال بهذه القضايا اشتغالا مضمنا

بالمادة التي تناولوها بالنظر كما هو الحال في مؤلفات زيدان والرافعي والزيات، أو اشتعالا فكريا صريحا كما هو الشأن في كتاب طه حسين . ولم يكن عنايتهم بتلك القضايا لتحلوا بدورها من الحركة . فقد انطلق زيدان والرافعي والزيات من اقتناع كلي بأنّه يمكن التأريخ للأدب العربي على غرار ما فعل الأجانب لأدبهم المعاصرين ومناهج استلهموها منهم أو حاولوا استنباطها من خصوصيات الأدب العربي في تاريخه . لذلك وضع كل منهم تاريخا للأدب العربي مصيره إلى ما كان ينصده غيرهم من المؤرخين الأحاديث عند ما كتبوا في تواريخ أدبهم . أما طه حسين فقد اتجه في عمله إلى التفكير في الكيفية التي يتأرجح بها للأدب أكثر مما اتجه إلى وضع مؤلف في تاريخ الأدب العربي . فكان أن احتلت المسائل النظرية مكانا ظاهرا في عمله . ولعل ذلك هو الذي مكّنه من أن يطور معاهيـم كثيرة وردت غامضة أو منفوكة أو خاطئة في أعماله السابقة . فطه حسين هو الذي خرج بلفظة الأدب عن المدلول العام الذي يظلفها على حلة النصوص الماثرة ما كان منها أدبيا وما كان علميا ، التي ذلك المدلول الخاص الذي انتشر لها في ما بعد عند ما جعلها تعني "مأثور الكلام شعرا ونثرا" فنيا . وطه حسين هو الذي ضبط لتاريخ الأدب مدلوله أو حدد له علاقته بالتاريخ العام وبسائر التواريخ الفرعية . وهو أيضا الذي وفق على النماذج التي يؤحد بها سواء في درس الأدب أو تأريخه . وهو الذي تناول علاقة الأدب بالمجتمع وقدر لها الصيغ والبنية التي تضبطها . وإذا كان ما وصل إليه طه حسين من التفكير في هذه المسائل لا يعدو أن يكون تهديبا أو "إصلاحا" (28) حسب عبارته ، لما ظهر بعد في أعمال معاصريه من

مفاهيم وآراء، فإن التفكير في التأريخ للأدب قد أسلمه إلى بني آخر يبدو على حط وانحراف من الطرافة أو بعد النظر. ذلك أنه وصل إلى ما يشبه الاقتناع بضرورة الكف عن وضع التأليف في تاريخ الأدب العربي على النمط الذي انتشر له في عصره، إذ الصعوبات في نظره جمّة ولا فائدة لأي كان على تخطيها. قال في هذا الصدد: "كيف تريد أن تضع تاريخ الأدب العربي والتاريخ السياسي العربي لم يدون بعد على وجهه، والتاريخ العلمي العربي لم يدون بعد على وجهه، والتاريخ الفني العربي لا يزال مجهولاً، والتاريخ المذهب والآراء لم يتجاوز كتاب الملل والنحل ومما يشبه كتاب الملل والنحل، وآداب الكثرة من الأمم الإسلامية التي تكلمت العربية مجهولة أو كالمجهولة، لا نستثنى من ذلك إلا هؤلاء الذين عاشوا في الشام والعراق والحجاز أثناء القرون الثلاثة الأولى بعد الإسلام" (29) وهو يهمل الصعوبات التي حملته على أن يدعو إلى تأجيل التأليف في مادة تاريخ الأدب إلى الوقت عوده لم يأن بعد لوضع تاريخ أدبي صحيح يتناول آدابنا العربية بالبحث العلمي الفني" (30). فهل يدل هذا التأجيل على أن طه حسين قد أدرك أن التأليف في مادة تاريخ الأدب على الوجه الذي عرف له لم يكن يفيد بالحاجة منه في التعرف على سير الأدب سيره التاريخي؟

لقد تدرجت المفاهيم والمناهج التي أخذ بها المؤلفون العرب في التأريخ للأدب العربي، من الإيهام والخلط إلى الوضوح والدقة والخط، وهذا يدل على أن التجربة بدأت تعطي نتائجها. فالمحاولات، مهما كانت غارقة في السلبية، هي التي يدعو بعضهم بعضاً إلى أن تهذب. وفيمة المؤلفات التي أرخ بها العرب لأدبهم منذ بدايات هذا القرن، إنما تمثل عند التساؤل، وفي أن بعضها كان مدعاة لرمي بعض.

(29) - المصدر السابق ص 54.

(30) - المصدر السابق ص 53.

2 - الآفاق : (31)

تبدو الآفاق الحديدم التي أصبحت أبحاث كثيرة تتجه إليها اليوم كلما تعلق الأمر بالتأريخ للظاهرة الأدبية، وليدة عاملين أساسيين :
أما الأول، فهو عامل جديد بعض الحداثة، يتصل بالأدب بدرسه ويتمثل، خاصيه، في ما أصبحت عليه الاتجاهات النقدية من كثرة نتحت عن اختلاف عميق أحيانا، بين أصحابها في فهم ذلك الكائن اللغوي الخالص الذي يعرف بالأدب. فالناظر في واقع الدراسات الأدبية اليوم يلاحظ، لا محالة، أن مفكرين كثيرين باتوا، منذ حوالي منتصف هذا القرن، لا يربطون لبعاء الدراسة الأدبية وحيدها من دون سائر الدراسات، بمعزل عن متطلبات الفكر العليتي، وأنهم حاولوا بإصرار لعله لم يسبق له نظير، أن يأخذوا بحظ من العلم في تناول الأدب، إلا أن محاولاتهم، وإن كانت عظيمة القيمة

(31) - ما زالت هذه الآفاق موضوع أبحاث متعددة المصدر والنزعة والإنجاء، وما زال الباحثون، فرادى وجماعات، يفسدون بأعمالهم فيها إلى تحسس الغايات واستكشاف المسائل أكثر مما يقصدون إلى علاجها علاجا منهجيا. لذلك رأينا أن نكتفي، في هذا الموطن مرعلنا، بالإشارة السريعة إلى المواضيع التي بدأ لنا مؤرخ الآداب في حاجة أكيدة إلى العناية بها وهو يتناول الأدب بالنظر التاريخي، فليس يدعى أن الإحاطة بما في تلك الآفاق التي بدأت أعمال حديثة كثيرة تؤمها من قبضايا، يتجاوز أي محدود فردي في وضع الأدب العربي الحالي، إذ هي تتضمن أعمالا حاسية معمفة تتطافر مجهودات الأخصائيين على النهوض بها في كل ما له صلة بالأدب من أوجه النشاط البشري. وإزاء هذا الوضع، ليس لنا إلا أن ننبه على أن الأفكار التي نسوقها في هذا الفصل من عملنا إنما نسير فيها من باب الاقتراح وأعيننا بما تحتاجه من أبحاث أكثر عمقا وشمولا مما نقدم الآن.

في كثير من الأحيان، لم تعط بعد، في ما يبدو،
النائج التي يمكن أن يطمح اليها طمئنانا كليا، ذلك
أن اختلاف هذه النائج في المبدأ والمفهوم لا يخلو
من عموق، بل إن المصير في ما كان منها في الصو
كالواجب لا يعدم شدة تبلغ حد التنافير في بعض الأحيان.
ولعل الاستناد إلى ذلك الاختلاف وهذا التضارب هو الذي
جعل طائفة من الباحثين تعتقد أن الاتجاهات الحديثة
في فهم الأدب ودرسه إنما وقعت في حيل الدارسين
على عدم الإطمئنان إلى كل ما قيل عن الأدب، وفي الدفع
بهم إلى تبين قضايا علمها لم تحظ بما تستحقه
من عناية في أعمال السابقين. وهكذا كان لهذا الواقع
دوره في اكتشاف جانب كبير من تلك الآفاق الجديدة التي
بدأت تؤمها أبحاث حالية عديدة (32).

وأما الثاني فيتمثل بالتأريخ للظاهرة الأدبية نفسها،
وتمثل في قيام الأعمال التي انجزت بعد في هذا
الموضوع على قضايا مفهومية أو منهجية لم تحل فيها
على الوجه المرضي. ذلك أنها فهمت الأدب على أنه
جملة النصوص الأدبية الماثرة أو طفت تؤرخ لها من حيث
نسأتها ونشأة أعلامها المشهورين، فأهولت جوانب
أخرى تبدو ذات أهمية بالغة في التعرف على مسيرة الأدب التاريخية.
ولعل مؤرخ الآداب الفرنسي الذائع الصيت لانصون هو أول من
فطن إلى ذلك الأهمال، فإنه وضع منذ سنة 1903 برنامجا
لتاريخ فرنسا الأدبي قال فيه ما معناه: إننا نعترف
أنه يكفي للباحث أن يدرس الأعلام الذين ينتجون النصوص
الأدبية حتى يتعرف على الأدب، فهي حينئذ تمة أولئك
الذين يغيرونهم، فالؤلفات إنما يتجه بها أصحابها إلى
الفرء (....). فمن هم أولئك الذين كانوا يغيرون النصوص
الأدبية؟ وإذا كانوا يغيرون منها؟ يطرح هذان السؤالان

(32) - فرانس فيرنسي : الكتابة والنصوص ص 238 وما يتبعها.

(France Vernier : l'écriture et les Textes. p. 238 ...)

قضيتين جوهريتين، مهما تكن الاجابة عنهما فإن الأدب يدور في الحياة، ذلك أننا متى اعتنينا بهما نعرفنا على الكيفية التي بها تنتشر النصوص الأدبية في الآفاق، وأدركنا المدى الذي تبلغه، ومتى فكرنا فيهما عرفنا أي الكتب تنتشر أكثر من غيرها بين الناس، وأي المؤلفين تصل أصواتهم إلى الجمهور، وفي الحقيقة فإن انتشار المؤلفات في البلاد، وإن نصادها إلى الشعب وتغلغلها فيه، يمثلان ظاهرتين إن نحن تأملناهما التأمل الدقيق خرجنا بفوائدها بالغة الأهمية في فهم الأدب، (م.م.) ولما إن نحن جمعنا، بعد ذلك، النتائج وفارقتا بعضهما ببعض على مر العصور والأزمان وقفنا على ما للأدب من قدرة على تكوين القوى المعنوية أو على توجيهها، وعرفنا ما إذا كان دوره في الحياة الاجتماعية من الزينة والترفيه أو من إرجاعه والفاعلية.

وعندما يمكن أن نضع إلى جانب هذه المصنفات التي تعنى بـ "تاريخ الأدب الفرنسي" على أساس إنتاج النصوص فيه، والتي أصبح لنا منها الآن نماذج كثيرة، مصنفات أخرى تعنى بـ "تاريخ فرنسا الأدبي" وهي مصنفات نفتقر إليها كثيراً ويكاد يكون وضعها الآن مستحيلاً، ولا أعني بـ "تاريخ فرنسا الأدبي" فهرستاً وصفاً أو قائمة في الأسماء والتراجم (....)، وإنما أعني بالرجوع من حياة الأدب في الأمة، أي تاريخ التفافيه وناريخ نشاط الجموع المبهمة التي كانت تعبراً الأدب بقدر ما أعني تاريخ أولئك الأعلام المشهورين الذين كانوا يكتبون نصوصه" (33).

(33) - فرستاف لانسون : دراسات في تاريخ الأدب، جدها ونشرها زملاؤه وتلاميذه وأصدقائه . نشر موري شامبيون . باريس 1926 . ص 3 و 4 ، 7 و 8 .

Guilave Lanson : Études d'histoire littéraire, réunies et publiées par son collègue, son élève et son ami. p. 3 et 4 ; 7.8. Honoré champion Paris 1926.

لعل أبرز ما في هذا البرنامج أن صاحبه مهذب لمتصور
 آخر لتاريخ الأدب، فلانصو استعمل عبارة "تاريخ فرنسا الأدبي"
 إلى جانب العبارة المعهودة "تاريخ الأدب الفرنسي"، وكان ذلك
 عن وعي منه بالفرق بين العبارتين، وهو فرق اعتمد
 الباحثون الجدد عندما دعوا إلى الإقلاع عن الكتابة في
 تواريخ الآداب من حيث هي مستقلة بذاتها، لأن نشاط
 البشر المادي والفكري لا يقبل التجزئة إلى أقسام يستعمل
 بعضها عن بعض ليعمل فيما بينهما ضربا من العلاقات
 الخارجية، لو نادوا بالاستعاضة عن ذلك بتواريخ أخرى تنناول
 الآداب في شعوبها.

لعد كان المفكرون السابقون يعتقدون أن نشاط البشر
 يقبل التجزئة، ففعلوه أقساما، وحلوا كل قسم منها
 يحظى باستقلاله الذاتي، وذهبوا بمسح ذلك الاستقلال
 يلتمسون لكل قسم من تلك الأقسام تاريخه الخاص، فرأوا
 للسياسة تاريخها الخاص وللأقتصاد تاريخه الخاص، وللأدب
 فنانا تواريخها الخاصة، وللأدب تاريخه الخاص، ثم جمعوا
 هذه التواريخ الخاصة كلها في تاريخ واحد أطلقوا عليه
 عبارة "التاريخ العام". وفي التاريخ العام احتفظت التواريخ
 الخاصة باستقلالها، إذ أن بعضها يترقى في العصر الواحد وبعضها الآخر يتدهر
 وبعضها يتطور بعضها يتحلف، وهذه الفكرة الأخيرة هي التي عبر عنها
 طه حسين بآهده من وضوح فقال إنه: "من الدهلي المنكر أن يقول
 قائل إن الأدب كان منحطا في القرن الرابع، كما أنه من المكابرة الفاحشة أن يقول
 قائل إن السياسة كانت راقية في هذا القرن" (34).

(34) - في الأدب الجاهلي . . . ص 39 . على أن طه حسين كان، من جهة ثانية،
 مد وعضد التجزئة في تناول حياة الناس بالتاريخ فقال: "ومنى كانب حياة الإنسان
 معسمة إلى هذه الأقسام المنفصلة التي يستطيع بعضها أن يستغني عن بعض استعناء
 تاما؟" . المصدر السابق ص 31 . وكان ذلك في دعوتته إلى الوصل بين
 الأدب وبين النشاط البشري من فروع ومظاهر.

أما الباحثون الجدد فانهم لم يعيدوا يفهمون التاريخ هذا الفهم فهو في نظرهم كل متكامل لا يقبل التحزبه الى أقسام متنافه بعضها عن بعض. وما كان يعد فرعاً من فروع ليس عندهم بأكثر من وجوه) دالة عليه في كليته وفي تكامله (35). إن التاريخ إذن حركة واحدة ذات وجوه عديدة دالة عليها، منها على سبيل المثال، الوجه الاقتصادي والوجه السياسي والوجه العلمي أو الفني أو الأدبي، ما وما بين هذه الوجوه من صلة لا يختلف في شيء عن الصلة التي بين كل منها وبين الحركة التاريخية العامة، عندما تؤثر فيها وتتأثر بها، لا بموجب علاقات خارجية تتعدها كل منها مع الأخرى، وإنما بموجب صلات قوية من التداخل المتبادل وبمقتضى روابط عضوية تشد بعضها البعض وتكوّن من مجموعها ذلك الدفع العام الذي يكون تواريخ الأمم. وعلى هذا الأساس فإن صلة تاريخ الأدب بتواريخ مظاهر النشاط البشري، لم تعد تفهم على أنها صلة بين أنظمة متعددة يحفظ كل منها باستقلاله ويلتصق بعضها ببعض في علامات خارجية متنوعة بينهما، وإنما تفهم على أنها صلة عضوية متداخلة ومتساوية بين وجوه متعددة دالة على شيء واحد هو الحركة التاريخية لها وفيها جميعاً، وعلى هذا الأساس أيضاً لم تعد صلة تاريخ الأدب بالتاريخ العام تفهم على أنها صلة احتوائية يتضمن بمقتضاها التاريخ العام تاريخ الأدب، وإنما تفهم على أنها تداخل جذلي متبادل لشكلين متلاحمين تسعى الحركة فيهما وبهما الى بلوغ مداها.

(35) - قال هذا الفكرة بيار ماشيري مثلاً في المقدمة التي صدر بها بحث تلميذته روني باليسار: اللغات الفرنسية المتخيلة. نشرها منشورات باريس 1974.

(Benoît Balibar : Les français imaginés, voir préface; Editions L'Asiatic

Paris 1974.

وبناءً على فهم التاريخ هذا الفهم صارت الصُّلُفات
التي تتناول الآداب بالتاريخ، في فرنسا مثلاً، تحمل عبارة
"تاريخ فرنسا الأدبي" (36) عوضاً عن عبارة "تاريخ الأدب الفرنسي"
و قد كانت كثيرة التداول من قبل، ولست سأسأل
سألية تلاعب بالألفاظ كما يبدو لأول وهلة، لأننا عندما
نضع نصب أعيننا أن نكتب في "تاريخ الأدب العربي"، على
سبيل المثال، نطالع من اعتقاد ضمنى نتصور بتقصيه
أن للعرب تاريخ مديدة بعضها علمي وبعضها أدبي
أوديني أو سياسي أو اقتصادي وسرى بعض هذه النواحي
مستغلة عن بعض استغلال مراضيعها كل بذاته، ونجعلها
بعد ذلك تلتقي في تاريخ عام يحويها كلها دون أن
يؤثر في استغلال أي منها الذاتي، أما إذا قصدنا
الكتاب "تاريخ العرب الأدبي" فإننا نصدر عن فهم
ضمني يرى للعرب تاريخاً واحداً ذا مظاهر عديدة منها
المظهر الأدبي، فلا نتناول له من حيث هو كائن مستغل
بذاته له علاقات خارجية بسائر المظاهر الأخرى وبالتاريخ
المعاصر، وانما نتناوله من حيث هو واجه من بين وجوه
أخرى لحركة واحدة هي حركة الحياة في الشعوب. وبالتالي
فإننا ندرج الأدب في التاريخ من غير أن نفتعل له تاريخاً
مستقلاً.

ومن شأن هذا الفهم، في ما يبدو، أن يثير
من نظرتنا الطبيعية المعطيات الموضوعية سواء في تعريف
الأدب أو درسه أو التاريخ له.

(36) - نذكر من هذه الأعمال: تاريخ فرنسا الأدبي، النشرية
الاجتماعية . باريس 1971 . وهو مؤلف جماعي أشرف على وضعه بيار أبراهام و رولان
ديسن .

Histoire de la France . Par un collectif, sous la direction de Pierre
Abraham et de Roland Desn . Editions Sociales . Paris 1971;

فكلمة "الأدب" التي كانت تدل على جملة النصوص الفنية أو جملة لرجال الدين الفوهة فحسبها أصبحت تطلق على تلك الظاهرة الاجتماعية التي تشمل في ما تشمل، النصوص الأدبية ذاتها والرجال الذين أنتجوها أنفسهم، والطرن التي تداع بها تلك النصوص والظروف التي فيها تظهرها والمقاييس التي بها تختارها، والجهـر الذي معها يتعامل. والأدب الذي كان يعد انسانا فيرق النحاس بموجب ما ركب فيه من طبع سبيل، ومن ملكات متطورة، ومن عقريّة و فريجة، وفي نظر الباحثين السابقين، أصبح يعتبر انسانا من النحاس لا يختلف عنهم الا بما يختلفون عنه، من اصراف الى تعاطي معهن أخرى، في حين تعاطى هو الكتابة عملا فتعلمها وحذفها وأنسل بها عمله، وانتاج النصوص الذي كان يظن عملا خارقا للمألوف لما كان يداخله، في عرف النقاد والأدباء، من رحي واليهام يطرأ على النفس مع ما يطرأ عليها من حالات الانفعال، أصبى يبرى عملا عاديا يقوم به أساسا عاديون في ظروف عادية لا تتأثر من الغيب بشيء، ولا تخضع الا لما يخضع له الانتاج عامة من ظروف، والنصوص الأدبية ذاتها التي كانت تعتبر حصيلة "تفاعيل رحي من امتزاج روح الأدب بـروح أخـرن" (37) على حد عبارة الراقسي، صارت تعد انتاجا يقدمه الأدباء بعد احياء النفس واعينات الحاطية حسب ما تقتضيه مهمهم أزمنةهم وعلى شرائط يطورها وضع الدراسة والتدريس ومكانة الأدب في الاجتماع البشري. وعلافة الأدب بالنظام الاجتماعي التي كانت تفهم على أنها علاقة بين نظاميين منفصل أحدهما عن الآخر انفصالا يتعمدان منتضاه بعض المصالحات الخارجية التي تجعل من النصوص الأدبية تمثل عصرها وتصور محتسباتها.

الحاجة

* الحاجة إلى الأدب : تمثل حاجة الناس إلى الأدب محدثا عظيم الضرورة فهي التعرف على نشوء الظاهرة الأدبية واستمرارها في هذه الحاجة هي التي أعطت الأدب وجوده الفعلي وهي التي بقيت قائمة وراء تواصله من حيث هلو ظاهره دائمة الاستمرار في المجتمعات. ويبدو والبحث في هذه القضية على غاية التعقيد والتعقيد، إن الحاجة إلى الأدب هي، في الآن نفسه، حاجة إلى التدبير يشعر بها الأدباء أو يقتضيهما المجتمع، وحاجة إلى التعامل مع ذلك النوع من النصوص التي تعرف بالأدب في عصر في الآن نفسه أيضا حاجة دعت الناس في فترة ما من تاريخهم إلى استنباط الظاهرة الأدبية فكان لها نشوؤها التاريخي، حاجة تدبرهم على أن يحافظوا عليها من خلال التعامل معها. وهذه الحاجة كذلك هي التي حددت جانبها كبيرا من وظيفة الأدب الاجتماعية، وإن لا يدل أن يكون للظاهرة الأدبية وجود مجاني يحمل على التبرع حيا أو تؤسسها المتعة ويرسخه الذوق أحيانا، وإن عادت في بعض الفترات التاريخية ترفا وفامت، من بين ما قامت عليه، على المتعة والفرق.

وفد تلتبس الحاجة إلى الأدب في النصوص الأدبية نفسها من حيث هي صياغة لفظية ذات قيمة فنية أو فخر فنية، كما تلتبس في تعامل الناس معها إذ هم الذين اختاروها من بين أخرى وترجوها أدبيا وحدروا لها اتصاف حياتها الاجتماعية، أو في نوعية العمل الذي تقوم به في المجتمع من حيث أنها تكونت فيه وأثرت في تكوينه.

على أنه لا يكفي مؤرخ الأدب، على ما نفد، أن يفهم في عصر من العصور على حاجة الناس إلى الأدب، فيبطل نتائجها على تلك الظاهرة الأدبية في كل المصنوع والمحدثات وليس استمرارها فيها، لأن هذه الحاجة تبدد من أكثر الخواهر حساسية لأوضاع المجتمعات وتفاعل معها. ومن الأدلة

على ذلك أن السأمل في تاريخ الشعر العربي يلاحظ ،
لا محالة ، أنه قد جعل في الصراع العنائدي والسياسي الذي استعمل
بين البيتين وبين الفرقيين في أوائل الدعوة ثم بين
الأمويين وبين من عاداهم من الفرق والأحزاب ، وأنه قد
تمزج بين لون من ألوان الترفيف ذلك الغزل الرقيق الذي
انتشر في الحجاز على أيام بني أسية ، وأصبح يذخا
لعوييا بعد القرن الرابع عندما تعاطاه أدباء جملتهم
منه البراعة في التلاعب بالألفاظ والضيغ .

وإذا ثبت أن حاجة الناس إلى الأدب في تحول راتب ، وأنها
أوراق ما يحدث للظاهرة الأدبية من تحول دائم أيضا
في نشأتها ووظيفتها ، فإنه يصبح على مؤرخ الآداب أن
يسوِّج للحاجة إلى الأدب ولما لها من آثار في خلق
التحولات التي تلحق الأدب في التاريخ .

* المقاييس : ولكن البحث في الظاهرة الأدبية من
حيث الحاجة إليها ، يفضي بمؤرخ الآداب إلى النصير في المقاييس
التي تعيتم بها النصوص فتعد من الأدب أولا تعد منه
في عصرها أو في غير عصرها من العصور . فهذه المقاييس
تبدو على صلة متينة بالحاجة إلى الأدب ، حاجة أوجدت
الظاهرة الأدبية وضمنت استمرارها وحدثت وظيفتها .
لذلك فهي بالغة الظهور في تاريخ الأدب ، إذ النير الذي لا يختار
ولا يخرج أدبا يسقط في إهمال في لا يخرج منه أبدا .
وهذه المقاييس تبدو من جهة أخرى بعيدة عن الثبات
والإطراد في الزمان والمكان ، فالنظر في تواريف الآداب
يكشف على نصوص عديدة أدبا لأنها كانت تنطق بالصدق
والحكمة وتدعو إلى محامد الأحلاق ، وعلى نصوص أخرى
عدت هبلي أيضا أدبا وإن نظمت بالكذب وزينت الرديلة للناس .
وفي شعر أبي نواس أحد الأدلة البليغة على
هذا ، فما ينسب إليه من شعر تاب فيه وتزهد
بمعد أدبا ، وما قاله من شعر رغب به

الناس في شرب الخمر، وتغزل فيه بالعلماء يمد
هو الآخر أديبا (38) . وإذا كانت المقاييس التي يقيم بها
الأدب وتحتار نصوصه بعيدة عن أن تكون ثابتة، فإنه
يتعين على مؤرخ الأدب أن يتناولها بالتأريخ، فيتبعها في
عصر الأدب عصرها، ويتساءل عن أسباب التحول فيها
ويعاينها، فمعرفة التحول الذي يدخل على المقاييس التي
تختار بها النصوص أو تحدد ثبوتها، وتبين
التحول الذي يدخل على الأدب نفسه أو على أوطافه . على
أنه لا ناص من التعرّيج على ملاحظتهم، ففرغ نفسها، فالنصوص
الأدبية ليست وحدها هي التي تغير المؤرخ في بحثه
عن التحول الذي يدخل على تلك المقاييس، إذ النصوص التي
تظهر في عصر من العصور ولا تعد فيه أدبا تبدو هي
أيضا مفيدة في ذلك، لأنها تتضمن المقاييس التي من أجلها
لم تعد من الأدب ولم تلحق به، وبالتالي فهي مما
يتوجب على مؤرخ الأدب الوقوف عليه وتأمله أثناء تأريخه للأدب.

* الموقوف من الجمال : لقد بات معروفنا الآن أن النصوص
الأدبية إنما تختار وتوج أدبا لأنها على حط من الجمال قد
يكون كبيرا، وقد يكون صغيرا، ولكنه لا سبيل إلى حلها
منه، فقد وف باحثون كثيرون، فدماء وعاصرون، على
جمال الأدب وندموا فيه أعمالا كثيرة وضحت معظم جوانبه .
ولكن الذي لم يأخذ بعد حظه من البحث في هذه
القيمة، إنما هو ذلك التحول في جمال النصوص الأدبية
من عصر إلى عصر، ومن مجتمع إلى مجتمع، فمعظم

(39) - يبدو أن المعري قد فطن إلى رجة القيمة عندما قال : "وقد

وجدنا الشعراء تملأوا السجدة المنطق بالكذب، وهو من الفبايح، وزينوا
ما نظموا بالبحر، وصفة النساء، ونعوت الخيل والابل، وأوهات
الخمر، لزوم ما لا يلزم" شرح طه حسين وإبراهيم الأبياري . نشر
دار المعارف، القاهرة بدون تاريخ . ج 1 ص 52 (العمدة) .

الأبحاث التي تناولت جمال الأدب بالدرس ذهبوا إلى أنه جمال مطلق، وفي حين أن الواقع لنم يقتضيه أن الجمال في النصوص متحول متغير مع تحول المجتمعات وتغيرها. ثم إن الذي لم يأخذ حظه بعد من البحث، وفي هذه القضية أيضا، إنما هو اندراج جمال النصوص الأدبية في نظرية عامة للجمال تتحول من زمن إلى زمن ومن مجتمع إلى مجتمع، ومن هنا يتبين على مؤرخ الآداب أن يتصرف على الكيفية التي تفهم بها المجتمعات الأشياء الجميلة أو على الأنماط التي تتعامل بها معها، حتى يتسلسل له، في الآن نفسه التعرف على المقاييس الخاطئة التي تصطف في بها النصوص، وعلى أجمال النصوص الأدبية نفسها، إلا من حيث هو جمال في المطلق، وإنما على أنه متصل بالنظرية التي تتملى بها المجتمعات الأشياء الجميلة.

* السلام القسري : ليس النظام التربوي ببعيد عن نشوء الظاهرة الأدبية أو استمرارها في المجتمعات، كما قد يبدو أول وهلة. فالمدارسية، في أي شكل كانت، هي المكان الأوفق الذي يتعامل فيه الناس مع الأدب. ففيها يتسلمون قراءة النصوص أو كتابتها، وفيها يتكوّن الكتاب والفكر، لذلك فهي تعد من أقوى العوامل أثرا في تكوّن الأدب وواصله، ومن أشدها تأثيرا في المفايسر التي يفدر بها أو في العلاقات التي يحددها الناس به.

وقد فطن مؤرخو الآداب القدامى، في ما يبدو، إلى هذا الدور الذي كان يظلمع به النظام التربوي في نشأة الآداب أو رقيها أو تدهورها، فأفردوا في تراجيم الإعياء الذين عرّفوا بهم مكانا تحدرثا فيه عن المشايخ الذين هم من أمثالهم أو من أنوع المعارف التي لعبوها، و حاولوا بذلك أن يوصلوا بين ثقافات الأديان وبين إنتاجهم. وتعرضوا إلى ذلك، أحيانا، في المقدمات التي كانوا يهـدون بها لمصور الأدب، عندما وقفوا على المدارس فيها كثرتها وعلوها.

ولكن علمهم هذا لم يكن ليتجاوز النظرة الجزئية ففي التعرف على حياة الاعلام أو طبائع العصر أو السير فهم شامل يتساءل فيه المؤرخ عن الدارسين ونسبتهم من المجتمع ولا عن طرقي البراساسة أو مناهجها أو مبادئها، وعما كانت توصل اليه من مناصب أو تقدمه للمجتمع من خدمات. فمؤرخ الآداب في حاجة الى معرفة النظام التربوي، وهو مؤرخ للأدب، لأن هذه المعرفة تمكنه من إدراك المكانة التي كانت للأدب في الحياة الاجتماعية، ومن لتفسير من أسرار انطلاق الأدب في طريق الرقي أو رجوعه الفهقري.

وبما أن النظام التربوي نفسه، في تحول دائم من عصر الى عصر ومن مجتمع الى مجتمع فإنه يتعين على مؤرخ الآداب أن يصل بين التحول في الأدب، وبين التحول في النظام التربوي، فذلك الوصول يوفر فهما شاملا لجانب لا يستهان به من جوانب الحركة التاريخية التي التحول الأدب، وتحول معه.

* فأكبر الأدب بالمجتمع وقائمه فيه : من القضايا المتصلة، شديد الاتصال، بالبحث في الظاهرة الأدبية من حيث تكونها واستمرارها، قضية تأثير الأدب في الحياة الاجتماعية أو تأثره بها. ويبدو أن البحث في هذه القضية من أعسر ما يتناول مؤرخ الآداب من مسائل، فهي شاقة على الذهن، والدليل على ذلك أن الذين وقفوا عليها من الدارسين لم يذهبوا فيها الى أبعد من الجيزم بأن الأدب يؤثر في المجتمع ويتأثر به، وهي قدر فهمت على غير وجهها فازدادت بذلك تعقيدا.

لقد كان الباحثون يعتقدون أن الأدب يؤثر في المجتمع بحكم التعاقب التسمي، فهم ينشرون الأفكار والآراء وهو بصور خيالاتها التي يذهبون فيها فيمثلها، وأما تأثره به لم يأتوا به من نظريتهم، عن مفهوم الانعكاس، إذ الأدب يصور

حياته النحاس فيكون وقفاً لها في الرعي والانحطاط، ثم هو ينشئه، أشخاص اجتماعيون هم الأدباء، فيتأثر بهم وبالأوساط التي ظهروا فيها، وبعد فهم الباحثون القدامى هذا التأثير لو ذلك التأثير على أنه نتيجة من نتائج تلك العلاقات الخارجية التي يتسمدها النظامان المستقلان الأدبي والاجتماعي. لذلك انصببت عنايتهم، في تناول هذه القضية، على طبيعته الصورة التي يقدمها الأدب للمجتمع.

أما الباحثون المعاصرون فقد تخلوا عن الفحول باستغلال النظامين الأدبي والاجتماعي كل بكيانه، ولم يطرحوا قضية تأثير أحدهما بالآخر وتأثيره فيه في نطاق العلاقات الخارجية، بل ذهبوا، كما رأينا سابقاً، إلى القول بالتداخل بين الأدب والاجتماع وطرحوا قضية التأثير المتبادل بينهما طرحة أخرى قائما على ثلاث دعائم أساسية.

فالأدب يؤثر في المجتمع في نظرهم كما في نظر القدامى، بما يحمله من أفكار وينشره من آراء. وهذه الناحية، يعمل عمل الآثار الفكرية كلها في تمكين الإنسان من وعي واقعه والسيطرة عليه، إذ لا فرق كبير في ذلك بين نص أدبي ونص علمي أو بين قصيدة شعرية وخطبة سياسية أو اجتماعية.

والأدب يؤثر في المجتمع، عند الباحثين المعاصرين، بما يدخله على اللغة التي يظهمر فيها من تحويل. فالأدباء لا يستخدمون اللغة التي يكتبون بها آثارهم فحسب، وإنما يحدثون فيها إحداثاً إبداعياً عند ما يضيفون إلى المستقر من ألفاظها ألفاظاً والتي الحاصل من صيغها صيغاً، وإحداثاً استعمالاً عند ما تتواتر على أعلامهم ألفاظ من ألفاظها، وصيغ من صيغها. وهذا الإحداث على هذين المستويين هو الذي جعل دارسين كثيرين يذهبون إلى أن لكل عصر من العصور التاريخية كلاماً يختص به.

ولعل طه حسين فيه فطن إلى شيء من هذا عندما
قال متحدثا عن النابغة وزهير: "الظاهر أن اللغة السحر
الضرى كانت في النصف الثاني من القرن السادس للحسين
تتطور تطورا سريعا، وتتغير بعض التحصر، وتتجلى من الضرب
والقيود البدوية إلى حد ما. والظاهر أيضا أن النابغة
وزهير كانا من الذين أعانوا هذا التطور وأسرعوا به
إلى غايته" (39). فمما لا ريب، حسب طه حسين
مؤثر في اللغة تطور لها، على أن هذا الوجه
من الأدب، ليس وحده هو الذي يؤثر في اللغة، فاصطفا
النصوص وتوجيهها أدبا، ينعت بالفصاحة والبلاغة والبيان،
لا يخلو هو الآخر من تأثير في اللغة أيضا. ذلك
أن النص الذي يمد من الأدب يتحول إلى مقال يقتري
بِهِ الكتاب، ويجب به القراء. وبما أن النصوص الأدبية،
عند التأمل، ألفاظ مختارة وصيغ منتقاة، فإن توجيهها أدبا
هو، في الآن نفسه، توجيه لالفاظ معينة من رصيد اللغة
اللفظي، ولصيغ معينة أيضا من صيغها. ولما كانت اللغة
تعمل ففما للمال، وتصيرا له وعلاقة به، فإن اختيار نص
من النصوص وتوجيه أدبا هو، في حد ذاته، اختيار
لنوع معين من العلاقات بالمال، ورفيع بالناس إلى
تغييره واتخاذهم لسلوك، وعلى هذا النمط يؤثر الأدب،
من حيث هو كائن من لغة، في حياة الناس الاجتماعية،
إذ هو يكيف، إلى حد ما، موقفهم من الواقع.

على أن تأثير الأدب في المجتمع يبدو من هذه الناحية،
تأثيرا للمجتمع في الأدب. فالمجتمع هو الذي يحدث الألفاظ
والصيغ في اللغة التي يرثها أو يدفع بالأدباء إلى إحداها،
وهو أيضا الذي يستعمل من اللغة ألفاظا معينة أو صيغا معلومة
أو يقتضيها هذه الأدباء. والمجتمع، أخيرا، أو قطاع منه، هو

الذي اختار النصوص التي اختار فاختار منها صيغها
والفاظها عديدا مثلما أعلل للفصاحة أو كثر في بعضها
موقع الناس من الواقع بمض التكييف، وفي الحفظة فها هنا
اعدافة جدلية كل فيها مؤثر ومثأثر، وكل فيها مؤثر
ومثأثر بالآخر وبأثره نيه.

وإذا كان هذا فلان مؤوج الآداب في حاجة إلى أن
ينظر من خلال النصوص الأدبية في الصريح والألفاظ
وفي طرق الاداء والتعبير في فاعل ما يحدث لها من
تغيير أو تطويع، وأن يبحث بين ورائها عن نوعية العلانية
التي تزيي للناس اتخاذها من الواقع، ذلك أن في تواريل
الآداب أمثلة عديدة تدل على أن التعامل مع اللغوية
في الانشاء الأدبي يتحول من عصر إلى عصر ومن
مجتمع إلى مجتمع، فالناظر في الأدب العربي يلاحظ، لا محالة،
أن السجع مثلا كان نادرا في ما نعرف من آداب الجاهلية
وآداب العصر الاسلامي الأولي، وأنه انتشر في القرون
الرابعة وفي القرون التي تليها انتشارا كاد يستبد معه
بكل الكتابات مهما كان نوعها (40). بل إن الناظر

في الشعر العربي يلاحظ أيضا أن لغته كانت في
العصر الأموي على شيء من الصعوبة ألفاظا وتراكيبا،
وأنها تبسطت حتى كاد يفهما الخاص والعام في العصور
الثاني، ثم عادت إلى الصعوبة بعد ذلك وصارت إلى العسر
في ما لحق من عصور. وليس من شك في أن وراء هذا

(40) - فين زيدان إلى ذلك شلما فطن إليه غيره من دارسي الأدب ومؤرخيه،
فنان معلقا على نص الرسالة التي بعث بها ابن سيابة إلى أحد البراءة
وفد كان "توهي فيها الشجعان خلا من الإطراء" : "وهي أشبه بما صار إليه
الانبياء في أواسط الدولة العباسية. ولولا ثقتنا في راويها وهو
الجاحظ مع عرب عهد من ذلك العصر لشككنا في صحتها ..."

التحول في الصيغ والتراكيب والألفاظ موقفاً من الواقع
أسسه الأدباء وحدث اختيار النصوص بعضاً من معالمه .
وليس من شك أيضاً في أننا لا نعد نتائج قد تكون
باهية القيمة في فهم الأدب العربي إن نحن التمسنا الليل
والأسباب التي أحدثت تلك التغيرات ووقفنا على المواضع
الحقيقية التي دفنت إليها .

والأدب يؤثر في المجتمع ، يغير الباطن المعاصر ،
أما في نصوصه من جمال . فالنصوص الأدبية ، كما
رأينا ، لا تختار لأنها تستعمل اللغة استعمالاً سليماً من
الأخطاء ، أو لأنها تنطوي بالموافق والحق والحكمة ، وإنما
تختار ، في الغالب ، وتمد أدباء لأنها اعتبرت في
يوم ما ، وضمن مجتمع ما ، على حظ من الجمال (41) .
وعند أدرك الدارسون القداء هذا الجانب الجمالي في
الأدب ، ولكنهم ذهبوا به إلى الاطراد ، ووردوا إلى التعصب
ووصلوه بالذوق . ولعلهم ، إذ فعلوا ذلك ، قد أهملوا بعض الأهم
جانباً مهماً من المسألة عند ما غاب عنهم أن الأدب يؤثر
في المجتمع تأثير الأشياء الجميلة فيه . فالنص يختار أدباء
أو لا يختار بموجب حاجة جمالية ينتظرها الناس منه سداً .

لذلك فإن جمال الأدب قد لا يفهم على وجهه ما لم يدرج في
النظام الجمالي الذي كان قائماً في العصر الذي ظهرت
فيه نصوصه . فنظرة الناس إلى الجمال هي التي كبرت ،
إلى حد ما ، بتدريج جمال النصوص الأدبية وأثرت في
نوعية الاحساس به . لهذا يتعين على مؤرخ الآداب أن ينظر
على نظرة الناس إلى الأشياء الجميلة في المجتمعات التي يؤرخ
لآدابها ، فذلك يمكنه من لمس جملة من الأسباب التي تعدد

(41) - جرد القارئ في كتاب فرانس فرنيي : الكتابة والنصوص وثقافة لا تخلو
من وضوح على هذه الفكرة . انظر الصفحات 79 و 80 .

بها النصوص جميلة وتدرج في الأدب، وبما أن الأدب، من حيث هو كائن جميل يؤثر في تلك النظرة نفسها مثلما يتأثر بها، إذ النصوص التي تختار على أنها جميلة إنما تروح هي الأخرى لنوع معين من الجمال وتمثل على تأسيسه أو ترسيخه، فإن التعرف على القاييس التي يدر بها جمالها تمكن من لمس أثر الأدب في النظام الجمالي وفي الحياة الاجتماعية. فهذا هنا أيضا تبدد والعلاقة جدلية بين الحياة الاجتماعية ونظامها الجمالي، وبين النصوص التي تعد أدبا فيها ومن قبلها. ولما كانت نظرة الناس إلى الجمال في تعبير راتب من عصر إلى عصر، ومن نظام اجتماعي إلى آخر، فإن مؤرخ الآداب في حاجة، حتى يعطوهم بعلمه على الوجه الأحسن، أن يصف على التحولات الكبرى التي تقع في مواقف المجتمعات من الأشياء الجميلة، لأنه متى لم يفعل ذلك، لم يدرك عاملا مهما من عوامل الحركة في الأدب، إذ كثرة هي النصوص التي كانت تعد أدبا راقيا ثم سقطت في ما يشبه الإهمال بموجب التحول الذي يحدث في اعتبار الأشياء الجميلة. ولنظرة على كتب التراجم والمختارات في التعرف على منات الأسماء لأدباء كانوا على ما يشهد به معاصروهم، دائري الصيت منتفري الذكر، لم يحج الناس بنصروهم، ولم يعد لهم بعد عصرهم ذكر في كتب الأدب. ولعل ذلك يرجح، مما بين ما يرجع إليه، أن النص الأدبي جميل أو ليس بجميل في نظر الناس الذين اختاروه وتعاملوا معه. وإذا كانت بعض النصوص الأدبية تذكر في عصرهم وفي عصر عصورها، فإن ذلك يرجع، على ما نرجح، إلى تواصل الأدباء التي عند من أجلها، إما جميلة، أو القبيحة، التي تتعلق بمرس الانسيان في الماضي ويعوده على التقاعل مع ما بقي منه تراثا.

* السؤال الثاني : بمعد تعامل الناس مع النصوص الأدبية من أخطر العناوين أجلها مسي تناول الظاهرة الأدبية بالتأريخ. ثلاث الوظيفة التي يظن بها الأدب في حياة الناس هي السؤال

الأم التي تتفرع عنها إجل المسائل، أو النفايا، ونزول إليها.
فالأرب، كما رأينا مرارا وفي مواضع شتى من هذا العمل،
لا تختار نصرة ربه وتمطع من بين بين أخرى لتحل في
منزلة مرموقة، أحيانا، من حياة المجتمعات فحسب، وانما
تستعمل ضررها من الاستعمال، ويتماثل معها الوانها من
التعامل.

فالنصوص الأدبية تستعمل في عصرها وتستعمل في
غير عصرها من العصور. ومن الأشكلة الدالة على ذلك
أن الأثر الأدبي الواحد يقرأ بأراء متعددة في العصر الواحد،
وأراء كثيرة، أحيانا، في العصور العديدة. وهذه الأراء، في
تعددتها وفي اختلاف بعضها عن بعض، تنم عن التأمّل،
أوحيا من وجوه تعامل الناس مع النصوص الأدبية، ومظهرها
من مظاهرها استعمالها (42). وهي تحتوي على الأسباب
والمعايير التي يعد بها النص الواحد أدبيا في عصره
ومجتمعه، وفي غير عصره وغير مجتمعه من العصور والمجتمعات،
وهي تضم تلك الحاجة التي دفعت الناس يوما بس استنباط
الأدب وظلت تحملهم على الحفاظ عليه. لذلك فإنه باسكان المؤج
أن يدرك موافق المجتمعات من النصوص الأدبية اعتمادا على ما
يظهر لبعضها من عديد القراءات. فهل الذين يدرسون
النص الأدبي الواحد في عصره يرون فيه ما يراه غيرهم من الذين
يدرسونه بعد عصره؟ وهل هو يعد عندهم جميعا أدبيا
بموجب أفهم واحد ومعايير في تقييم الجبال ولحده؟

(42) - إذا اعتبرنا القرآن مثلا أثرا أدبيا مع من يعتبره كذلك من البلاغيين
النداء والدارسين العرب المحدثين، كان لنا في القراءات المتعددة والابتعاد
التي وضعت له في العديدين والحدود بين أحدهم
الأمثلة اليليمية في إقامته الهرها على
هذه الفكرة.

أم يرى فيه أهل عصره أشياء ويرى فيه أهل غير عصره
أشياء، ويعبر أدبيا في عصره بموجب مفاهيم وني غيـر
عصره بموجب مفاهيم أخرى؟ إن الوقوف على الفراغات العديدة
التي تظهر للنص الأدبي الواحد في عصره وفي غير عصره
يمكن المؤرخ من أدراك العوامل التي يتزوج بها النص أدبيا،
ومن التعرف على ما يدخل على تلك العوامل نفسها من
تحول. فمن البديهي أننا اليوم لا نقفهم "خلافا" الجاحظ
مثلا كان القدماء يفهمونه، ومن البديهي أيضا أننا
لا نتعامل مع أشعار المعشري أو أبي العتاهية التعامل نفسه
الذي كان للقدماء معها. وليست الفراءات التي تظهر
لنصوص الأديبة وحدها هي التي تمكن مؤرخ الآداب من
الوقوف على جانب مهم من جوانب حاجة الناس الى الظاهرة
الأدبية، وعلى ما يدخلها من تحول في التاريخ، فإن
الملاءمة بين العرائك التي تظهر لنصوص العصور
السابقة في العصور اللاحقة، وبين ما يبرز فيها من نصوص
حديثة، تمكن هي الأخرى مؤرخ الآداب من التعرف على
أثار الآداب السابقة في الآداب اللاحقة، إن النصوص يتأثر
بعضها ببعض مثلما هو سائغ عند الناس.

ومما تفتح عليه هذه القضية، قضية ما يقع للنصوص
الأدبية نفسها من استقطاب وإحراق في التاريخ، إذ استعمال
الأدب والتعامل معه هو الذي يحدث في ما استقرار من
نصوصه مثل هذه الحركات، ولنا في حاجة، على ما نعتقد
التي إنعامه البرهان على أن النصوص التي تعد ذات يوم
أدبيا لا تظل كذلك أبدا الدهر، وأن النصوص الأخرى التي لا يعر
بها أهل عصرها بالصفة الأدبية لا تبقى كلها تنسي الإهمال،
فالتاريخ عاقل بنصوصه عدت في أزمانها وحنانها
أدبيا رفيعا رافيا، ثم صارت النصوص النسي أو النسي
الاهمال هو بنصوص أخرى لم تعتبر أدبيا رافيا أو لم تعد
من الأدب تماما ثم نفقت عنها غبار الإهمال والنسيان وصارت

أدباً رافياً أو أدباً ففسطاً، ولعل في آثار ابن الجرجاني
أو أبي تمام أو كساجم أو الماحب بن عباد، ومن الأدب العربي،
بعض الأمثلة على الظاهرة الأولى، وفي آثار الحلاج والنقري
والتوحيدي بعض أمثلة أخرى على الظاهرة الثانية. وعلمية
الإسقاط واللاحاق هذه تدل، ولو علمنا، على أن حاجة المجتمعات
الى الآداب ليست واحدة في كل العصور والأزمان، وإنما
هي في تحول دائم حسب ما يتحول في الحياة الاجتماعية
من أوضاع الاقتصاد أو التعليم أو السياسة. وبما أن
هذه الحركة قائمة في تاريخ الآداب، وإن لم تحدث بعض
بما تستحقه من درس، فإن مؤرخ الآداب ملزم بتتبعها من خلال
النصوص التي تسود زمنياً ثم تسقط في ما ينبغي
التناسي والاهمال، ومن خلال النصوص الأخرى التي تظل
في شبه الأهمال والتناسي زمنياً ثم تظهر وتعود، فالمسألة،
في نظرنا على الأقل، ليست مسألة نوع يتطور وحسب، وإنما
هي أيضاً مسألة حاجة اجتماعية تؤسس الذوق وتضع له
مقاييس التقييم، ومسألة قوى اجتماعية تعمل على توجيهه
نحو ما ترغب فيه أو تضع عليه اليد وتستخذه في ما تحب.
وما تفتح عليه هذه القوى أيضاً، فغير
ذلك الصراع الذي تخوضه النصوص الأدبية بعضها ضد بعض
من أجل انتزاع المنزلة والمكانة أو من أجل الحفاظ
عليها، ويبدو أن هذا الصراع إنما تخوضه خاصة تلك النصوص
التي تبدو متضاربة مع الحاكم السلطاني أو الدينية
القائمة. فليس من شك في أن النصوص الأدبية التي
ألفها أدباء السعديين أو الخوارج لم تندرج في التراث الأدبي
العربي بالسهولة نفسها التي اندرجت بها فيه النصوص
التي أنتجها أدباء والو الأمويين أو العباسيين. وليس من
شك أيضاً في أن معظم النصوص التي ألفها أدباء تحللوا
من تعاليم الفرع الاسلامي أو قادروا على لمجرد مكانتها
في التراث. فالناظر في الأدب العربي يغف عن أسماء كثيره

لأرباباً ومفكرين ملاحدة لا يجبر من آثارهم شيئاً. من ذلك مثلاً أن المعري ذكر في القسم الثاني من رسالة العفران أدباء لم يكونوا على ما يظهر من كلامه على وفاء مع الدين، ولم يبق من آثارهم شيء. ومن ذلك أيضاً أن كتب التاريخ والأدب تذكر شعراء عديدين اهتموا بالزندقة على عهد الخليفة العباسي المهدي، ولم يبق لكثير من أعمالهم كبير ذكر. على أن هذا الصراع لم يكن مملوفاً من النصوص الأدبية التي كانت تبدو متفارسة الصالح السلط السائدة فحسب، إذ تحوفاً أيضاً نصوص كثيرة أخرى في ما يعبر عنه الدارسون بالمعركة بين القديم والحديث. فالنصوص الأدبية الجديدة، أو التي تعد كذلك، تظهر عادة في أوساط ثقافية تشعبت بالقديم وتفاعلت معه، فيخطرها ذلك إلى أن تخوض صراعاً تنتهي إليه مكائنها على حساب القديم أو إلى جانيه. وفي الأدب العربي أمثلة من هذا الصراع لا تخلو من طرافة. فهذا أبو عمرو بن العلاء يقول في الأدب الحديث: رغم انتصاره للقديم منه: "لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايتة" (43). وهذا ابن بسام يدافع عن الأدب الأندلسي فينتصر للحديث ويقول: "والاحسان غير محصور، وليس الفضل على زمن بقصور" (44). ولحقى الله قولهم: الفصل للمقدم. فكم دفن من احسان واخمل من فلان. ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين لصاع علم كبير وذهب أدب غزير" (44). واذن فالصراع قائم بين نصرص فرضت نفسها بعد وسبطت على الأنواق وأثرت في المقاييس

(43) - ابن قتيبة: الشعر والعبراء. تحقيق أحمد محمد شاكر. دار

المعارف القاهرة 1967. ص 4.

(44) - ابن قتيبة: البيان. تحقيق محمد باقر محمد باقر. تحقيق

عبد الوهاب عزام. مجلة التأليف والنشر. القاهرة 1945 ج I ص 3.

التي تقاس بها جودة الآثار الأدبية في الطرو التي
يتعامل بها الناس معها ، وبيلن نصيوص أخرى تسمى الس
ذلك كله . وبما أن هذا الصراع يتضمن وجهها من وجوه
الحركة في الأدب ، فان مؤرخ الآداب في حاجة إلى أن يقف
عليه . ولينا في حاجة إلى أن ننبه إلى أن الوقت
على المسارك الأدبية بين القدماء والمحدثين إنما يفهم
على أنه صراع حاجات جديدة إلى أدب جديد تفتضي
منه وظيفة لعل النصوص القديمة لم تستد تغدر على
القيام بها . وبالتالي فإنه من اللازم على مؤرخ الآداب أن ينزله
في مكانه من الحركة التاريخية الشاملة التي تدفع
بالمجتمعات إلى الرقي أو التمهقر .

تلك هي بعض القضايا التي يبدو مؤرخ الآداب في
حاجة إلى تناولها إذا هو فهم الأدب ذلك المفهوم الذي
يخرج به عن الافتصار على النصوص الأدبية وأصحابها ،
التي الظاهرة الأدبية في تعدد أشكالها وتنوع مظاهرها ،
أو فهم التأريخ له على أنه بحث لا يفغ عن نشأة النصوص
ونشأة أعلامها وإنما يتجاوزها إلى وظيفة الأدب نفسها في
التاريخ .

على أن الاهتمام بهذه القضايا لا يغني لا عن
العناية بالنصوص الأدبية ذاتها ولا عن الوصف على الأدباء
أنفسهم ، ذلك أن مؤرخ الآداب يحتاج إليها أيضا احتياجا في
وضع تاريخه .

ب - النصوص الأدبية : يبدو أن الفهم المتعارف السائد
يحصر مفهوم الأدب في النصوص الأدبية ويرى التأريخ لها
تأريحا يعنى بنشأتها وبعلاقات بعضها ببعض وبالاحتص
الذي تظهر فيه ، لا يعدم استنيدات نظرية لا نحلون صواب .
فالنصوص الأدبية هي المظهر البادي الخالد للآداب في حين
أن الأدباء والقراء يصيهم الاضحيان بالانغراض . لهذا كانت

لها مكانتها البارزة في تاريخ الآداب عند المؤرخين العدامي
والمصريين على حد سواء (45). إلا أن البحث فيها صار
يقوم على العناية بترديد بعضها من بعض ضمن الحياة الاجتماعية،
و قد كان من قبل يقوم على محاولة ترقيمها نصا اثر نص على
خط الزمن، و قد كان لهذا المفهوم أيضا ضلعه في تحديد
القضايا التي يبدو مؤرخ الآداب في حاجة إلى الوقوف
عليها وهو يقوم بعمله.

ولعل أول ما يفعله مؤرخ الآداب وهو يعنى
بالنصوص الأدبية فضيحة غلتها أو كثرتها في العصور التي
تظهر فيها. فهو في حاجة إلى إحصاء كل النصوص
الأدبية التي تظهر في العصر الواحد، وفي كل العصور.
ذلك أن الوقوف على النصوص الأدبية كلها التي تظهر في
العصر الواحد يعرف بالانتاج الأدبي من حيث الكم
ويمكن من إدراك جانب من جوانب منزلته التي يحتلها
في حياة المجتمعات. أما الوقوف عليها في كل العصور
فيمكن من التعرف على ما يتجلى على إنتاج الأدب من تحولات
في الكم من عصر إلى آخر، وبالتالي فهو يسمح
بإدراك تلك الحركة التي تتمثل في الأعمال من القلة إلى
الكثرة أو من الكثرة إلى الغلبة في إنتاج النصوص عبر العصور.
ففي التاريخ مجتمعات تتسم بالاكثار من إنتاج الأدب ومجتمعات

(45) - وف ألفريد ميسي في فصله: "ثقافة علم احتياج الأدب" على جوانب
مفهية جدا من نظرة الباحثين المعاصرين إلى كل من الأدباء والنصوص
الأدبية أو الجمهور. انظر ذلك في: "مقال في علم الاجتماع". وهو مؤلف
جماعي اشرف على اعداده فورفيتس. نشر الجامعات الفرنسية. بباريس
1963. ص 299 وما يليها.

Albert Roux : Problèmes de la sociologie de la littérature. in. Traité de
sociologie (Sous la direction de G. Gurvitch). P. U. F. Paris 1963 p.299 etc.

أحرى تتسم بالافلال من ذلك . ولهذا الحركة تيسرها
 في التعرف على مسار الأدب المسار التاريخي . على أن هذا
 البحث قد يكمل بالنظر في النصوص التي ، لسبب أو لآخر ،
 لا تظهر في عصورها ثم تظهر في ، يأتي بعد ذلك
 من عصور ، ان الآثار الأدبية التي لا تظهر في عصورها
 تدل على انتصاب رقابة على الأدب أو على تقصير في
 التشجيع ينفذ بالآداب التي عدم اظهر أعظم الهمم ، أو على
 غير ذلك من الظواهر التي تبدوا مفيدة في التعليق
 على ظروف انتاج النصوص وظروف نشرها .

و مما يبرز مؤرخ الآداب في حاجة إلى الوقوف عليه
 في هذا الموضع بالذات ، المعارنة بين ما يظهر للنصوص
 الواحد من طبعات أو نسخ في عصر ، وفي غير عصره
 من العصور ، حتى يرى أن داخلها تحريف أو تصحيف أو تحوير
 و يتبين دواعي ذلك وأسبابه . فبعض النصوص القديمة
 تظهر في طبعات على صورته وتظهر في طبعات أخرى
 على صورة ثانية ، وقد يكون بين الصورتين من البعد
 أو الاختلاف ما يصعب حمله على التصحيف والتحريف (46) .
 وبعض النصوص الحديثة تظهر في أول الأمر على صيغة
 وتظهر بعد ذلك على صيغ أخرى ، وقد يكون الاختلاف
 بين الصيغ من صنع مؤلفيها أنفسهم ، وقد يكون

(46) - لا يعدم الناظر في الأدب العربي آثارا نشرت من مؤلف أو محرر .
 وليس يخفى أن ذلك لا يخلو من دلالة على موقف ناصريها أو محديها
 من الأدب ، وعلى نوعية تعاملهم معه . والفارسي يعلم لا محالة
 أن الشيخ محمد عبده ، مثلاً ، حذف من مقامات بدیع الزمان
 الهمذانسي العامة الشامية كلها وحملها على يد من
 مقامات أخرى . انظر بدیع الزمان الهمذانسي :
 "المقامات" تحقيق محمد عبده . نشر دار المشوري ، بيروت

أيضا من عمل الناصريين أو المحققين . وبناء على ذلك عسان
المعاربة بين الصيغ المختلفة التي تظهر الأثر الواحد
تدل على الموفق الذي يتحدد ، الناس من النصوص الأدبية ، وعلى نوعية
الوظيفة التي يسطرون فيها القيام بها . ثم هي تدل
على بعض التحولات التي يمر بها النص الأدبي حتى يبرز
في صيغة نهائية . وليس يخفى على أحد أن لكثير
من النصوص الأدبية مصمما في النهاية كما أن لكثير منها
نصمما في التحول .

أما القضية الثانية التي يبدو مؤرخ الآداب في حاجة
إلى أن يغف عليها ، وهو يتناول النصوص الأدبية بالنظر ،
فهو في قضية الأنواع والأسكال والأغراض . فإذا تم له
الوقوف على كل النصوص الأدبية التي تظهر في العصر
الواحد أو في العصور الكثيرة ، طرح عليه مسألة تصنيفها
في أنواعها وأشكالها وأغراضها . وعند هذا يمكن
للتصنيف أن يكون ظاهرا فائدا في مادة تاريخ الأدب ، فهو
بالنسبة للعصر الواحد ، يجلي منازل الأنواع والأسكال والأغراض
بعضها من بعض في نظر المجتمعات التي أفرزتها
أو تعاقبت معها . فيمكن مؤرخ الآداب من التعرف على أيها
أصيل من عيونه في عرف الناس ، وأيها أميد عندهم ،
على القيام بالوظيفة الأدبية التي يرجونها منه . وهو بالنسبة
للعصور الكثيرة ، يظهر التحول الذي يقع لمكانات الأنواع
والأسكال والأغراض بعضها من بعض في نظر مجتمعاتها ،
ويكشف بذلك عن التعيير الذي يطرأ على كل منها في
القيم والكثرة ، وفي التواصل والانقطاع . ومن الأمثلة الدالة
على التحول في منازل الأنواع الأدبية وأشكالها وأغراضها
أن السعير كان طليعة الجاهلية والعرون الإسلامية الأولى هو
السيطر على أدهان الأدباء والقراء ، وهو عندهم
أفضل الأنواع الأدبية وأرقها ألوان النثر بدأ بظهور شيئا
فشيئا نوعا قائما بحد ذاته ، حتى اضطره بدني

الزمان الهذاني لأدب في مقامه الجاحظية، وحتى اشتغل
مفكرون عديدون في القرنين الثالث والرابع وفي ما بعدهما
بالمفاضلة بين المنظوم والنثر من الكلام.

وأما القضية الثالثة، في هذا البحث، فهي
قضية النصوص التي تشتمل أكثر من غيرها في عصورها
وفي غير عصورها من الزمان. فسؤرخ الآداب في حاجتها،
على ما يبدو، أن يعالج الأسئلة التالية: أي الآثار الأدبية،
تعتبرها مدتمعاتها روائع، وهل في ذلك من سر؟ وهل
بين الآثار التي تعد في عصورها روائع أدبية،
وبين المجتمعات التي تعدها كذلك من علاقات؟ وأي العلاقات
هي؟ وما هو نوع تلك الروائع، ما شكلها وما غرضها؟
وما هي طبيعة تلك المجتمعات، ما نظمها الاقتصادي والسياسي
والاجتماعي؟ وأي الروائع تعكس بعد عصورها في الأهمال؟
وأيهما يظل يعد عصره يعد من الروائع؟ وما هو نوع
المجتمعات التي تتهاوت فيها روائع مجتمعات سابقة،
وما هو نوع المجتمعات التي تظل روائع مجتمعات
أخرى تعد فيها روائع؟ وهل الآثار الأدبية يعد أنرا
رائعاً في عصره وفي غير عصره بموجب خصائص مركبة
فيه أم بموجب ثقافة لغتها الخلف؟ إلى ما قائم، الأسئلة
في هذه القضية كثيرة يدعونا فيها السؤال، السؤال، وان
البحث في كل سؤال منها شديداً العسير كبير المشقة.
ولكن الفائدة التي يمكن أن يجنيها مؤرخ الآداب من معالجة
معالجة معمقة تبين ومما لا غناء فيه في التعرف على الآداب
وعلى توارخها.

أما القضية الرابعة التي يبدو وسؤرخ الآداب في حاجة إلى أن
يعف عليها، وهو يتناول النصوص الأدبية بالنظر التاريخي، فهي
قضية تأشير الآثار الأدبية بعضها في بعض، إن النصوص
الأدبية المتعاشية في العصور التاريخية سلماً أو المتواجدة فيها
غالباً، لا يعد أحد في الأخر آثاراً. ويبدو أن البحث

في هذه العصية فرد بدأ يأخذ حظا ظاهرا من عناية النقاد والمؤرخين سواء في نطاق "الأدب المناظر" أو في نطاق تلك الأبحاث التي قامت على استقراء آثار النصوص المشهورة في ما عاصرها أو جاء بعدها من نصوص أو ما نظنه يخفي على أحد أن تأثير النصوص الأدبية بعضها في بعض مما يكون جانبيا ومن جوانب جرعة الأربالا استغناء عنه في فهم تاريخه.

ج ١ - ~~العلماء~~ : إذا كان مؤرخو الآداب القدماء قد أولوا الأدباء عناية كبيرة فافهم أحيانا عنايتهم بالنصوص الأدبية نفسها حتى كادت آثار البعض منهم في هذه المادة ، تتحول إلى مؤلفات في التاريخ الرجال ، فلن المؤرخين المعاصرين يجعلون الأدباء من المواضيع الأساسية التي يتناولونها بالبحث في وضع تواريخ الآداب . ويبدو أن الأدباء قد أصبحوا موضوعا بارزا من مواضيع التاريخ للأدب بحكم ملتهم بالنصوص الأدبية التي ينتجونها . "فوزان الأثر" يكمن من الإنسان كما هو معلوم . وإذا كان المؤرخون القدماء قد رجعوا ، في عنايتهم بالأدباء ، على المنهج بين الدورات التاريخية والذوات الأدبية فيها ، فعند الأثر الأدبي يذهبون عن صاحبه أخبارا حريفا في بعض الأحيان ، فلن المؤرخين المعاصرين يرون لعلاج هذه المسألة وحدها عديدا يتناولونها وجهها وجهها تفاديا للخلط بين الأدب والأدبية وتوضيحا لطبيعتها العرفية بينهما .

ولعل أول ما يتناوله مؤرخ الآداب بالنظر ، في نطاق عنايته بالأعلام الديين أنتجوا النصوص ، مسأله المعرد الذي كانرا عليه في تصور التاريخ عصره (٤٧) . فالوقوف على

(٤٧) - حاول زيدان ، كما رأينا ، أن يحصي شعراء القبائل في الجاهلية ولكن المعطيات لم تكن من التهذيب إلى الحد الذي يسمح له باستخراج النتائج المفيدة منها . أنظر : تاريخ . . . ج I ص 241 .

عند الرجال الذين أنتجوا نصوصاً أدبية في عصر من
العصور يمكن المؤرخ من التعرف على المكانة التي يحظى بها
الأدب نفسه في المجتمع، بكمرة المشتغلين بالتأليف أو قلة
في المجتمع نفسه من توعية تلك الظاهرة التي يعدها الناس
العمل الأدبي، ثم إن التحول في تلك الكثرة أو هذه القلة
هو نفسه يبدو عظيم الفائدة في التعرف على حركة الأدب
الحركة التاريخية، وليس من شك في أن جنوح المؤرخين القدماء
على الافتصاص على أعلام مشهورين من كل عصر لا يفي
بالحاجة منه في تفهم الظاهرة الأدبية في عصر التاريخ.
إن أن ذلك يقدم للعاري صورة جزئية تظهر حركة الأدب التاريخية
حركة عادية رتيبة تقوم على الإضافة والتواصل فحسب،
مادام لكل عصر أعلام مشهورون يضمون آثاراً أدبية، ولا يخفى
أن هذه الصورة تهمل تلك الحركة التاريخية التي يمثلها مرور
المشتغلين بإنتاج الأدب من الكثرة إلى القلة أو من القلة إلى الكثرة
عبر العصور، فإسناد على منجزاتهم، ثم إن الافتصاص على الأعلام
المشهورين يهمل تلك الحركة الجدلية التي تقوم على الصراع
بين الاتجاهات الأدبية المتبادلة من عصرها ومجتمعها وما للمهم
يسدد. لهذا يبدو الآن أن مؤرخ الآداب لا يفدر على القيام
بعمل على الوجه الأكمل ما لم يهتم بالأعلام الذين أنتجوا
أدباً جميعهم، لأنه متى لم يفعل ذلك لم يحصل على
معرفة تامة بأولئك الرجال الذين ألفوا في الأدب وناغوا
نصوصه، ولم يفهم جانباً من جوانب تلك العوامل التي تجعل طائفة
منهم تحظى بالشهرة والظهور وطوائف أخرى لا تحظى بشيء
من ذلك، ولم يدرك بعضاً من أسرار حركة الأدب بالحركة التاريخية.

ومما يبدو ومؤرخ الآداب في حاجة إلى تناوله، وهو

ينظر في الأعلام الذين ألفوا نصوصاً أدبية، مسألة أوضاعهم

الاقتصاديين، فالأدباء هم في عرف الأغلبية الساحقة

من الدارسين، كائن اجتماعي تقتضيه حياته سعي إلى طلب

الرزق، وتشغل العضايا اليومية جانباً كبيراً من تفكيره، وليس بمستبعد

أن يكون الظروف السعاشرواوضاع أثرها في أدب الأديب .
وفي الحقيقة مؤرخ الآداب في حاجة أكيدة إلى أن يعرف ما كان
يعيشه الأديب وأن يلم بالوسائل التي كانوا بها يرتقون ،
خاصة أن الاستغلال بانتاج النصوص الأدبية قد لم يكن يضمن لمنعاطيه
الريز . فالأديب من الأنشطة القليلة التي لم تكن لها منزلة رسمية
بين الأنشطة التي يتعاطها الناس فتضمن لهم الفوت ولعل في
اشتغال كثير من الأديباء هم آخرى التي حان بالآداب ولا يلا
مقاطعا على ذلك . فاقبو العتاهية كان ، وفي ما يشهد به
معاصروه يبيع الجرار ، والتوحيدى كان يستمن البرافرة والنسب .
على أن أديبا عديدا لم يكونوا في حاجة إلى التكسب ، فقد اغتتم
من ذلك عطايا العوسرين ، وأورجعت عليهم أعمالهم الأدبية فأنسدها
بما يكسبهم مؤنوبة ذلك . وليس هذا مظهر لأخيرة من خصائص
عصرنا هذا فحسب ، فمن الأديباء القدامى من كان يجنى
أرباحا من بيع أدبه . ولعل هذا الخبر الذي أوردنا لثعالبي
عن ابن الحجاج الشاعر كفيلا بإقامة البرهان على ذلك فقد قال :
« وبلغني أنه كثير مما يبيع ديوان شعره بخسين دينار إلى السبعين » (48) .

ثم إن التعرف على أوضاع الأديباء الافتقار إلى تبين
عقيدة في التعرف على النصوص الأدبية نفسها . أوضاعها أصحابها
من تلغاء أنفسهم أم طلب منهم وضعها ؟ فكثيرة هي المؤلفات
العربية التي ظهرت بعد طلب توجه به أشخاص في السلطة
أو في غيرهما من السازل الاجتماعية إلى الأديباء . ولأن فالح ،
في هذه المسألة لا يخلو من قيمة قد تكون أساسية لفهم
حركة الأدب في التاريخ .

ومما يسد ومؤرخ الآداب في حاجة إلى الوقوف عليه ، وهو
يتناول الأعلام الذين ألفوا أدبا مسألة منازلهم الاجتماعية .
ومذايبهم العفائية وعلاقاتهم بالنصوص الأدبية التي أنتجوها .
فالأديباء الذين كانوا من العامة يختلفون عن أولئك الذين كانوا من

الخاصة. ولعل من أفصح الأدلة على هذا الاختلاف قول ابن الرومي وقد سمع أبياتا لابن المعتز في الوصف: "ذاك إنما يصف ماعون بينه لانة ابن خليفة، وأنا أي شري" أصف؟" (43). والأدباء الذين يلتزمون بنصرة ضايا الجاهل أو الشعوب المستعمرة يختلفون عن أولئك الذين يلتزمون بالإفصاح عن ضايا الإنسان من حيث هو حومير يعد فاسما مشتركا بين الناس أجمعين. وليس من شك في أن الأرب يأثر بذلك كله، فهو أنتاج على صلة عتيدة بصاحبه، وهو كائن من كلام يتعامل معه الناس في عصره وفي غير عصره لأنه يرضى لديهم حاجة ما دفعت بهم إلى أن يحناروه أو يحافظوا عليهم. ويبدو أنه يصعب على الأدباء جميعا أن يرفعوا في الانتباه إلى كل الطبقات الاجتماعية وأن ينطقوا بلسان كل الاتجاهات العقائدية، وإن كان منهم من نخاله وفق في ذلك عندما تطل آثاره تعد أدبيا راقيا على مر العصور وتجدها (50).

د - ~~الجمهورية~~ : يبدو والجمهورية من أسد المواضيع افتقارا للأبحاث في درس الأرب أو تأريخه على حد السواء. ذلك أنه ليس لنا في العربية، على ما نعلم، أثر واحد اتجه فيه صاحبه إلى العناية بهذا الموضوع رغم أن الجمهورية يبدو حاضرا في الأرب حضورا متعدد الوجوه. فهو حاضر في النصوص الأدبية من حيث هو ميدان يستمد منه الأدباء مادة أعمالهم وهو حاضر فيها من حيث أن الأدباء لا يكتبون

(43) - الزيات : تاريخ ... ص 279.

(50) - ذكر ذلك البيرسي. انظر فصله: نفايا علم اجتماع الأدب. فسي "سفال فني علم الاجتماع" ص 309.

A. Memmi : Problèmes de la Sociologie de la Littérature. in " Traité de Sociologie". P. 309.

لأنفسهم ولأنما يكتبون ما يكتبونه من آثار للقرّاء . وهو حاضراً في النصوص الأدبية من حيث أنهم من الذين يسمح لهم بالبقاء أولاً يسمح لهم به . فهو من هذه الناحية ، الحكم الأحيى الذي يرجع إليه الحكم على النصوص الأدبية بالبقاء أو الإصحاح . لهذا كله ، يبدو واهمال الجمهور في الدراسات الأدبية أمراً يبعث على التعجب ، خاصة أن تناولها بالنظر يكسبها عن جوانب كثيرة تبدو على غاية من الأهمية في شتم الأريب واستكشاف تاريخية . بل إن معرفتنا بالظاهرة الأدبية تظل مفقودة ما لم تتكبر لنا فكرة ما من الناس الذين كانوا يتعاملون مع النصوص الأدبية ويتصرفون في مصائرهما .

ولعل في مقدمة المسائل التي يتعين على مؤرخ الآداب الوقوف عليها مسألة القراء كثرتهم أو قلتهم ونسبتهم من الجمهور كله ، ومازالهم الاجتماعية وأوضاعهم الاقتصادية ، والغايات التي ينتظرونها من المطالعة . فمن كان يطالع النصوص الأدبية في العصر الأموي مثلاً ، وما كان يعرفها في العصر العباسي ؟ وهل يشمل القراء نسبة كبيرة أو صغيرة في المجتمع العربي في زينة العصرين ؟ وماذا كان أثر تلك النسبة على الظاهرة الأدبية فيهما ؟ وأي البواعث تدفع بالناس إلى قراءة الآداب ؟

أما المسألة الثانية فهي مسألة مواقف القراء من النصوص الأدبية نفسها . وهي مسألة شائكة جداً على ما يظهر ، إذ هي تتمثل في الوقوف على الأسباب والعوامل التي تجعل من أثر أدبي ما ينتشر بين القراء وبلغ على عندهم العناية والحظوة ، فما الذي يجعل القراء يقللون على نصوص أدبية دون نصوص أخرى ؟ وما الذي يجعلهم يزدنون في نصوص دون نصوص ؟ إن يرد فعل القراء إزاء النصوص الأدبية تظل من أعسر العضايا وأعقدّها على فهمها . خلاصة أن الآثار الأدبية ما يلغى فبولا حسناً

عند فئات اجتماعية دون فئات من أبناء العصر الواحد ،
وأن منها ما يعجب به الناس لمكانات أصحابه أو منازلهم
ففي المجتمع لا بل إن الغبول الحسن الذي تلفاه بعض الآثار يبدو
في بعض الأحيان مستحدثا أو مظهر فاع بعواميل لا علاقة لها
بالأرباب وقد يدل هذا على أن الشهرة التي تلتهاها بعض
النصوص الأدبية في عصورها أو في غير عصورها ، لا ترجع
للنصوص نفسها بقدر ما ترجع إلى تدخل بعض الأوساط
الاجتماعية في التمهيد لها أو في الذهاب إليها إلى أبعد
من مداها .

هـ - مسألة القيمة التاريخية : رأينا أن مسألة التقسيم
طرحنا على مؤرخي الآداب أعسر القضايا وأسغرها ، وأنهم
اختلفوا فيها اختلافًا كبيرًا جعلهم يذهبون في حلها
مذاهب ثلاثة تجسم أحدها في القول بالوحدات الزمنية
وتمثل الثاني والثالث في القول بالوحدات العرضية والفنية
وقد كان ذلك الاختلاف من الدلائل التي قامت عليها اختلافاتهم
المنهجية . ورأينا أيضًا أنه لا الوحدات الزمنية ولا الوحدات
العرضية أو الفنية مما يمكن أصحابه من السيطرة على
وإنفع الحركة أو التحول في تاريخ الأدب ، فقد كانت
في كل منها مزايا ظاهرة ونوايا بارزة .

ولذا نحن أجلنا الوقوف على هذه المسألة إلى
هذا الموطن من هذا البحث ، وليس لأنها تفقر قيمتها
ففي نظر الباحثين المحدثين ، وإنما لأنها تصبح ، كما
سنرى ، من المسائل العامة التي لا يختص بها الأدب في سائر
وآية ذلك أننا عندما ندج الأدب في المجتمع ونفهم تاريخه
على أنه تاريخ وحي من بين وجوه كثيرة للتاريخ العام ،
لا هو ينشأ من الأدب ولا ينشأ من المجتمع ، بل هو ينشأ من الميكان
الأدبي الذي الميكان التاريخي العام ، أو عندئذ تصبح
الأقسام التاريخية أقسامًا لتاريخ الأدب ، وتصبح النوايا
هنا هي النوايا هناك ، فما دامت حركة الرقعة التي

أو التفهيم هي في تاريخ الأدب أو النوارخ الفرعية
أو التاريخ العام، فإن الأقسام تصلح واحدة لجميعها، وهذا لا
يعني أن سألته التعسيم تصبح هيئة على الدهس، ففي التاريخ
العام كما في التواريخ الفرعية تظل من أشق السائل على
العكس، وفي الحقيقة فإن الباحث لا يمكن له إلا اختياراً
أقسام التاريخ على أي الأسس تقام أو بأي المفاهيم يؤيد فيها
فمن الدارسين من يعتمد على الأحداث الكبرى من هيل الكوارث
والجروب والاكسافات ويعتمد ما أقساماً لتاريخ العالم أو لتواريخ
الشعوب شعباً شعباً، ومنهم من يستعمل الأحيال فيعمد
كل جيل قسماً، ومنهم من يجعل من أتماب الملوك
وقيام الأنظمة السياسية معالم يفصل بها بين العصور،
ومنهم من يحاول لإرساء التعسيم على أسس نازعة إلى العلميه
فينظر في أحوال الاقتصاد ويقسم التاريخ بعقودها إلى
عهود، وهذه المناحي العديدة لما تدل، في الواقع، على
جانب الشعبة والعسر في جعل التاريخ أقساماً بتمييز
بعضها من بعض، ولعلنا نستبعد أن نكون أقسام التاريخ
العام التي هي في الآن نفسه أقسام نوارخ سائر ما يتفرع
إليه نشاط البشر المادي والفكري من فروع، مما تحدد
أبحاث كثيرة متطورة وعميقة تتناول كل الميادين والظواهر
ويعين بعضها بعضاً على ضبط الأقسام وتحديد خصائصها
وخصائصها، إذ الكل في الكل مؤثرهما تفاوت الدرجات،
وفي أهمال أيهما ينظر على التصور العام قد يعر به
من واقع الأشياء. وهكذا فإن مسألة التقسيم في النظر
المحدث تخرج من نطاق الأدب إلى النطاق العام وتصبح قضية
مطروحة على الأدب وغير الأدب من المباحث التي
يتناولها المؤرخون.

تلك هي بعض الآفاق التي بدأت الأبحاث الجديدة
تتجه إليها سواء في فهم الأدب أو درسيه أو التاريخ له. وهي
آفاق كشف عنها، ومن معظم تضايها، أراح الأدب في
المجتمع من حيث هو ظاهرة تدعو إليها حاجة اجتماعية
تضمن استمرارها وتحدد مكانتها في المجتمع وتضبط
عملها فيه. وقد فلنا، مرارا وفي مواطن متعددة
من هذا العمل، إن كل شيء في هذه الاتجاهات
الجديدة وفي الآفاق التي تنزع اليها استكشافها وفي
التضايها التي تعنى بمعالجتها، ما زال مطروحا
على صعيد البحث. وإنه لمن المجازفة الظاهرة
أن يذهب ذاهب إلى أن ما بلغت إليه الأعماس الجامعية
أو الفردية في هذا النحو هو عين اليقين. وإذا كان
هكذا، وإذا كانت السائل في هذا الضرب من الأبحاث
حملة كثير من التعود والإمكان بالعبء الصعوبة والانغلاق
حتى أن جهود الأفراد تبدو ديارها فاصرة عاجزة،
فإنه من اللازم علينا أن نؤكد مرة أخرى،
على أن الإقتراحات التي أضربنا إليها سواء في
تضاعف هذا العمل أو في خاتمة، ليست في نظرنا على
الأقل، أكثر من مسائل نظرحها على النعاش على
الجهود الجامعية، إذا تضافرت على معالجتها، تشعري
النظر إلى الأدب العربي في ماضيه وحاضره، وتطور
فهم الدارسين له، وتكشف، إلى حد ما، عن طبيعته
أدوية في مختلف فترات التاريخ.

الـمـرآة

و

الـمـرآة

قائمة المراجع

* * * * *

I - المراجع العربية :

(1) - في مقدمة تاريخ الأدب ومناهجه :

- الشاذلي، محمد عبد السلام :

الاتجاه العلمي في مناهج تاريخ الأدب الحديث بمصر حتى بدايات الحرب العالمية الثانية. رسالة ماجستير. كلية الآداب. جامعة القاهرة 1972. (مخطوطة تحت رقم 1105).

- عامر، عطية، الدكتور :

دراسات في الأدب العربي الحديث. دار المغرب العربي . تونس 1970.

- فيصل، بكري :

مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي (عرض ونقد واقتراح). دار العلم للملايين . بيروت 1973.

- مندر، محمد :

منهج البحث في الأدب واللغة. دار العلم للملايين . بيروت 1946.

(2) - في القطب العربي :

- بروكلمان، كارل :

تاريخ الأدب العربي. نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار. دار المعارف. القاهرة 1977.

- الجندي، علي، الدكتور :

تاريخ الأدب الحاملي. مكتبة الأنجلو - المصرية. القاهرة 1969.

- درويش، محمد حسن :

تاريخ الأدب العربي في الجاهلية وصدر الإسلام. مكتبة الكليات، الاسكندرية. القاهرة 1971.

* - يمكن اعتبار المؤلفات التطبيقية أعمالاً في المفاهيم والمناهج لأنها تضمنت في مقدماتها أبحاثاً نظرية في مسائل منهجية قائمة في مادة تاريخ الأدب.

- شيخو، ل. - - - - - :

تاريخ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين . المكتبة الكاثوليكية .
بيروت 1926 .

- ضيف، شوقي، الدكتور :

• تاريخ الأدب العربي . دار المعارف . القاهرة (1960 - 1969 - 1971) .
• الفن ومذاهبه في الشعر العربي . مكتبة الأندلس . بيروت 1943 .
• الفن ومذاهبه في النثر العربي . دار المعارف . القاهرة 1960 .

- فروخ ، عمر ، الدكتور :

تاريخ الأدب العربي . دار العلم للملايين . بيروت (1969 - 1972) .

- نالينو، كارل - - - - - :

تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية . ر هو نصر المحاضرات
التي ألقاها بالجامعة الأهلية المصرية سنة (1910 - 1911) . جمعها
ونشرتها كما هي ابنته مريم نالينو . وندم لها طه حسين . دار المعارف .
القاهرة 1954 .

(3) - لي الخليفة التاريخي و تراجم الأعلام :

أ - أعمال جماعية :

- طه حسين و قضية الشعر :

عبد الله بدوي ، محمد عبد المنعم خفاجي ، عامر محمد بحري ، محمد
عبد الغني حسن . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة 1975 .

- طه حسين (ببليوغرافية نقدية) :

الدكتور حمدي السكوت ، والدكتور مارسدن جونز . الجاسعة الأمريكية .
القاهرة 1975 .

ب - أعمال فردية :

- أمين ، عزالديني ، الدكتور :

نساء النقد الأدبي الحديث في مصر . دار المعارف . القاهرة 1979 .

- أمين ، سامي - - - - - :

التعليق على " لقيط " 1914 = 1915 . دار المعارف . القاهرة 1917 .

- الجاسي ، أنيس - - - - - :

النكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية . مطبعة الرسالة
القاهرة . بدون تاريخ .

- حسين ، ط ----- ه :

تحديد ذكرى أبي العلاء . دار المعارف . القاهرة 1951 .

- الخوري ، رئيس ----- ف :

الفكر العربي الحديث وأثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي .

دار السكوف . بيروت 1943 .

- داغريوسوف أسد ----- د :

مصادر الدراسة الأدبية . منشورات جمعية أهل القلم . بيروت (1957 -

1961 - 1972) .

- الدسوقي ، عبدالعزيز ، الدكتور ----- ور :

تطور النقد العربي الحديث في مصر . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة

1977 .

- الدسوقي ، عم ----- ر :

في الأدب الحديث . دار الفكر العربي . القاهرة 1953 .

- السايب ، أحمد ----- د :

أصول النقد الأدبي . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة 1955 .

- صيف ، شوقي ، الدكتور ----- ور :

الأدب العربي المعاصر في مصر (1850 - 1950) . دار المعارف القاهرة

1957 .

- عبد السلام ، أن ----- ور :

الفكر العربي في معركة النهضة . دار الآداب . بيروت 1974 .

- العريان ، محمد سعيد ----- لا :

مصطفى صادق الرافعي . مطبعة الاستقامة . القاهرة 1938 .

- قلته ، ك ----- ان :

طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية في أدبه . دار المعارف . القاهرة

1972 .

- مخلوف ، حسين ----- ان :

مصطفى صادق الرافعي ، حياته وأدبه . دار الهلال . القاهرة 1976 .

- هيكل ، محمد حسين ----- ن :

مذكرات في السياسة المصرية . القاهرة 1951 .

في أوقات الفراغ . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة 1963 .

(4) - مراجع عامة:

أحمد بن بسطام : _____

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . تحقيق عبد الوهاب عزام . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة 1945 .

④ تيزيني ، طيب ، الدكتور : _____

مشروع رؤية جديدة للفكر العربي من العصر الجاهلي حتى المرحلة المعاصرة .

دار ابن خلدون . بيروت 1976 .

الشالبي ، أبو منصور : _____

يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

مطبعة السعادة . القاهرة 1377 هـ .

ابن الجراح ، محمد بن داود : _____

الورقية . تحقيق عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج . دار المعارف

القاهرة 1953 .

الجمعي ، محمد بن سنان : _____

طبقات فحول الشعراء . تحقيق محمود محمد شاكر . دار المعارف . القاهرة

1952 .

الحسوي ، ياقوت : _____

معجم الأرباء . تحقيق مرقوليوث . دار المستشرق . بيروت . بدون تاريخ .

الدوري ، عبد العزيز ، الدكتور : _____

مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي . دار الطليعة . بيروت 1969 .

روزنر ، توماس : _____

علم التاريخ عند المسلمين . ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي . مكتبة الشنقي .

بغداد 1963 .

العروي ، عبد الله : _____

العرب والفكر التاريخي . دار الحقيقة . بيروت 1973 .

ابن قتيبة : _____

الشعر والشعراء . تحقيق أحمد محمد شاكر . دار المعارف . القاهرة 1967 .

المصري ، أبو العلاء : _____

لزم سالك . د. الدكتور طه حسين وإبراهيم الأبياري . دار المعارف . القاهرة

طه حسين : _____

- منشور :

في الميزان الحديد . منشأة نهضة مدر . القاهرة . بدون تاريخ .

- الهداني ، بديع الزمسان :

المقائسات . تحقيق محمد عبده . دار المنشور . بيروت 1960 .

- ابن وهب ، أبو الحسن اسحاق بن ابراهيم :

البرهان في وجوه البيان . تحقيق أحمد مطلوب . مطبعة العاتي . بغداد 1973 .

(5) - الدورية :

- ولايات الجامعة التونسية : العدد الثالث عشر . تونس . 1976 .

- مجلة مجمع اللغة العربية بدسرق : يوليو . مجلد السنة 1968 .

- السرق (صاحبها لريش شينو) : مجلد السنة 14 (1911 - 1912) .

- الهلال (صاحبها درجي زيدان) : مجلدات ما بين سنتي 1892 و 1917 .

(1) - في مفاهيم تاريخ الادب ومناهجها :

أ - أعمال : ماعية :

- * - Analyse de la périodisation littéraire : (J. Dubois, R. Escarpit, R. Estivals; ;.) Encyclopédie Universitaire. éditions universitaire Paris 1972.
- * - Le Littéraire et le Social. éléments pour une sociologie de la littérature. (R. Escarpit...) , éditions Flammarion. Paris 1970.
- * - Littérature et Société : Problèmes de méthodologie en sociologie de la littérature. Colloque organisé conjointement par l'Institut de Sociologie de l'Université libre de Bruxelles et l'Ecole Pratique des Hautes Etudes de Paris du 21 au 23 mai 1964. Paris 1967.
- * - Problèmes et méthodes de l'histoire littéraire. Colloque du 18 novembre 1972. Organisé par la société d'histoire littéraire de la France éditions A. Colin. Paris 1974.

ب - أعمال فردية :

- Goldmann ; L. : Pour une sociologie du roman. éditions Gallimard . Paris 1967
- Lanson ; G. : Etudes d'histoire littéraire , réunies et publiées par ses collègues, ses élèves et ses amis . Librairie ancienne, Honoré Champion. Paris 1926.
- Méthode de l'histoire littéraire. in revue : Etudes Françaises les belles lettres . Paris janvier 1925.
- Benmi ; A. : Problèmes de la sociologie de la littérature. in Traité de sociologie (sous la direction de G. Gurvitch) . éditions P. U. Paris 1963.
- Todorov ; T. : l'histoire de la littérature. in revue langue française n° 1 éditions Larousse . Paris 1970.
- Valéry ; P. : Variété V . éditions Gallimard. Paris 1967.
- Vernier ; F. : L'écriture et les textes. éditions sociales. Paris 1974.

(2) - في القديس : ~~في القديس~~

أ - أعمال - معاصرة :

* - Histoire littéraire de la France : par un collectif, sous la direction de P. Abraham et R. Desnoes. éditions Sociales. Paris 1971.

ب - أعمال فردية :

Abdel-Jalil ; J. M. : Brève histoire de la littérature arabe. éditions Maisonneuve. Paris 1943.

Abdesselem ; M. : Le thème de la mort dans la poésie arabe des origines à la fin du III / IX^e siècle. Publications de l'Université de Tunis. 1977.

Elachère ; R. : Histoire de la littérature arabe des origines à la fin du XV^e siècle. éditions Maisonneuve. Paris 1952-1964- 1966.

Gibb ; H. A. R. : Arabic literature an Introduction. Oxford. Clarendon Press. 1960.

Huart ; G. : Littérature arabe. Collection Histoire des littératures. éditions A. Colin. Paris 1923.

Lanson ; G. : Histoire de la littérature française. éditions Hachette. Paris 1951.

Mellino ; G. A. : La littérature arabe des origines à l'époque de la dynastie Omeyyade. Rome 1948. Traduction Ch. Pellat. Paris 1950.

Nickolson ; R. : A literary history of the arabs. Cambridge at the University Press. 1956.

Thibaudet ; A. : Histoire de la littérature française de 1789 à nos jours. éditions Stock. Paris 1936.

Wiet ; G. : Introduction à la littérature arabe. éditions Maisonneuve. Paris 1966.

(3) - في الفكر العربي المعاصر :

- Abdel - Malek ; A. : Idéologie et renaissance nationale, l'Egypte moderne.
éditions Anthropos. Paris 1969.
- La pensée Politique Arabe Contemporaine. éditions du Seuil. Paris
1970.
- Amin ; S. : La nation arabe (nationalisme et luttes de classes) éditions
minuit. Paris 1976.
- Arkoun ; H. : La pensée arabe. éditions P. U. F. " Que sais-je ? " Paris 1975.
- Ghali ; I. A. : l'Egypte nationaliste et le libéral de Moustapha Kamel / à
Saad Zaki Houl (1892 - 1927) . Lahaye 1969.
- Hamzaoui ; R. : L'académie de langue arabe de Caïre (Histoire et Oeuvres).
publications de l'université de Tunis . 1975.
- Hussein ; H. : Tendances Nationales dans la Littérature Moderne. le Caïre 1948.
- Husseyne ; T. : Tendances Religieuses de la Littérature Egyptienne d'aujourd'hui.
in. revue l'Islam et l'Occident. Cahiers du Sud. 1947.
- Kamel ; H. : Dialogue entre l'héritage culturel et le modernisme dans la
pensée égyptienne contemporaine. in. revue Travaux et Jours. n° 46.
1973.
- Laoust ; H. : Introduction à une étude de l'enseignement arabe en Egypte. in.
R. E. I. T. VII. 1933.
- Laroui ; A. : La crise des intellectuels arabes. éditions Maspéro. Paris 1974.
- Tahar ; H. : Taha Husseyne, sa critique littéraire et ses sources françaises.
éditions Maison Arabe du Livre. Tunis 1976.
- Tlili ; B. : les rapports culturels et idéologiques entre l'orient et l'occident,
en Tunisie au XIX^e siècle (1830 - 1880) . publications de
l'Université de Tunis. 1974.
- Wardenburg ; J. J. : Les Universités dans le monde arabe actuel. éditions Mouton.
Paris 1966.

: اعمان جمع - (4

: اعمان جمع

- * - Aujourd'hui l'Histoire : Enquête de la Nouvelle Critique. éditions Sociales. Paris 1974.
- * - Dictionnaire Encyclopédique des Sciences du Langage : Oswald Ducrot et Tzvetan Todorov. éditions du Seuil. Paris 1972.
- * - L'Histoire : Palraco et Thrard. éditions A. Colin Paris 1965.
- * - Littérature et Idéologies : colloque de Cluny II , 2, 3, 4 , avril 1970. éditions Buihour, Malval, Titus, Car el. Paris 1970.
- * - La Stylistique : P. Guiraud et P. Kuenz. éditions Klincksieck. Paris 1970.

: اعمان فرديّة

- Abderrahlem ; A. : Les Historiens Tunisiens des XVII^e, XVIII^e et XIX^e siècles. Essai d'histoire culturelle. publications de l'Université de Tunis 1973.
- Balibar, R. : les Français fictifs . éditions Hachette littérature. Paris 1974.
- Barthes ; R. : Critique et Vérité. éditions du Seuil . Paris 1966.
- Bloch ; H. : Apologie pour l'histoire ou métier d'historien. Cahiers des Annales. 1^o 3 , éditions A. Colin . Paris 1976.
- Cassirer ; E. : Philosophie des formes symboliques. éditions Minuit. Paris 1972.
- Escarpit ; R. : Histoire de l'histoire de la littérature. in. Encyclopédie de la Pléiade. éditions Gallimard. Paris 1958.
- Sociologie de la littérature. éditions P. U. F. " Que sais-je?" Paris 1958.
 - Théorie Générale de l'Information et de la Communication. éditions Hachette. Paris 1976.
- Lombard ; H. : l'Islam dans sa première grandeur (VIII^e / XI^e siècle) éditions Flammarion . Paris 1971.
- Lukacs ; G. : Balzac et le réalisme français. éditions Maspéro. Paris 1973.

- Maurois ; Ch. : Des staphores obsédantes au mythe personnel . (Introduction à la psycho-critique) . éditions Corti. Paris 1968.
- Léokhanov ; G. : Essai sur la conception moniste de l'histoire. éditions Sociales. Paris 1973.
- Prévost ; Cl. : Littérature, politique, idéologie. éditions Sociales Paris 1973.
- Thibaut ; J. : Socialisme-avant-garde-littérature. éditions Sociales Paris 1972.

(5) - الـــــ وريـــــات :

- * - Langue française. Larousse . Paris 1966...
- * - Littérature. Larousse . Paris 1971...
- * - Poétique . Seuil. Paris 1970 ...
- * - Revue d'histoire littéraire de la France. (fondée en 1894) ; " Méthodo-
logie" . Paris 1970.
- * - Sémiotica . Mouton. Paris 1976 ...

(2) - الاختيارات

- 136 أ - منهج التفسير الى عصر - - - - -
 137 (1) - عدد العصور - - - - -
 138 (2) - الحدود بين العصور - - - - -
 143 (3) - الفراغ بين العصور - - - - -
 149 (4) - خصائص العصور الأدبية - - - - -
 152 (5) - وجهة تاريخ الأدب - - - - -
 157 ب - منهج التفسير الى أغرار - - - - -
 162 (1) - المستندات النظرية - - - - -
 163 (2) - الممارسات - - - - -
 167 (3) - مزايا هذا المنهج وقفاياه - - - - -
 171 ج - منهج التفسير الى مدارس - - - - -
 178 (1) - المستندات النظرية - - - - -
 180 (2) - الممارسات - - - - -
 181 (3) - مزايا هذا المنهج وقفاياه - - - - -
 187

المسألة الثالثة

الأعمال

- 197 (1) - العمل بمنهج التفسير الى عصر - - - - -
 199 أ - اختيار العمل - - - - -
 200 ب - تاريخ الأدب في العصر الأموي - - - - -
 201 (1) - عند زيدان - - - - -
 201 (2) - عند الزيدان - - - - -
 204 (3) - النتائج - - - - -
 207 ج - تقديم زيدان والزيات للعصر الأموي - - - - -
 209 د - تأريخ زيدان والزيات للشعر في العصر الأموي - - - - -
 216 هـ - الترتيب - - - - -
 220 (2) - العمل بمنهج التفسير الى أغراض - - - - -
 243 أ - تأريخ الرافعي للشعر العربي - - - - -
 245 ب - تأريخ الرافعي لأغرام الشعر العربي - - - - -
 252 ج - الترتيب - - - - -
 255

- 270 (3) الممثل بنهج التفسير الى مدارس
272 أ - القسم التمهيدي
274 ب - القسم التطبيقية
276 * - حركه الأرب
278 * - الت - راجع

- 285 الخاتمة
289 (1) - الحصيل
290 أ - الففایا الفهمومية
300 ب - القضاء الشهيبة
309 (2) - الآف
316 أ - الظاهره الأربيه
331 ب - النص و الأربيه
336 ج - الم - ولفون
339 د - الحمه
341 ه - مسأل - التفسير
344 المراجع والفهم